هرمان هسه

ذئب السهوب

ترجمة: أسامة منزلجي

ذئب السهوب

☆ ذئب السهوب

☆ تأليف: هرمان هسه

☆ ترجمة: أسامة منزلجي

☆ الطبعة الأولى: 1997

☆ دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ أشرفية صحنايا ـ هاتف: 6713079

ص.ب: 32105

إهداء المترجم

إلى الشاعر منذر مصري.

شاعر مخضرم وهو

لا يحمل تحت إبطه

إلا.

فقط.

ثلاثة دواوين

من شعره.

ملاحظة المؤلف

1961

يمكن فهم الكتابة الشعرية وإساءة فهمها بطرق متعددة. وفي أغلب الحالات لا يكون المؤلف هو المرجع الصحيح الذي يحدد أين يكفّ القارئ عن الفهم ويبدأ سوء الفهم. وكم من مؤلف عثر على قراء بدا لهم عمله أشد شفافية مما بدا له هو نفسه. ثم إن سوء الفهم قد يكون مثمراً في ظروف معينة.

بيد أنه يبدو لي أن "ذئب السهوب"، من بين كتبي كلها، هو الأكثر تعرضاً لسوء الفهم وبعنف أشد من أي من الأخرى، ودائماً يكون القراء الإيجابيون والمتحمسون، وليس أولئك الذين يرفضون الكتاب، هم في الواقع الذين يُبدون ردَّة فعل غريبة. وقد تتكرر هذه الظاهرة كثيراً، جزئياً، وفقط جزئياً، بسبب أن هذا الكتاب، الذي كتبته وأنا في الخمسين من عمري، ويتناول، على طريقته، مشاكل تلك الحقبة، كان غالباً ما يقع في أيدي قراء صغار كثيراً في السن.

لكني كنت أيضاً أعثر باستمرار بين القراء الذين هم في مثل سنّي على البعض الذين ـ على الرغم من إعجابهم بالكتاب ـ لم يدركوا، ويا للغرابة، إلا، نصف مرماي. وهؤلاء القراء، كما يبدو لي، قد رأوا أنفسهم في ذئب السهوب، وطابقوا أنفسهم معه، وعانوا همومه، وحلموا أحلامه، لكنهم تغاضوا عن حقيقة أن هذا الكتاب يعرف أموراً

أخرى يتحدث عنها، إلى جانب هاري هاللر ومصاعبه، عن عالم ثان، أرقى، خالد، يتجاوز ذئب السهوب، وحياته المثيرة للجدل. إن "أطروحة" وكل مآزق الكتاب تلك، التي تناقش مسائل الروح، والفنون، والرجال "الخالدين" تواجه عالم معاناة ذئب السهوب بعالم من الإيمان سرمدي، فائق الخصوبة، صافٍ وإيجابي. وهذا الكتاب يحكي، بلا ريب، عن الهموم والحاجات، ومع ذلك فهو ليس كتاب إنسان يائس، وإنما إنسان مؤمن.

طبعاً، ليس في مقدوري ولا في نيتي أن أسرد على قرائي كيف عليهم أن يفهموا حكايتي. فليعثر كل منهم على ما يضرب على وتر حساس فيه ويكون ذا فائدة له! ولكن سيسعدني إذا أدرك كثير منهم أن قصة ذئب السهوب تُصوِّر مرضاً وأزمة. إنها ليست قصة تؤدي إلى الموت والدمار، بل على العكس: إلى الشفاء.

هرمان هسه

تمهيد

هذا الكتاب يضم مدوّنات تركها لنا رجل، كنا ندعوه ذئب السهوب، وهو تعبير كان هو نفسه كثيراً ما يستخدمه. وقد يبقى التساؤل حول ما إذا كان هذا المخطوط يحتاج إلى أية ملاحظات تُعَرِّف به مطروحاً للنقاش. إلا أني أشعر بحاجة إلى أن أضيف بضع صفحات أُخر إلى ما كتبه ذئب السهوب، أحاول فيها أن أدوِّن ذكرياتي عنه. وما أعرفه عنه قليل جداً. بل، والحق يقال، إني لا أعرف عن ماضيه وجذور نشأته أي شيء. لكني على الرغم من كل ذلك، احتفظتُ بصورة واضحة ومتعاطفة عن شخصيته.

قبل بضع سنوات عرَّج المدعو ذئب السهوب، وكان عندئذ يناهز الخمسين من عمره، على عمتي يستعلم عن غرفة مفروشة. واستأجر غرفة العليَّة الكائنة في الطابق الأعلى وغرفة النوم المجاورة لها، وبعد يوم أو يومين آخرين عاد مع صندوقين من الأمتعة، وحقيبة كبيرة ملأى بالكتب ومكث معنا فترة تسعة أشهر أو عشرة. وعاش وحده حياة هادئة جداً، ولولا تقارب غرفتي نومنا ـ مما كان يتيح لنا فرصاً عديدة للتقابل على الدرج وفي الممر ـ لما تعارفنا قط. وفي الحقيقة، لم يكن رجلاً اجتماعياً، إلى درجة لم أعرفها عند أي شخص آخر. لقد كان بحق ذئب سهوب، كما كان يسمي نفسه، ومخلوقاً غريباً، برياً، وحييّاً ـ بل شديد الحياء ـ قادماً من عالم آخر غير عالمنا. وأنا حتماً لم أدرك مبلغ عمق

الوحدة التي انجرفت إليها حياته بسبب مزاجه وقدره ومدى الوعي الذي تقبّل به هذه الوحدة وقدره، لم أدرك ذلك، إلا عندما قرأت المدوَّنات التي خلَّفها وراءه. إلا إني قبل ذلك تعرفت إليه عبر أحاديثنا العارضة ولقاءاتنا، وقد وجدت أن الصورة التي رسمتها له مدوناته تتفق بشكل جوهري مع الصورة الأشد شحوباً والأقل اكتمالاً من التي كونتها من خلال معرفتنا الشخصية.

تصادف أن كنت موجوداً لحظة دخل ذئب السهوب بيتنا للمرة الأولى وأصبح مستأجراً عند عمتي. وقد حدث ذلك عند الظهيرة. كانت المائدة قد رفعت، وكان ما يزال أمامي فترة نصف ساعة قبل أن أعود إلى المكتب. وقد رن الجرس، ودخل من الباب الزجاجي. فسألته عمتي وسط نور الصالة الخافت عما يريد. إلا أن ذئب السهوب رفع بحركة سريعة رأسه الحاد التقاطيع، والمقصوص الشعر قصيراً جداً وهو يشم فيما حوله بعصبية قبل أن يدلي بأي جواب أو يعلن عن اسمه.

قال: «آه، المكان يفوح برائحة ذكية»، وابتسم على الأثر وابتسمت عمتي بدورها. أما أنا، فوجدت هذا الأسلوب في التعريف بنفسه سخيف وشعرت بشيء من النفور منه.

قال: «لقد أتيت من أجل الغرفة التي ستؤجرينها».

لم ألق نظرة متفحصة عليه إلا عندما اتجهنا نحن الثلاثة لنصعد إلى الطابق الأعلى. وعلى الرغم من أنه لم يكن ضخم الجثة، إلا أنه كان يتصف بمشية وهيئة رجل ضخم الجثة. وكان يرتدي معطفاً شتوياً أنيقاً وعلى مقاسه. وكان حسن الهندام، وإن بدا متسماً بالإهمال، وحليق الذقن، وقد وخط الشيب هنا وهناك شعر رأسه القصير. ولم أحب على الإطلاق أسلوب تصرفه في أول الأمر. فقد كانت تشوبه مسحة من الضجر والتردد لا تتماشى وقسمات جانب وجهه الحادة والأخاذة ولا

مع نبرة صوته. وقد اكتشفت فيما بعد أن صحته كانت عليلة وأن السير على القدمين يتعبه. وراح، وهو يرسم ابتسامة خاصة ـ وجدتها كريهة بدورها في ذلك الوقت ـ يتأمل الدرج، والجدران، والنوافذ، والخزائن القديمة الطويلة على طول بئر السلم. وبدا أن كل ذلك يشيع السرور في نفسه ويسليه في وقت واحد. وكان بشكل عام يعطي انطباعاً بأنه آت من عالمٍ غريب، وربما من قارة أخرى. فقد وجد كل شيء فاتناً جداً وعجيباً قليلاً. ولا أستطيع أن أنكر أنه كان مهذباً، بل وودوداً. وقد وافق من فوره وبدون إبداء أية معارضة على شروط الإيجار وطعام الإفطار وما إلى ذلك، ومع ذلك فقد كان يحيط بالرجل كله جو غريب وأيضاً، كما بدا لي، منفر أو عدائي. واستأجر الغرفة وغرفة النوم أيضاً، وأنصت بانتباه وود إلى كل التعليمات المتعلقة بالتدفئة، والمياه، والخدمة، وبقوانين المنزل، ووافق على كل شيء، وعرض على الفور أن يدفع مبلغاً مقدماً ـ ومع ذلك بدا في الوقت نفسه أنه لا علاقة له بالأمر كله، وأنه يجد ما يفعله مضحكاً، وأنه لا يستطيع أن يحمله على محمل الجد. وكان من الغريب جداً وتجربة جديدة عليه، وهو المنهمك بهموم مختلفة تماماً، أن يستأجر غرفة ويتحدث مع الناس باللغة الألمانية.

بشكل أو بآخر كان ذاك هو انطباعي الذي خرجت به، وما كان حتماً انطباعاً جيداً، لو لم أعد النظر فيه وأصحّحه بشواهد عديدة صغيرة. وفوق كل ذلك، فقد ترك وجهه وقعاً ساراً في نفسي منذ البداية على الرغم من طابعه الأجنبي. كان وجهاً متميزاً ولعله حزين، لكنه متيقظ، متفكر، قوي المعالم وينم عن ذكاء فائق. ومن ثم، وزيادة في التصالح معي، كان هنالك أدبه وسلوكه الودي، الذي، على الرغم من أنه بدا يكلّفه بعض المشقة، إلا أنه كان مع ذلك خالياً من أي ادِّعاء، على العكس فقد كان يتسم بلمسة مؤثرة، متوسلة. وقد اكتشفت تفسيراً لذلك لاحقاً، لكني شعرت أني منجذب إليه أكثر قليلاً.



قبل أن تتم معاينة الغرفتين ويعقد الاتفاق، كانت ساعة تناول الغداء المخصصة قد انقضت وبات عليّ أن أعود إلى العمل. فاستأذنت بالمغادرة، وتركته في عهدة عمتي. ولدى عودتي ليلاً أخبرتني أنه قد استأجر الغرفتين، وأنه سوف ينتقل إليهما في غضون يوم أو يومين. والطلب الوحيد الذي تقدَّم به هو أن يُكتم أمر وصوله عن رجال الشرطة، لأنه كان يجد في تلك الإجراءات الرسمية والوقوف مطولاً في غرف الانتظار الرسمية، ونظراً لحالته الصحية المتدنية، ما يفوق طاقة تحركه. ولا أزال أذكر جيداً كيف أدهشني هذا التصرف وكيف أني حذَّرت عمتي من الرضوخ لشرطه. فقد بدا لي هذا الخوف من الشرطة يتفق تماماً مع الجو الغامض والغريب الذي أحاط الرجل به نفسه، ووجدته مثيراً للشبهات. وشرحت الأمر لعمتي أن عليها أن لا تضع نفسها في هذا الموقف الرقيق بأي حال من الأحوال إكراماً لشخص غريب بكل معنى الكلمة، إذ يمكن أيضاً أن تترتب عنه عواقب وخيمة، في غير صالحها. ولكن اتضح أن عمتي كانت قد رضخت لتوها إلى طلبه، بل إنها، في الواقع، استسلمت لفتنة الرجل الغريب وسحره. لأنها لم تكن تقبل قط أي مستأجر إذا لم تقم معه صلة إنسانية، ودية، وأيضاً، إن صح التعبير "عمَّاتية"، أو بالأحرى صلة أمومية. وكان العديد من المستأجرين السابقين قد استغلوا نقطة ضعفها هذه. لذا حدث خلال الأسابيع الأولى أن كنت أمسك على المستأجر الجديد الكثير من العيوب، في حين أن عمتي كانت في كل مرة تقف في صفه بحماس.

لما لم أكن قط مسروراً لمسألة التغاضي عن إبلاغ رجال الشرطة هذه، فقد أردت على الأقل أن أعلم ماذا عرفت عمتي عنه، وعن ماضيه

ونواياه. وهي طبعاً، عرفت عنه بعض الأمور المتفرقة، على الرغم من أنه لم يمكث إلا فترة وجيزة، بعد مغادرتي عند الظهيرة. فقد قال لها إنه يفكر في أن يقضي بضعة أشهرٍ في بلدتنا لكي يفيد من المكتبات ويلقي نظرة على معالمها العتيقة. ويمكنني القول إن عمتي لم يعجبها أنه استأجر الغرفتين فقط لفترة قصيرة، إلا أنه كان من الواضح أنه كسب حبها على رغم طريقته الغريبة في التعريف بنفسه. باختصار، أُجِّرت الغرفتان وجاءت اعتراضاتي بعد فوات الأوان.

سألتها: «لماذا بحق الله قال إن المكان ذكي الرائحة؟».

أجابت ببصيرتها المعتادة: «أعرف السبب جيداً، فثمة رائحة للنظافة وللترتيب هنا، وللراحة وللجو المحترم. وهذا ما أعجبه. إنه يبدو وكأنه لم يكن معتاداً على ذلك مؤخراً وهو مشتاق إليه».

قلت في نفسي، هذا ليس شأني، ثم قلت بصوت عال: «ولكن ماذا ستقولين إذا اتضح أنه ليس نظيفاً وجعل كل شيء قذراً، أو عاد إلى المنزل وهو ثمل في أوقات مختلفة من الليل؟».

قالت وهي تضحك: «سنرى، سنرى». وتركت الموضوع عند هذا الحد.

الحق يقال أنه لم يكن لمخاوفي أي أساس من الصحة. فعلى الرغم من أن المستأجر لم يكن حتماً يعيش حياة منظمة كثيراً ومعقولة، إلا أنه لم يسبب لنا أي قلق أو مشكلة، وبقينا على فكرتنا الحسنة عنه. بيد أننا أنا وعمتي، كنا منزعجين وقلقين عليه إلى حد كبير، وأعترف أني وحتى هذه اللحظة أفكر فيه. وكثيراً ما أحلم به ليلاً، وقد كان لمجرد وجود ذاك الرجل تأثير مزعج وقلق إلى أقصى حد، على الرغم من أني بتُّ أحبه.



بعد يومين من ذلك، أحضر حمَّال أمتعة الرجل الغريب الذي كان اسمه هاري هاللر. كانت لديه حقيبة جلدية أنيقة جداً، تركتْ انطباعاً حسناً لديّ، وصندوق ثياب لغرفته كبيراً ومستوياً يحمل إشارات تدل على أنه سافر بعيداً ـ على الأقل كان يحمل ملصقات لفنادق ووكالات للسفر من بلدان مختلفة، بعضها يقع عبر البحار.

ثم ظهر هو بنفسه، وبدأت الفترة التي أخذتُ أتعرف خلالها وبالتدريج على الرجل الغريب. في أول الأمر لم أقم بأية مبادرة مشجعة. وعلى الرغم من أن هاللر أثار اهتمامي منذ لحظة رؤيتي له للمرة الأولى، فلم أقم بأي خطوة خلال الأسبوعين أو الثلاثة الأول لأقابله مصادفة أو لأنخرط معه في حديث. ومن ناحية أخرى أعترفُ بأني، ومنذ الوهلة الأولى، أوليته شيئاً من انتباهي، وزيادة على ذلك صرت أدخل إلى غرفته بين حين وآخر حين لا يكون موجوداً ويدفعني فضولي إلى أن أقوم ببعض التلصص.

لقد أعطيت لتوي وصفاً لمظهر ذئب السهوب الخارجي. إنه يعطي انطباعاً لدى النظرة الأولى بكونه رجلاً هاماً، استثنائياً، وموهوباً خارقاً. كان وجهه يحمل تعبيراً متفكراً، وكانت حركات قسماته المتحولة والرقيقة بشكل شاذ تعكس روحاً ذات حساسية مرهفة رهافة عجيبة وعاطفية إلى أقصى حد. وعندما يتحدث المرء معه ويُسقط هو الرسميات، وهذا لا يحدث كثيراً، ويبدأ بسرد أمور شخصية وذاتية من عالمه الغريب، عندئذ لا يسع رجل مثلي إلا أن يقع تحت تأثير سحره للتو. كان يفكر أكثر من بقية الناس، وفي أمور الفكر كان يتصف بتلك الموضوعية الهادئة، بذاك اليقين الفكري وبالمعرفة، الذي لا يملكه بحق إلا المفكرون، المفتقرون إلى الطموح، الزاهدون في التألق، أو في إقناع الآخرين أو في أن يظهروا دائماً أنهم على حق.

أذكر هنا حادثة حول هذا وقعت خلال أيامه الأخيرة هنا، إذا حق لي أن أعتبر مجرد نظرة خاطفة رماني بها مثالاً عما أعني. كان ذلك عندما أعلن مؤرخ وناقد فني مشهور، ذائع الصيت في أوروبا، عن إلقاء محاضرة في قاعة الجامعة. ونجحت في إقناع ذئب السهوب في حضورها، على الرغم من أنه في أول الأمر لم يبد أية رغبة في ذلك. وذهبنا معاً، وجلسنا متجاورين. وعندما صعد المحاضر إلى المنصة وبدأ خطابه، أصيب العديد من مستمعيه، الذين توقعوا رؤية ما يشبه النبي، بالخيبة، إذ وجدوه شخصاً متأنقاً معجباً بنفسه. وحين باشر، على سبيل المقدمة، بذكر بعض العبارات المتملقة للحضور، شاكراً حضورهم بأعداد كثيفة، رماني ذئب السهوب بنظرة سريعة، نظرةَ شخص مشحون بنقد للكلمات الملقاة ولكامل شخصية المتكلم ـ نظرة مخيفة لا تُنسى، فَصاحتها تختصر مجلدات. نظرة لم تكن ببساطة تنتقد ذاك المحاضر، ماحقةٌ الرجل المشهور بسخريتها الساحقة ومع ذلك المرهفة ـ فذلك أضعف الإيمان ـ بل كانت أقرب إلى الحزن منها إلى السخرية. لقد كانت بحق حزينة حزناً صرفاً عاجزاً، كانت تعبر عن يأس صامت، مصدره من ناحية الإيمان الراسخ، ومن ناحية أخرى نمط في التفكير أصبح عنده اعتيادياً. ويأسه هذا لم يعمل فقط على فضح المحاضر المعجب بنفسه ونبذ الموضوع الحاضر، والموقف المتوقع من الجمهور، والعنوان الوقح نوعاً ما للمحاضرة بسخريته ـ لا، إن نظرة ذئب السهوب نفذت في كامل مرحلتنا الزمنية، في كامل نشاطها المجهد، كامل جيشانها وكفاحها، كامل تفاهتها، كامل التحرك السطحي لعقلانية ضحلة وعنيدة. ويا حسرتاه! بل لقد غاصت النظرة أعمق، إلى أبعد من مجرد أخطاء، وعيوب، وعجز عصرنا وفكرنا وحضارتنا. لقد وصلت حتى قلب الإنسانية برمتها، عبَّرت بفصاحة وخلال لحظة واحدة عن كامل يأس رجل مفكر، رجل عرف

ربما كامل قيمة حياة الإنسان ومغزاها. وكأنها كانت تقول: «أنظر أي قرود نحن! أنظر، هذا هو الإنسان!». وعلى الفور إذا بكل شهرة، وكل ذكاء، وكل منجزات الروح، وكل ارتقاء نحو ما هو سامٍ، وعظيمٍ وباقٍ في الإنسان ينهار ويغدو مزاحاً ثقيلاً!.

بهذا كنت قد قطعت شوطاً بعيداً، ووصلني جوهر ما عناه لي هاللر، خلافاً لما كنت قد خططت له ونويته في الواقع، في حين أن هدفي الأساسي كان أن أكشف النقاب تدريجياً عن صورته أثناء سردي لسياق تعرّفي المتدرج عنه.

الآن، وبعد أن قطعت شوطاً بعيداً جداً لم أعد مضطراً إلى أن أزيد أي شيء حول "غرابة" هاللر المحيرة، وإلى أن أحكي بالتفصيل كيف خمّنتُ بالتدريج ووعيه أسباب هذه الغرابة، هذه العزلة الشاذة والمخيفة، ومغزاها. وهذا أفضل، لأني أرغب في أن أبقي شخصي أنا في الظل قدر الإمكان. لا أريد أن أدوِّن اعترافاتي الخاصة، أو أن أحكي قصة، أو أن أكتب مقالة عن علم النفس، بل أن أساهم، بوصفي ببساطة شاهد عيان، في الإضافة إلى صورة الشخص المتميز الذي خلّف وراءه مخطوطة ذئب السهوب هذه.

لدي نظرتي الأولى إليه، عندما جاء إلى منزل عمتي، شامخاً برأسه كعصفور ويطري رائحة المنزل الذكية، أدركتُ على الفور اتّسامه بطابع خاص، وكانت ردة فعلي الغريزية الأولى هي المقت. فقد ارتبت (وقد شاركتني عمتي، التي، خلافي، كانت تمثل نقيض الإنسان العقلاني، ريبتي تلك) - أقول ارتبت في أن في الرجل علّة، علّة في الروح بصورة ما، أو في مزاجه أو شخصيته، فنفرت منه بغريزة الإنسان الصحيح. هذا النفور حلَّ محله مع مرور الزمن تعاطف بوحي من شفقتي على إنسان عانى طويلاً وعميقاً، والذي شهدتُ موت عزلته وموت كيانه الداخلي. وفي

ذلك الوقت أصبحت أزداد إدراكاً مضطرداً، أيضاً، أن بليَّته هذه ليس مردّها إلى أي عيب في طبيعته، وإنما بالأحرى إلى فيض في المواهب والقدرات غير المتناغمة. وجدت أن هاللر عبقري في المعاناة، وأنه قد خلق في داخله، بالمعنى الذي ينطوي عليه العديد من أقوال نيتشه، مقدرة مبدعة، مخيفة، لا تنضب، على تحمل الألم. وأدركتُ في الوقت نفسه أن أساس تشاؤمه لا يكمن في ازدرائه للعالم بل في ازدرائه لذاته، لأنه مهما بالغ في كلامه في قسوته عندما يصب جام غضبه على المؤسسات والأشخاص فإنه أبداً لم يستثن نفسه. كان دائماً يصب كرهه ومحقه على ذاته. وهنا لا أقوى على أن أمنع نفسي من أن أقحم ملاحظة نفسية. فعلى الرغم من قلة معرفتي بحياة ذئب السهوب، إلا أن لدي سبباً وجيهاً لأفترض أن تنشئته تمّت على أيدي والِدَيْن مخلصين، لكنهما قاسيان وشديدا الورع وأساتذة متطابقين مع المبدأ الذي يجعل من تحطيم الإرادة حجر الزاوية في التثقيف والتنشئة. ولكن في هذه الحالة لم تنجح محاولة تدمير الشخصية وتحطيم الإرادة. لقد كان أقوى وأقسى، وأشد كبرياءً وشجاعة. وبدل من أن يدمروا شخصيته لم ينجحوا إلا في تعليمه أن يكره نفسه. وراح يعمل طوال حياته، وهو البريء والنبيل، على توجيه كل طاقة خياله، وكل تفكيره، ضد نفسه، وكان طوال ما هو يصب على نفسه كل نقد لاذع، وكل غضب وكراهية يمكنه أن يستحضرها، يُعتبر، على رغم كل هذا، مسيحياً صميماً، وشهيداً حقيقياً، أما الآخرون والعالم من حوله فلم يكفّ قط، بمحاولته البطولية والجادة، عن حبهم، وإنصافهم، وكف الأذى عنهم، لأن حب جاره كان مفروضاً عليه بقوة مثل كراهيته لنفسه، وهكذا أصبحت حياته بأكملها مثالاً على أن حب المرء لجاره مستحيل بدون حبه لنفسه، وعلى أن كراهية الذات

في الحقيقة هي أنانية صـرف، وتلد على المدى الطويل العزلة القاسية نفسها واليأس.

لكن، لقد حان الوقت الآن لأنحّي أفكاري الخاصة جانباً وألتزم بالوقائع. إن أول ما اكتشفته عن هاللر، بواسطة التجسس من ناحية، ومن ناحية أخرى مما استقيته من ملاحظات عمتي، يخص أسلوبه في الحياة. إذ سرعان ما اتضح أنه يقضي أيامه مع أفكاره الخاصة ومع كتبه، وأنه لا يمارس أي مهنة عملية. وكان دائماً يلازم فراشه حتى ساعة متأخرة من الفترة الصباحية. ولا ينهض في الأغلب قبل الظهيرة ثم ينتقل من غرفة نومه إلى غرفة الجلوس وهو يرتدي مبذله. وغرفة الجلوس، وهي غرفة علّية رحبة ومريحة وفيها نافذتان، لم تعد على حالها بعد مرور بضعة أيام خلافاً لما كان يحدث مع المستأجرين الآخرين. لقد امتلأت، ومع مرور الوقت كانت تزداد امتلاءً باضطراد. فقد عُلِّقت صور على الجدران، وثُبتت رسومات بمسامير ـ أحياناً تكون صوراً مقصوصة من مجلات، وكثيراً ما تتغير. فكنت ترى هناك منظراً طبيعياً من المناطق الجنوبية، وصوراً فوتوغرافية لبلدة ريفية ألمانية صغيرة، واضح أنها مسقط رأس هاللر، وبينها كانت هنالك لوحات مرسومة بالألوان المائية البراقة، اكتشفنا فيما بعد أنه هو الذي رسمها. ثم كانت هناك صوراً فوتوغرافية لصبية جميلة، أو ـ بالأحرى ـ فتاة. وظلت صورة سيامية لبوذا معلقة على الجدار ردحاً طويلاً من الزمن، بدَّلها أولاً بنسخة من "الليل" لمايكل أنجلو، ثم بصورة شخصية للمهاتما غاندي. وكانت الكتب تملأ خزانة الكتب الكبيرة وموزعة أيضاً في كل مكان آخر، على الطاولة، وعلى طاولة الكتابة العتيقة الجميلة، وعلى الصوفا، وعلى الكراسي وفي كل بقعة من الأرضية، كتب في داخلها قصاصات من الملاحظات كانت تتبدل باستمرار. وكانت الكتب تزداد على الدوام، فبالإضافة إلى الكتب

التي كان يحملها بملء ذراعيه عائداً بها من المكتبات كان دائماً يتلقى حزماً منها تأتيه بالبريد. وكان يمكن لقاطن هذه الغرفة أن يكون رجل علم، وكان يمكن لعبق دخان السجائر، الذي يفعم المكان، أن يكون شاهداً على ذلك، بالإضافة إلى أعقاب السجائر ورمادها المنتشرة في كل أرجاء الغرفة. غير أن الجزء الأكبر من الكتب لم تكن كتباً تعليمية، كان أغلبها أعمالاً لشعراء من كافة الأزمان والشعوب. وعلى الصوفا حيث اعتاد أن يقضي أياماً طوالاً كانت تتوزع ولفترة طويلة المجلدات الستة كلها لعمل بعنوان "رحلة صوفيا من ميمل[1] إلى ساكسوني" - ينتمي إلى الردح الأخير من القرن الثامن عشر. والأعمال الكاملة لغوته وأخرى لجان بول تبدو عليها علائم الاهتراء، وأيضاً نوفاليس، وليسنغ، وجاكوبي، وليختنبرغ. وعدد من مؤلفات دوستويفسكي غلظت من كثرة ما تحتويه من قصاصات الملاحظات المدونة بقلم الرصاص. وعلى الطاولة الكبيرة وبين الكتب والأوراق كان يوجد غالباً إناء للزهور. وهناك أيضاً صندوق دهان، عادة يكون مملوءً بالتراب، يرتاح بين رقائق رماد السيجار وأيضاً (لكي لا أدع شيئاً) قناني متنوعة من النبيذ. وكانت هناك زجاجة مغطاة بالقش تحتوي عادة نبيذاً أحمر إيطالياً، يتدبر جلبه من محل صغير من الحي، وغالباً، أيضاً، زجاجة من برغندي بالإضافة إلى ملقا؛ وزجاجة قصيرة وثخينة من براندي الكرز فرغت تقريباً، كما لاحظت، خلال فترة وجيزة - وبعد ذلك اختفت في إحدى زوايا الغرفة، لتمكث هناك وتجمع التراب دون أن ينال محتوياتها مزيد من النقصان. ولن أتظاهر بتبرير عمل التلصص هذا الذي قمت به، وسوف أقول بصراحة إن كل هذه الإشارات التي تدل على حياة مفعمة

---

[1] ميمل، أو كلايبا: مرفأ على البلطيق. حالياً في ليثوانيا.

بالفضول العقلاني، ويعمُّها، مع ذلك الإهمال والاضطراب، أثارت في أول الأمر كراهيتي وريبتي. فأنا لست فقط رجلاً ينتمي إلى الطبقة الوسطى، يعيش حياة منظمة، واعتدت على العمل والحرص على الشكليات، أنا أيضاً لا أشرب الخمر ولا أدخن، وتلك الزجاجات الموجودة في غرفة هاللر أثارت انزعاجي أكثر مما أشاعته بقية مظاهر فوضى الفنانين.

كان غير منظم ومستهتراً فيما يخص مواعيد وجباته بقدر ما كان كذلك بخصوص ساعات نومه وعمله. فكانت تمر أيام لا يخرج خلالها مطلقاً من المنزل، ولا يتناول قهوته في فترة الصباح. وأحياناً كانت عمتي لا تعثر إلا على قشرة موز تشهد على أنه قد تناول طعاماً. غير أنه في أيام أخر كان يتناول وجباته في المطاعم، تارة في أفضلها وأرقاها، وتارة أخرى في حانات الضواحي الصغيرة. ولم تبد صحته على ما يرام. وإلى جانب مشيته العرجاء التي كثيراً ما كانت تجعل ارتقاءه الدرج أمراً متعباً، بدا أنه مبتلٍ بمشاكل صحية أخرى، وقد أخبرني ذات مرة أنه منذ سنتين لم يستمتع بطعام أو يحظ بنوم هادىء. وقد أرجعت الأمر أولاً وأخيراً إلى معاقرة الخمر. وعندما صرت، لاحقاً، أصحبه أحياناً إلى مثواه كنت كثيراً أرى بأم عيني كثرة ما يشرب عندما يكون في مزاج حسن، ولم أره أنا ولا أي شخص آخر قط وهو سكران بمعنى الكلمة.

إنني لم أنس قط لقاءنا الأول. وعندئذ لم يكن أحدنا يعرف إلا كنزيلين يقطنان غرفتين متجاورتين. ومن ثم ذات أمسية عدت إلى المنزل من العمل وإذ بي أدهش إذ أرى هاللر جالساً على مسطبة الدرج بين الطابقين الأول والثاني. كان جالساً على الدرجة الأعلى فأزاح إلى أحد الجانبين ليفسح لي مجالاً للمرور. فسألته إن كان على ما يرام وعرضت عليه أن أساعده على الصعود إلى أعلى.

نظر هاللر إليّ فأدركت أني أيقظته مما يشبه حالة نشوة. وبدأ ببطء يرسم ابتسامته الرقيقة المثيرة للشفقة التي طالما ملأتْ قلبي حزناً. ثم دعاني لأجلس إلى جانبه. فشكرته وقلت إنه ليس من عادتي أن أجلس على الدرج عند عتبات أبواب الناس.

قال، وقد اتسعت ابتسامته: «أه، نعم، أنت محق تماماً. ولكن انتظر لحظة، إذ لا بد لي أن أخبرك بالسبب الذي حداني إلى الجلوس هنا بعض الوقت».

أشار إليّ وهو يتكلم إلى مدخل شقة الطابق الأول، حيث تقطن امرأة أرمل. ففي المساحة الصغيرة ذات الأرضية الخَشَاب الكائنة بين الدرج، والنافذة، والباب الأمامي ذي الألواح الزجاجية، كانت تقوم خزانة طويلة من خشب الماهاغوني، عليها بعض الأواني البيوترية، وأمام الخزانة على الأرض كانت هناك نبتتان، أزاليا وأروكاريا، داخل أصيصين كبيرين موضوعين على قاعدتين منخفضتين. وبدت النبتتان جميلتين جداً وكنت غالباً ما ألاحظ بسرور أنهما ملساوين ونظيفتين تماماً.

واصل هاللر قائلاً: «أنظر إلى هذه الردهة الصغيرة والأروكايا بعبيرها الذكي الرائع. إنني كثيراً ما أعجز عن المرور دون أن أتوقف برهة. وعند باب غرفة عمتك أيضاً، هناك تنبعث رائحة رائعة من النظام والنظافة الضافية، لكن هذا الركن الصغير الذي يضم نبات الأروكايا نظافته شديدة الإشراق، متقن النظافة واللمعان والصقل، نظافة منيعة إلى درجة التلألؤ البات. وكنت كلما مررت به لا بد أن أستنشقه بعمق، ألا تشم رائحته أنت أيضاً؟ ما أروع عبير هذا المكان! ـ إنه شذا مادة الصقل مع أثر أخف من مزيج التربنتين مع خشب الماهاغوني وأوراق النبات المغسولة، والنظافة البرجوازية المغالى فيها، والعناية والرقة، والإحساس بالواجب والتكريس للأشياء الصغيرة. أنا لا أعرف من يسكن هنا، ولكن لا بد أن خلف هذا الباب جنة من النظافة والمقدرة المثالية، من

الأساليب المنظمة، والإخلاص المؤثر والقلق على عـادات الحيـاة الصغـيرة ومهامها».

ثم تابع عندما رأى أني لزمت الصمت: «أرجو ألا تظن ولـو برهـة أني أسخر. لست أنا، يا سيدي العزيز، من يضحك لأي سبب كان مـن الحياة البرجوازية. صحيح أني أعيش في عالم مختلف، ليس في هذا حتمـاً، وربما ما كنت لأحتمل العيش يوماً واحداً في منزل يحتوي نبات أروكايا. ولكن على الرغم من أني ذئب سهوب عجوز، إلا أني مع ذلك ابن لأم، وأمي بدورها كانت زوجة رجل برجوازي، زرعـت نباتـات وحرصت على أن تحقق لمنزلها ولحياتها المنزلية أقصى ما في إمكانها من نظافة وأناقة وترتيب. وقد أستعيد ذكرى كل هذا بسبب هـذه النفحـة مـن الـتربنتين والأروكايا، وهكذا تراني أجلس من وقت لآخر هنا وأملي ناظري مـن هذه الحديقة الصغيرة الهادئة من النظام والبهجة التي ما زالت تؤلفها هـذه الأشياء».

همَّ بالنهوض، لكنه ألفى ذلك صعباً عليه، ولم يمـانع في أن أمـدّ لـه يد القليل من العون. وقد لزمت الصمت، لكني استسـلمت كمـا كـانت عمتي قد فعلتْ قبلي لسحر خاص كان في وسع الرجل الغريب أحياناً أن يمارسه عليَّ. ومضينا معاً ببطء نرتقـي الـدرج، وعندمـا وصلنـا إلى بـاب غرفته، وكان المفتاح في يده، نظر مرة أخرى في عينيّ نظرة وديّـة وقـال: «هل أنت عائد من مركز عملك؟ طبعـاً أنـا لا أعـرف الكثـير عـن كـل هذا. إنني أعيش حياة منزويـة، علـى حافـة الأشياء، كمـا تـرى. ولكـن أعتقد أنك أنت أيضاً مهتم بالكتب وما شابه. لقد أخـبرتني عمتـك ذات يوم أنك متعلم وأن لديك حصيلة جيدة من اللغة اليونانيـة. وقـد مـررت هذا الصباح بفقرة من نوفاليس. هل لي أن أريها لـك؟ سـوف تفرحـك، أنا أعرف هذا».

صحبني إلى داخل غرفته، التي كانت تفوح بقوة بعبق التبغ، وأخرج كتاباً من إحدى الأكوام، وقلّب الصفحات وراح يبحث عن الفقرة.

قال: «وهذه أيضاً جيدة، جيدة جداً. اسمع هذه: "على الإنسان أن يفتخر بمعاناته. إن كل معاناة هي تذكير لنا بمنزلتنا الرفيعة". رائع! قال هذا قبل نيتشه بثمانين عاماً. ولكن هذه ليست الجملة التي عنيت. انتظر لحظة، ها هي. هذه: "إن أغلب الناس لا يسبحون قبل أن يتمكنوا من ذلك". أليس هذا قولاً حاذقاً؟ طبعاً لن يسبحوا! لقد ولدوا للأرض الصلبة وليس للماء. وطبعاً هم لا يفكرون. لأنهم خلقوا للحياة، وليس للفكر. ومَنْ يفكر، بل أكثر من ذلك، من يتخذ من الفكر عملاً له، قد يغوص عميقاً فيه، لكنه يكون بهذا في كل الأحوال قد قايض الأرض الصلبة بالماء، وذات يوم سيغرق».

عندئذ كان قد حاز على إعجابي. لقد أثار اهتمامي، وأطَلْتُ مكوثي معه فترة قصيرة، وبعد ذلك صرنا كثيراً ما نتحدث عندما نتقابل على الدرج أو في الشارع وفي مثل تلك المناسبات كان دائماً ينتابني أولاً الإحساس بأنه معي يستخدم أسلوب السخرية. لكن ذلك لم يكن صحيحاً. لقد كان يكنّ لي احتراماً حقيقياً، بقدر الاحترام الذي أبداه للأروكايا. وكان مقتنعاً كل الاقتناع بعزلته وواعياً لها، بسباحته في المياه، بكونه مُجتثّاً من الأرض، بحيث أن نظرة سريعة بين حين وآخر إلى الدورة اليومية المنتظمة ـ كدقتي، مثلاً، في المحافظة على أوقات عملي، أو بتعبير يلقيه خادم أو قاطع التذاكر في حافلة ـ كانت تعمل عمل عنصر منبّه دون أن تثير أدنى قدر من ازدرائه. وفي أول الأمر بدا هذا كله لي مجرد مبالغة سخيفة، وادعاء جنتلمن متبطل، ونزعة عاطفية عابثة. لكني توصلت شيئاً فشيئاً إلى أن أرى أنه، من موقعه وسط فيافيه الذئبية القاحلة والموحشة، كان معجباً بعالمنا البرجوازي الصغير ويحبه كشيء

صلب وآمن، كالبيت والسكينة اللذين يجب أن يبقيا نائيين ولا يمكن بلوغهما، ولا وجود لدرب يوصله إليهما. فقد كان ينزع قبعته لخادمتنا الطيبة كلما قابلها، وباحترام جمّ، وعندما تسنح لعمتي فرصة التحدث إليه، لتلفت نظره ربما إلى وجوب إجراء إصلاح في ملابسه الداخلية أو لتحذره من أن ثمة زراً في معطفه قد أضحى محلولاً ورخواً، ينصت إليها بسيماء من الانتباه الفائق والاهتمام العظيم، وكأنما ليس في استطاعته أن يشق طريقه بصعوبة خلال أي شق يؤدي إلى عالمنا الصغير وأن يشعر بألفة فيه ولو لساعة من الزمن إلا إذا بذل جهداً يائساً، متطرفاً.

خلال ذاك الحديث الأول الذي دار بيننا حول نبات الأروكايا، أطلق على نفسه لقب ذئب السهوب، وهذا بدوره زاد قليلاً من شعوري بالغربة والاضطراب. يا له من تعبير! ولكن، لم تكن العادة وحدها التي صالحتني معه، لكني سرعان ما بت لا أعرفه إلا بذاك اللقب، ولا أجد حتى هذا اليوم وصفاً أفضل منه. ذئب سهوب أضاع طريقه وضل فولج بلداننا وحياة القطيع، وهذه صورة لا مثيل لها لوصف عزلته الحيّية، ووحشيته، واضطرابه، وحنينه إلى منزل، وافتقاده لهذا المنزل.

تمكنت مرة واحدة من مراقبته خلال أمسية كاملة. وقد حدث ذلك خلال حفل موسيقي سيمفوني. حيث دهشت إذ وجدته جالساً إلى جواري. ولم يرني. في أول الأمر استمعنا إلى عزف لموسيقى لهاندل، موسيقى نبيلة وجميلة. لكن ذئب السهوب كان مستغرقاً في أفكاره الخاصة، نائياً عن الموسيقى وعما يحيط به على السواء. جلس مسدلاً عينيه، منفصلاً ووحيداً، يسود وجهه تعبير بارد ولكن ملؤه الحزن. وبعد موسيقى هاندل كانت سيمفونية قصيرة لفريدمن باخ. وبعد عزف بضع نغمات دهشتُ إذ رأيته قد بدأ يبتسم ويستسلم للموسيقى. وتقوقع داخل ذاته ـ تغمره السعادة ـ وغاص في أحلام لذيذة، حتى إني خلال ما

لا يقل عن عشر دقائق كنت أوليه من الانتباه أكثر مما أوليت الموسيقى. وعند انتهاء عزف القطعة الموسيقية استيقظ، ثم استقام في جلسته، وقام بحركة من يهمّ بالمغادرة، غير أنه أخيراً لزم مقعده، وأخذ ينصت إلى المقطوعة الأخيرة. وكانت "تنويعات" لريجير[1]، وهي مؤلَّف يجده الكثيرون طويلاً ومملاً. حتى ذئب السهوب، الذي أجبر نفسه في أول الأمر على الإنصات، عاد إلى الشرود، ووضع يديه في جيبيه واستغرق من جديد في أفكاره الخاصة، ليس بسعادة وعلى نحو حالم كما حدث من قبل، وإنما بحزن وأخيراً بانفعال. ومرة ثانية خلا وجهه من أي تعبير، وعلاه الشحوب ثم انطفأ، وبدا عجوزاً، مريضاً، وساخطاً.

رأيته مرة ثانية بعد الحفل الموسيقي في الشارع ورحت أسير وراءه. ومضى في سبيله، ملفعاً بردائه، يبدو عليه الغم والإرهاق، ميمماً وجهه شطر بيتنا، لكنه وقف أمام حانة قديمة الطراز، صغيرة، وبعد أن استشار ساعة يده بتردد، ولج المكان. فأطعت دافعاً خاطفاً وتبعته، وفي الداخل جلس إلى إحدى الطاولات، في الجزء الخلفي من الحانة، فحيَّته المضيفة والنادلة كما ترحب بضيف معروف جيداً. وحييته، واتخذت لي مجلساً خلفه. وبقينا جالسين هناك مدة ساعة، وبينما أنا أشرب كأسين من المياه المعدنية، كان هو يعلل وجود ملء باينت من النبيذ الأحمر ومن ثم طلب نصف مقدار آخر. وألمحت له إلى أني كنت موجوداً في الحفل الموسيقي، لكنه لم يول الموضوع اهتماماً. وقرأ الرقعة الموجودة على زجاجتي وسألني إن كنت أرغب في شرب بعض النبيذ. وعندما رفضت عرضه وقلت إني لا أشربه أبداً، اجتاح وجهه مرة أخرى تعبير عاجز.

[1] ماكس ريجير (1873-1916) موسيقي ألماني. - المترجم.

قال: «معك كل الحق في هذا. أنا نفسي امتنعت عن شـرب الخمـر سنين عديدة، وصمت عن الطعام أيضاً، ولكن أجدني من جديـد منضوٍ تحت برج الدلو، وهو برج رطب ومظلم».

ثم، عندما قابلت تلميحه بالمزاح وقلـت معقبـاً كيـف أنـه مـن غـير المعقول بالنسبة إليّ أن يؤمن مثلـه بـالتنجيم، إذا بـه يسـتعيد علـى عجـل النبرة الشديدة التهذيب التي كثيراً ما كانت تؤذيني وقال:

«أنت محق. لسوء الحظ، أنا أيضاً لا أؤمن بذاك العلم».

استأذنت وانصرفت. و لم يعد إلى المنزل إلا في وقـت متـأخر جـداً، لكن إجراءه كان كالمعتاد، وكعهـده دائمـاً، بـدل أن يتوجـه مباشـرة إلى السرير، مكث مدة ساعة أخرى في غرفة جلوسه، كما سمعت من غرفـتي المجاورة له بسهولة.

هناك أمسـية أخـرى لا أنسـاها. فقـد كـانت عمـتي خـارج المـنزل وكنت وحدي. وإذا بجرس البـاب يرن، ففتحـت البـاب، وإذ بـي أمـام امرأة شابة، وعلى قـدر مـن الجمـال، وحالمـا سـألت عـن السـيد هـاللر، تعرفت عليها من الصورة الفوتوغرافية المعلقة في غرفته. ودللتها على باب مسكنه وانسحبت. لم تمكث معه إلا فترة وجيزة، وسـرعان مـا سمعتهمـا معـاً يهبطـان الـدرج ويخرجـان، وهمـا يتجاذبـان أطـراف الحديـث ويضحكان بسعادة غامرة. ودهشت أيما دهشة لمعرفتي أن للناسك حبيبة، على قدر كبير من الصبا والجمال، والأناقة، ومرة أخرى اضطربـت كـل حدوسي حوله وحول حياته. ولكن قبل انقضـاء سـاعة مـن الزمـن عـاد وحده، وجر نفسه جراً بإعياء وهو يرتقي الدرج بخطوته الثقيلة والحزينة. وظل على مدى ساعات يقطع أرض غرفة جلوسه بهدوء جيئـة وذهابـاً، تماماً كذئب داخل قفصه. وظلت غرفته مضاءة طوال الليل وحتـى قرابـة الصباح. و لم أعرف أي شيء عن علاقتهما، وليس لدي إلا هذا أضيفـه.

وفي مناسبة أخرى رأيته بصحبة هذه السيدة. وكان ذلك في أحد شوارع البلدة. كانا يسيران متشابكي الذراعين وبدا غاية في السعادة، وتعجبت من جديد من فيض السحر - يا له من تعبير يكاد يكون طفولياً - الذي يظهر أحياناً على وجهه المثقل بالغم. وهو ما علل لي سبب وجود الفتاة الشابة معه، وأيضاً الحنو الذي تكنّه عمتي له. ولكن في ذاك اليوم أيضاً عاد في المساء، حزيناً وبائساً كالمعتاد. وقابلته عند الباب، وكان يحمل تحت ردائه، كما فعل مراراً عديدة من قبل، زجاجة من النبيذ الايطالي، وسهر معها حتى منتصف الليل في عرينه في الطابق العلوي. وسبّب ذلك لي الحزن. أي حياة صعبة، بائسة، ضائعة، يعيش!.

والآن، لقد ثرثرت بما فيه الكفاية. لم يعد ثمة حاجة إلى مزيد من التقارير والأوصاف لتبيان أن ذئب السهوب يعيش وجوداً انتحارياً. ولكن مع ذلك لا أظنه انتحر عندما غادر بلدتنا واختفى، بعد أن دفع كل ما يترتب عليه بدون آن يترك كلمة إشعار أو وداع. ومنذ ذلك الحين، لم نسمع أي شيء عنه وما زلنا نحتفظ ببعض الرسائل الموجهة إليه. ولم يترك وراءه غير مخطوطه. وكان قد كتبه خلال فترة وجوده هنا، وتركه مع إهداء مؤلف من بضعة أسطر يقول فيها إن في إمكاني أن أفعل به ما أشاء.

لم يكن بمقدوري أن أثبت حقيقة التجارب المثبتة في مخطوطة هاللر. ولا شك لدي في أنه في غالبيته زائف، ولكن ليس بمعنى الاختلاف العشوائي. بل إنه في الحقيقة الوقائع الروحية المعاشة بعمق التي حاول أن يعبر عنها بإلباسها لباس التجارب الملموسة. والحوادث الوهمية جزئياً في مؤلّف هاللر منشأها ربما الفترة المتأخرة من مدة مكوثه هنا، ولا شك عندي في أن لها حتى أساس ما على أرض الواقع. ففي ذلك الوقت طرأ في الحقيقة على ضيفنا تبدل كبير في السلوك وفي المظهر. كان يغيب عن المنزل كثيراً، لليال كاملة أحياناً، وبقيت كتبه كما هي ولم يلمسها. في

المناسبات النادرة عندما كنت أراه في ذلك الوقت كنت أفاجأ كثيراً بما يتسم به من حيوية وشباب. بل إنه في الواقع كان يبدو أحياناً سعيداً سعادة لا ريب فيها. وهذا لا يعني أنه لم يكن يتبع ذلك وعلى الفور كآبة جديدة، وشديدة الوطأة. عندئذ كان يستلقي في السرير طوال النهار، ويفقد شهيته إلى الطعام. وفي تلك الفترة تعود المرأة الشابة مرة أخرى إلى الظهور، ويقع شجار عنيف جداً، بل يمكن أن أقول وحشي، يشيع اضطراباً عارماً في المنزل يظل هاللر بسببه يلتمس العذر من عمتي لعدة أيام بعده.

كلا، أنا واثق من أنه لم ينتحر. إنه ما زال حياً، وهو في مكان ما يسير بإعياء صاعداً وهابطاً درج منازل غريبة، يحدق في مكان ما إلى أرضيات خشاب منظفة تنظيفاً أنيقاً، وإلى نباتات أروكاريا أوليت عناية فائقة، يجلس أياماً طوالاً في مكتبات عامة ويمضي ليال كاملة في حانات، أو ينصت، وهو مستلق على صوفا، إلى العالم تحت نافذته وضجيج الحياة الإنسانية التي يعرف أنه مقصيٌّ عنها. لكنه لم ينتحر، لأنه مازال هناك قبس من إيمان يأمره بأن يجرع كأس هذه المعاناة، هذه المعاناة المخيفة المعتملة في قلبه حتى آخر قطرة، وبأن عليه أن يموت متأثراً بهذه المعاناة. إنني كثيراً ما أفكر فيه. إنه لم يدخل البهجة إلى حياتي، ولم يكن موهوباً في تغذيتي بالقوة والفرح. أوه، بل على العكس! لكني لست مثله، وأنا أعيش حياتي الخاصة، حياة الطبقة الوسطى، الضيقة، لكنها حياة متينة، مملوءة بالواجبات. وهكذا نستطيع، عمتي وأنا، أن نفكر فيه بسلام وبحب. وهي لديها أكثر مما لدي لتقول عنه، لكنه يظل مخبأ في قلبها الرقيق.

والآن، وقد وصلنا إلى مدوَّنات هاللر هذه، هذه الأوهام المريضة من ناحية، ومن ناحية أخرى الجميلة والمراعية للمشاعر، يجب أن أعترف

بأنه لو أنها وقعت بين يدي مصادفة ولو لم أكن أعرف هوية مؤلفها، لكنت غالباً رميت بها جانباً امتعاضاً. ولكن لما كنت على معرفة بهاللر فقد كان في استطاعتي، إلى حد ما، أن أفهمها بل حتى أن أستحسنها. وكنت ترددت في أن أتقاسمها مع أناس آخرين لو أني وجدت أنها ليست أكثر من هلوسات مَرَضيّة ذات طبيعة منفردة ومعزولة وليدة مزاج مريض. لكني أرى فيها ما هو أكثر من ذلك. إني أراها تمثل وثيقة عصرها، لأن مرض روح هاللر، كما بت أعرف الآن، لا يخص غرابة أطوار فرد واحد، وإنما هو مرض العصر نفسه، هو عصاب ذاك الجيل الذي ينتمي إليه، ويبدو أنه لا يهاجم بأي حال من الأحوال فقط الضعفاء والتافهين وإنما بالأحرى أولئك الأقوى في الروح والأغنى في المواهب.

هذه المدوَّنات، بغض النظر ما قد تنطوي عليه من الحياة الواقعية، ليست محاولة لإخفاء مرض عصرنا الواسع الانتشار وتلطيفه. بل هي محاولة لتقديم المرض نفسه بمظهره الحقيقي. إنها تعني، حرفياً، رحلة خلال الجحيم، وهي تارة مخيفة، وأخرى شجاعة خلال عماء عالم تعيش أرواحه في الظلام، رحلة يُشرَع فيها بقصد عبور الجحيم من طرف إلى طرف لإضفاء الكفاح على العماء، ولتحمّل الشرّ حتى الزبا.

إن ذكرى حديث أجريته مع هاللر هو الذي أوحى لي بهذا التفسير. فقد قال لي ذات مرة عندما كنا نتحدث عما يدعى بالممارسات المرعبة في العصور الوسطى: «في الحقيقة إن تلك الممارسات لم يكن لها وجود. إن إنساناً من العصور الوسطى لجدير بأن يمقت كامل نمط حياتنا اليومية الحاضرة، بوصفها أكثر من مرعبة ووحشية بكثير، بل أكثر من بربرية بكثير. إن كل عصر، كل حضارة، كل عادة وتراث له شخصيته الخاصة المميزة، وضعفه الخاص وقوته الخاصة، وجمالياته وقسوته، وهو يتقبل معاناة معينة كأمر اعتيادي، ويتحمل بعض الشرور بصبر. وتغدو

الحياة الإنسانية معاناة حقيقية، جحيماً، فقط عندما يتراكب عصران، وحضارتان وديِنان. وكان جديراً بإنسان العصر الكلاسيكي أن يختنق إذا ما اضطر إلى أن يعيش في العصر الوسيط حياة بائسة تماماً كما يحدث لإنسان همجي وسط حضارتنا. وقد مرت أوقات حُشر خلالها جيل كامل بين عصرين، بين نمطين من الحياة، وبهذا فَقَدَ الإحساس بذاته، تُبيّن ذاته، وبكل الأخلاقيات، وبشعوره بالأمان وبالبراءة. ومن الطبيعي أنه ليس كل إنسان يشعر بهذا بالقوة نفسها. وطبيعة كالتي اتصف بها نيتشه كان لا بد أن تعاني أمراضنا الحاضرة، قبل وقتها بجيل كامل. وما عاناه وحده وأسيء فهمه، يعاني منه اليوم الآلاف من الناس».

إنني كثيراً ما كنت أفكر في هذه الكلمات وأنا أقرأ المدوّنات. إن هاللر ينتمي إلى أولئك الذين حُشروا بين عصرين، الموجودين خارج كل أمان وبراءة. إنه ينتمي إلى أولئك الذين قُدِّر لهم أن يعيشوا كامل لغز القدر الإنساني الذي تصاعد حتى درجة العذاب الشخصي، الجحيم الشخصي.

هناك، كما يبدو لي، يكمن المعنى الذي نبتغيه من وراء هذه المدوَّنات، ولذلك قررت أن أنشرها. أما الباقي فلا آبه له البتة وليفعل كل قارئ ما يمليه عليه ضميره.

مدوّنات هاري هاللر

«للمجانين فقط»

مضى النهار كغيره من النهارات، قتلته وفقاً لأسلوبي البدائي المنعزل في الحياة. عملت مدة ساعة وقرأت صفحات كتب عتيقة. عانيت آلاماً مدة ساعتين، كما يحصل مع العجائز. تناولت مسحوقاً مخدراً وفرحت كثيراً عندما وافق الألم على التلاشي. ثم تمدَّدت في حمام حار ورحت أتشرَّب دفأه الرحيم. وجاءني البريد ثلاث مرات برسائل مقيتة ورسائل سيَّارة لأتفحصها. وقمت بتمارين التنفس، لكني وجدت أنه من المناسب اليوم أن ألغي التمارين المقررة. وخرجت لأتمشى ساعة من الزمن، ورأيت أجمل تشكيلات غيوم ريشية مرسومة على صفحة السماء. شيء مبهج جداً. وكذا قراءة الكتب العتيقة. وكذا التمدّد في حمام دافئ. ولكن، في الاجمال، لم يكن بالضبط يوماً بهيجاً كثيراً. كلا، بل لم يكن حتى يوماً يسطع بالسعادة وبالفرح، وبالأحرى كان مجرد أحد تلك الأيام التي أضحت منذ زمن طويل من نصيبي؛ أيام رجل ساخط في منتصف عمره، فاترة، مقبولة ومحتملة بشكل تام، وسارَّة باعتدال؛ أيام بلا آلام خاصة، بلا هموم خاصة بلا قلق معين، بلا يأس، أيام يجب أن يتم التساؤل حولها، بانفعال أو قلق، بصورة هادئة ونبرة اعتيادية، إن لم يحن الوقت لأحذو حذو أدالبرت شتينتد ويقع لي حادث مميت أثناء حلاقة ذقني.

إن من عاش الأيام الأخرى، أيام الغضب من نوبات النقرس، أو أيام ألم الرأس الفظيع المتغلغل خلف مقلتي العينين، والذي يرسل نوبة إلى كل عصب من العين والأذن مع استمتاع شيطاني بالعذاب، أو تلك الأيام الشريرة، المحطِّمة للروح، من الخواء الداخلي واليأس، عندما يكشر عالم الرجال وما يسمى بالحضارة، على هذه الأرض الخربة، التي امتصتها هامات المال حتى الجفاف، في وجوهنا كالفتنة الوقحة، المبتذلة الكاذبة، لامرأة شقراء، ويتعقبنا بإلحاح دواءٍ مقيِّئ، وعندما يتركز كل شيء على الذات المريضة ويتمحرق حتى آخرٍ درجات ما لا يطاق ـ فإن مَنْ عرف هذه الأيام الجحيمية قد يرضى بحق بأيام بين ــ بين عادية كهذا اليوم. وتجلس بالقرب من مدفأة تشع دفئاً وأنت ممتن، وتشعر باطمئنان ممتن وأنت تطالع صحيفتك الصباحية، لأن نهاراً جديداً وقد طلع و لم تندلع حرب جديدة، ولا أُقيم حكم ديكتاتوري جديد، ولا كُشِف النقاب عن فضيحة مثيرة لتقزز بالغ في أوساط السياسة، أو المال. وتدوزِن وأنت ممتن أوتار قيثارتك الصدئة على مقام مزمور الشكر الملطَّف، والمَرح بقدر مقبول، كلا، بل حتى المبتهج، وتشيع الملل في إلـه قناعتك البين ــ بين الثمل قليلاً والمترهل، والهادئ، وسط جو الملل القانع، والدافئ والثقيل، وغياب الألم المرحَّب به بسرور، يبدو الإله البين ـ بين الحاني رأسه نعاساً والرجل البين ـ بين الشائب الشعر قليلاً الذي يرتل مزموره المكتوم الصوت، كتوأم.

يمكن أن يقال الكثير لصالح القناعة واللاألم، لصالح هذه الأيام المقبولة، والمذعنة، التي لا أثر فيها لألم أو لمسرَّة، وكل شيء فيها مجرد همس وتجوُّلٌ على رؤوس الأصابع. غير أن أسوأ ما في الأمر هو أن هذه القناعة بحد ذاتها لا أقوى على تحملها. وسرعان ما تملأني باشمئزاز وغثيان لا طاقة لي على كبحهما. وعندئذ، وفي غمرة يأسي، لا يبقى إلا

أن أهرب إلى مناطق أخرى، وإذا أمكن أنطلق في الطريق المؤدية إلى اللذة، أو، إذا تعذر ذلك، ففي الطريق المؤدية إلى الألم. وعندما لا تتوفر لي اللذة أو الألم، وأكون أتنفس منذ فترة الهواء التفه الفاتر لهذه الأيام، التي توصف بالجيدة، والمحتملة، أشعر بامتعاض شديد في روحي الصبيانية، فأهشم قيثارتي الشاكرة الصدئة في وجه إله القناعة الناعس وأفضّل أن أشعر بأشد الآلام فظاعة يتلظى داخلي على دفء غرفة حسنة التدفئة هذا. إن توقاً ضارياً إلى المشاعر العنيفة والأحاسيس يضطرم داخلي، وحنقاً ضد هذه الحياة العقيمة، العادية، الراكدة والرتيبة. إن لدي حافزاً مجنوناً لتهشيم شيء ما، ربما مستودع، أو كاتدرائية، أو نفسي، لارتكاب أعمال مشينة، لأنتزع الشعر المستعار عن بضعة أصنام موقرة، لأزوِّد بضعاً من أولاد المدارس المتمردين ببطاقة ذهاب إلى هامبرغ طالما تاقوا للحصول عليها، ليغووا فتاة صغيرة، أو ليجعلوا واحداً أو اثنين من ممثلي النظام الراسخ يقفان على رأسيهما. لأنني طالما كرهت ومقتُّ ولعنت أكثر من أي شيء آخر هذه القناعة، هذه الصحة التامة والراحة، والتفاؤل الذي تحرص الطبقات المتوسطة على الحفاظ عليه، وهذا النسل من الأناس العاديين، السمينين والمزدهرين.

بهذا المزاج أنهيت هذا النهار العاجي جداً والمقبول عند وقت الغروب. و لم أنهه بطريقة جديرة برجل عليل وأويتُ إلى السرير تغويني إلى ذلك زجاجة من الماء الحار، بل إنني بدل ذلك انتعلت حذائي وأنا نكد المزاج، ساخط وممتعض من العمل المتواضع الذي قمت به، وخرجت إلى قلب الظلمة والشوارع المضبَّبة لأشرب ما يسمى، وفقاً لتقليد قديم، "كأساً من النبيذ"، في الحانة التي تحمل لافتة "الخوذة الفولاذية".

وهكذا رحت أهبط الدرج المنحدر من عليّتي بين الغرباء، ذاك الدرج المفروك جيداً، والنظيف للمنزل المؤلف من ثلاث طبقات، والمؤجر ثلاث شقق لعائلات محترمة جداً. ولا أدري كيف يحدث دائماً أن أنتقي، أنا، ذئب السهوب الشرير، المنعزل، كاره أعراف الحياة الحقيرة، منازلي في أمثال هذا المنزل. إنها نقطة ضعف عاطفية قديمة لدي. فأنا لا أقطن أبداً في منازل فخيمة ولا في تلك التي تخص الفقراء المعدمين، وإنما وعن عمد في بيوت الطبقة الوسطى تلك النظيفة تماماً والمضجرة والمحترمة، والتي تفوح بعبق التربنتينية والصابون وحيث يشيع الرعب إذا ما قرعت الباب أو دخلت بحذاء قذر. إن حبي لهذا الجو نشأ، ولا ريب، من أيام طفولتي، وأضمر توقاً سرياً إلى شيء ما عائلي يقودني لأطرق، دون ما كبير أمل، الدرب الأحمق القديم نفسه. إلا أنني أيضاً أحب التقاطع ما بين حياتي الفوضوية تماماً، المنهكة، الناضبة من الحب، والموحشة، وهذه الحياة العائلية على طريقة الطبقة الوسطى. أحب أن أستنشق وأنا على الدرج هنا الشذا من الهدوء والنظام، من النظافة والألفة البيتية المحترمة. ثمة شيء فيه يؤثر بي على الرغم من كرهي لكل ما يمثله. أحب أن أعبر عتبة غرفتي ومن ثم أن أرميه فجأة خلفي، أن أرى رماد السيجار وزجاجات النبيذ بين أكوام الكتب ولا شيء غير الفوضى والاهمال، وحيث كل شيء ـ الكتب، والمخطوط، والأفكار ـ موسوماً ومشبَّعاً ببلية الرجال المتوحدين، بمشكلة الوجود وبالتوق إلى توجه جديد إلى عصر فقد مضامينه.

والآن أصل إلى نبات الأروكاريا. فأقول لك إنه عند الطابق الأول من هذا المنزل يمر الدرج على ردهة صغيرة عند مدخل إحدى الشقق، أنا متأكد من أنها قد كنست حتى بشكل أشد نظافة وزيِّنت أكثر من الأخريات، لأن هذه الردهة الصغيرة تلمع ببراعة تدبير منزلي فوق

إنساني. إنه عبارة عن معبد صغير من النظام. وعلى الأرضية الخَشَاب، حيث يبدو من التدنيس وطؤها، يوجد حاملان أنيقان وعلى كل منهما أصيص كبير. ينمو في أحدهما نبات أزاليا، وفي الآخر نبات أروكاريا فخيم، هو شجيرة مستقيمة النمو، مزدهرة، عيِّنة مثالية، تعكس وحتى آخر شويكة في أعلى طرف مدبب لغصين فخر الغسل المتكرر. وأحياناً عندما أعرف أنه ليس ثمة من يراقبني، أستخدم هذا المكان كمعبد. وأتخذ لي مجلساً على إحدى الدرجات فوق مكان نبات الأروكاريا، وأستقر مرتاحاً برهة مضموم اليدين، أتأمل في هذه الحديقة الصغيرة من النظام وأدع الجو المؤثر المحيط بها ووحشتها المثيرة نوعاً ما للسخرية، يهزاني حتى أعماق روحي. وأتخيل أن وراء هذه الردهة، في الظل المقدس، إن صح التعبير، لنبات الأروكاريا، بيت مملوء بخشب الماهاغوني البراق، وحياة مفعمة ببسمات الاحترام الراسخة ـ كالاستيقاظ باكراً، وإيلاء أداء الواجب كل الاهتمام، واجتماعات عائلية متحفظة ولكن يشيع فيها البشر، والتوجه إلى الكنيسة في صبيحة يوم الأحد، والإيواء إلى النوم باكراً.

رحت أطأ، بجذل عابث، الأرصفة الرطبة للشوارع الضيقة. كانت المصابيح تومض، كأنها تذرف الدموع من خلف حجاب، من خلال الكآبة الباردة وتمتص ببطء انعكاساتها من الأرض الرطبة. واستعدت ذكرى سنين شبابي المنسية. كيف كنت أحب أماسي أواخر الخريف والشتاء المظلمة، الحزينة. ويا للفهم العارم الذي كنت أتشرب به ما تبثه من مشاعر الوحشة والكآبة وأنا أسير بخطى واسعة، متلفعاً بردائي، وحتى منتصف الليل تحت المطر والعواصف، خلال المشهد الشتائي العاري، وبي أيضاً، ما يكفي من الوحشة، لكني مترع بفرح عميق، مملوء بالشعر الذي دونته فيما بعد على نور الشمعة وأنا جالس على حافة السرير! كل هذا أصبح ماضياً الآن. لقد فرغ الكأس ولن يُملأ مرة

أخرى. أكان هذا شيئاً يستحق الندم عليه؟ كلا، أنا لم أندم على الماضي. بل كان ندمي على اليوم الحاضر، على كل الساعات والأيام التي لا تحصى التي ضيّعتها في سلبية محض لم تكسبني أي شيء. ولا حتى صدمات اليقظة. ولكن، والحمد لله، بقيت هناك استثناءات. فقد كانت تمر بين حين وآخر ساعات، وإن نادراً، تجلب معها الصدمة المنتظرة، فتهدم الجدران، وترجعني من جديد من جولاتي، إلى قلب العالم النابض. وأصمم، وأنا متأثر بحزن ولكن بعمق، على أن أتذكر آخر هذه التجارب. فقد كنت أحضر حفلة موسيقية تقدَّم فيها موسيقى قديمة جميلة. وبعد عزف النغمات القليلة الأولى على البيانو إذا بالباب يفتح على حين فجأة على العالم الآخر. وانطلقت بأقصى سرعة أمخر عباب السماء ورأيت الله يقوم بعمله. وعانيت آلاماً قدسية. تخليت عن كل وسائل دفاعي عن نفسي، ولم يعد يخيفني أي شيء في العالم كله. تقبَّلت كل الأشياء ووهبت قلبي لكل الأشياء. ولم تستمر التجربة طويلاً، ربما ربع ساعة، لكنها عادت إليَّ حلماً في الليل، وصرت، منذ ذلك الحين، وعلى مدى كل الأيام القاحلة، ألمحها بين حين وآخر. وكنت أحياناً أراها بوضوح مدة دقيقة أو دقيقتين، وتخترق حياتي كمسار لامع وقدسي. غير أنها كانت دائماً تقريباً غبشة بالقذارة والغبار. ومن ثم تعود لتومض بشرارات ذهبية وكأنها لن تضيع أبداً، لكنها سرعان ما تختفي تماماً من جديد. وقد حدث ذات مرة، وكنت مستلقياً يقظاً أثناء الليل، أني رحت فجأة أنشد أبياتاً شعرية، شعراً جميلاً وغريباً حتى أني لم أغامر بالتفكير في تدوينه، وفي الصباح كانت قد تلاشت، إلا أنها ظلت مخبأة في داخلي مثل نواة الثمرة القاسية، داخل القشرة الهشة العتيقة. وذات مرة صادفتها بينما كنت أقرأ لأحد الشعراء، بينما كنت أتفكر في إحدى أفكار ديكارت، أو باسكال، ومرة أخرى سطعت

ومدت أثرها اللامع بعيداً داخل السماء بينما كنت مع حبيبتي. آه، ما أصعب العثور على هذا الأثر القدسي وسط هذه الحياة التي نعيشها، في هذا العصر الممل المخبول من العمى الروحي، بطرازه المعماري، وأعماله التجارية، وسياساته، ورجاله! كيف يمكن أن لا أغدو ذئباً متوحداً، وناسكاً غريب الأطوار، وأنا لا أشاطره حتى هدفاً واحداً من أهدافه، ولا أفهم متعة واحدة من متعه؟ إنني أعجز عن المكوث طويلاً في دار للمسرح أو للسينما. ولا أستطيع أن أحتمل قراءة صحيفة. لا أكاد أقرأ أي موقف مؤلّف حديث. إنني لا أستطيع أن أفهم المتع والمسرات التي تدفع بالناس إلى أن يتزاحموا في محطات سكك الحديد والفنادق، وأن يحتشدوا في المقاهي المزدحمة حتى آخرها والتي تضج بموسيقى متطفلة خانقة، وفي الحانات وفي مرابع التسلية المتنوعة، وفي المعارض العالمية، وفي الـ Corsos. إنني لا أفهم هذه المتع، ولا أشاطرها، مع أنها في متناولي، ويتهافت عليها الآلاف لنيلها. أما ما يحدث لي في ساعات ابتهاجي النادرة. ما أعتبره نعيماً وحياة ونشوة وتحليقاً، يبحث عنه العالم عموماً في الغالب داخل المؤلفات الأدبية، أما في الحياة فيجده سخيفاً. وفي الواقع، إذا كان العالم محقاً، إذا كانت موسيقى المقاهي هذه، وهذه المتع الجماعية وأولئك الأناس المتأمركين، الذين يرضون أقل القليل على حق، فأنا على خطأ، أنا مجنون، إنني في الحقيقة ذئب السهوب كما أسمي نفسي غالباً، ذاك الحيوان الشارد الذي لا يجد في عالمٍ غريب وغير مفهوم له مستقراً ولا متعة ولا مصدر غذاء.

مع هذه الأفكار المألوفة تابعت طريقي في الشارع المبلل الذي يخترق أحد أهدأ الأحياء القديمة في البلدة. وكان يقوم على الجانب المقابل وسط الظلام جدار حجري عتيق طالما انتبهت لوجوده بسرور. كان ينهض، عتيقاً وساكناً، بين كنيسة صغيرة ومستشفى قديم وكثيراً ما أطلقت

العنان لعيني أثناء النهار لتستقرا على سطحه الخشن. وكان هناك عدد من مثل هذه الأماكن التي يشملها السكون والهدوء في قلب البلدة حيث يهتف باسمك من كل قدم مربع منها رجل أعمال ما، أو محام، أو دجال، أو طبيب، أو حلاق، أو أقدامي[1]. وهذه المرة أيضاً كان يرين على الجدار السكينة والسلام، ومع ذلك فشيء ما كان قد تغير فيه. وذهلت إذ رأيت باباً جميلاً وصغيراً ذا قوس غوطي الطراز في منتصف الجدار، لأني لم استطع أن أتأكد مما إذا كان هذا الباب موجوداً دائماً هناك أم أنه أحدث مؤخراً. لقد بدا عتيقاً دون أدنى شك، عتيقاً جداً، وكان واضحاً أن هذا الباب المغلق المصنوع من الخشب المسودّ كان قبل مئات من السنين يؤدي إلى فناء دير هاجع، وأنه مازال كذلك، وإن كان الدير نفسه لم يعد موجوداً هناك. ولعلي كنت قد شاهدته مئات المرات وببساطة لم ألاحظ وجوده. لعله دهن من جديد ولفت نظري لهذا السبب. فتوقفت لأتفحصه من موقعي دون أن أعبر إليه، بما أن الشارع كان غارقاً بطبقة من الطين والماء. ومن مكان وقوفي على الرصيف مددت بصري فبدا لي في العتمة أن ثمة إكليلاً، أو شيئاً بهيج الألوان، ربط حول الباب، وبعد أن أمعنت النظر أكثر رأيت علامة براقة فوق الباب، بدا لي أن ثمة كتابة ما عليها. دققت النظر وأخيراً على الرغم من الطين والبرك القذرة، عبرت، ورأيت فوق الباب لطخة بادية بشكل باهت على الجدار ذي اللون البني المخضرّ، وفوق اللطخة حروف براقة تتراقص ومن ثم تختفي، وتعود ثم تتلاشى من جديد. فقلت في نفسي، هذا هو الأمر إذن. لقد شوّهوا هذا الجدار القديم الطيب بعلامة مكهربة. وفي تلك الأثناء حلّلت لغز حرف أو إثنين من الحروف لدى ظهورها

---

(1) الأقدامي: الاختصاصي في العناية بالقدم. ـ المترجم.

ثانية برهة من الزمن، لكنها كانت صعبة القراءة، حتى بالتخمين، لأنها كانت تظهر على فترات غير منتظمة وبشكل باهت، ومن ثم تختفي بسرعة. إن كل من يأمل في الحصول على أي نتيجة من عرض كذاك ليس ذكياً على الاطلاق. إنه ذئب سهوب، مسكين. لِمَ كان على حروفه أن تتنقل عابثة على هذا الجدار العتيق في زقاق مظلم من بلدة قديمة في ليلة رطبة لا يُرى فيها أي عابر سبيل، ولِمَ هي سريعة في اختفائها، ومتقطعة جداً وغير مقروءة؟ ولكن انتظر، لقد نجحت أخيراً في ملاحقة عدة كلمات من دون انقطاع. وكانت:

المسرح السحري

الدخول ليس للجميع

حاولت أن أفتح الباب، لكن السقاطة العتيقة الثقيلة رفضت أن تتزحزح. واختفت اللافتة أيضاً. فجأة توقفت، بعد أن اقتنعت بعدم جدواها. تراجعت بضع خطوات، غائصاً عميقاً في الطين، ولكن لم تعد تظهر أي حروف. لقد انتهى العرض. وبقيت فترة طويلة أقف في الطين منتظراً، ولكن عبثاً.

ثم، بعد أن استسلمت وعدت إلى الرصيف، سقطت بضعة أحرف ملونة هنا وهناك، وانعكست صورتها على الإسفلت أمامي. وقرأت:

للمجانين فقط!

كانت قدماي مبللتين وكنت أرتعش من البرد حتى العظم. إلا أنني بقيت منتظراً. ولم أفعل أي شيء آخر. ولكن بينما كنت منتظراً، أفكر في جمال الحروف وهي تتراقص بذاك الشكل الشبحي فوق الجدار الرطب وتنعكس على اللمعان الأسود للإسفلت، وفجأة تذكرت جزءً من أفكاري السابقة، بشكل يشبه الأثر الذهبي الساطع الذي يتلاشى فجأة ويغيب.

كنت متجمداً من شدة البرد وتابعت طريقي وأنا ألاحق ذاك الأثر الذي أراه في أحلامي، وفي توق شديد للعودة إلى ذاك الباب المؤدي إلى المسرح المسحور، المخصص فقط للمجانين. وفي تلك الأثناء كنت قد وصلت إلى السوق العامة، التي لا تخلو قط من وسيلة تسلية مسائية. وكنت تجد في كل مكان إعلانات وملصقات بما تحتويه من وسائل جذب، فرق موسيقية نسائية، منوعات، سينما، رقص. ولكن لم يكن أي منها ليجذبني. إنها "للجميع"، لأولئك الأناس العاديين الذين رأيتهم يحتشدون عند كل مدخل. وعلى الرغم من ذلك خفّت وطأة حزني قليلاً. لقد تلقيت تحية من عالم آخر، وقد عزفت بضعة أحرف ملونة، راقصة على أوتار روحي، وأصدرت أنغامها السرية. وعاد ومض الدرب اللامع إلى الظهور من جديد.

بحثت عن الحانة العتيقة الصغيرة التي لم يتغير أي شيء فيها منذ زيارتي الأولى لهذه البلدة، قبل خمس وعشرين سنة. حتى صاحبة المحل كانت هي ذاتها عندئذ والعديد من الزبائن المخلصين الذين يجلسون هناك في الأيام الخوالي كانوا ما يزالون يجلسون في الأماكن عينها أمام الكؤوس عينها. إلى هناك التجأت. نعم، إنه لم يكن غير ملجأ، كذاك الموجود على الدرج قبالة نبات الأروكاريا. هنا، أيضاً، لم أجد مأوى ولا صحبة، لا شيء غير مقعدٍ منه أرى خشبة مسرحٍ عليها يقوم أناس غرباء بأداء أدوارٍ غريبة. ومع ذلك، كان هدوء المكان يستحق بعض الاهتمام، فلا حشود غفيرة، لا موسيقى، لا يوجد إلا بعض من مواطني البلدة المسالمين الجالسين على طاولات البار الخشبية (لا رخام، لا سطح ملمعاً، لا بلش ولا نحاس) وأمام كل منهم كأس من النبيذ المعتق الطيب. لعل هذه الصحبة من مرتادي المكان، الذين أعرفهم جميعاً بالنظر، كلها من المحافظين المنتظمين ويحتفظون في مساكنهم المحافظة بمذابحهم المنزلية

الكئيبة المكرَّسة لأصنام القناعة الخجول، ولعلهم، أيضاً أفراد متوحـدون، سكيرون، مراعون، هادئون، زائغوا الانتباه، ذوو مُثُل عليا مفلسة، ذئاب متوحِّدة ومساكين مثلي. لم أكن متأكداً. لعل الحنين إلى الوطن أو الاحباط، أو الحاجة إلى التغيير هي التي جرتهم إلى هناك، المتزوج من بينهم لكي يستعيد جو أيام عزوبته، والموظف العجوز ليستذكر سنين دراسته. وكلهم كان صامتاً، وكلهم سكير يفضِّل/ مثلي، أن يجلس أمام وعاء من نبيذ إلزاسر على أن ينصت إلى الفرقة الموسيقية النسائية. هنا ألقيت مرساتي، مدة ساعة، أو ربما اثنتين. وأدركت مع أول رشفة من النبيذ أني لم أكن قد أكلت أي شيء منذ وجبة الإفطار في ذاك النهار.

مذهل مقدار ما في إمكان كل أولئك الرجال أن يبتلعوه. وأمضيت عشر دقائق في قراءة صحيفة. وسمحت لروح رجل غير مسؤول يمضغ كلمات شخص آخر في فمه ويطحنها، ومن ثم يلفظها ثانية، دون هضمها، أن تتغلغل فيّ من خلال عينيّ. وابتلعت عموداً صحفياً كاملاً منها. ومن ثم التهمت قطعة كبيرة اقتطعتها من كبد عجل مذبوح. شيء غريب فعلاً! أفضل شيء كان نبيذ إلزاسر. إنني لست مولعاً، على الأقل ليس كل يوم، بتناول أنواع النبيذ المسكرة، الطيبة المذاق، التي تنشر سحراً قوياً وتتميز بنكهتها الخاصة. وما أحبه حقاً هو الخمر الريفي المتواضع المعتق، الخفيف، النظيف الذي لا اسم متميزاً له. وفي إمكان المرء أن يجرع منه الكثير وله نكهة الأرض البيتية الطيبة، والتربة والسماء والغابة. إن كأساً من نبيذ إلزاسر وقطعة من الخبز الجيد لأفضل من كل الوجبات. إلا أني في ذلك الوقت كنت قد أتيت على حقي من لحم الكبد (وهذا تدليل لنفسي غير عادي، بما أني نادراً ما آكل اللحم) ووضع الكأس الثاني أمامي. وهذا أيضاً شيء غريب: أنه في مكان ما من واد أخضر نضر يقوم على العناية بكروم العنب رجال أقوياء، بارعون،

ثم يعصر النبيذ حتى يتمكن بضعة من أهالي البلدان المحبطين الذين يشربون بهدوء وذئاب سهوب بائسين، في طول العالم المترامي وعرضه، من رشف شيء من الجرأة والشجاعة من كؤوسهم.

السحر فعل فعله فيّ، على الأقل. وعندما عدت إلى التفكير في تلك المقالة الصحفية وفي كلماتها المختلطة، تصاعد داخلي ضحك منعش، وتذكرت فجأة من جديد اللحن المنسي لتلك النغمات المعزوفة على آلة البيانو. وطفا عالياً مثل فقاعة صابون، يعكس صورة العالم كله منمنمة على سطح قوس قزحه، ومن ثم انفجر بهدوء. أيمكن أن أكون قد ضعت عندما كان ذاك اللحن العلوي القصير متجذراً سراً داخلي، وإذ به الآن يُبرز براعمه الجميلة بكل تدرجات ألوانه الرقيقة؟ لعلي كنت حيواناً ضالاً، لا يدرك ما يدور حوله، ولكن كان هناك معنى ما لحياتي الحمقاء، ثمة شيء عندي لديه الجواب. وكان يتلقى تلك النداءات النائية المتناهية من عوالم من أقصى الفضاء. وكانت آلاف الصور مخزنة في عقلي:

حشدُ جيوتو[1] من الملائكة على السقف المعقود الأزرق للكنيسة الصغيرة في بادوا. وإلى جوارهم سار هاملت وأوفيليا مكللة بالزهور، تشبيهات مثالية، لكل رموز الحزن وسوء الفهم في العالم، وكان هناك جيانوتزو، الملاح الجوي، على متن منطاده المشتعل، وهو ينفخ في بوقه، وأتيلا يحمل خوذته بيده، وبوروبودور يرفع تمثاله المحلق عالياً في الهواء. وعلى الرغم من أن كل هذه القامات سكنت أيضاً آلاف القلوب الأخرى، إلا أنه كانت هناك عشرة آلاف صورة مجهولة أخرى ولحن لا مأوى لها إلا في داخلي، ولا عيون لتراها، أو آذان لتسمعها إلا عيناي وأذناي أنا. وجدار المستشفى العتيق بآثار العوامل الجوية الرمادية

[1] جيوتو دي بوندونه (1267-1337): رسام فلورنسي من عصر النهضة.

المخضرّة وشقوقه ولطخه التي يمكن تخيل ألف لوحة جدارية فيها، مَنْ استجاب له، مَنْ سبر روحه، مَنْ أحبه، مَنْ اكتشف سحر ألوانه الذي يضمحل برهافة مضطردة؟ وكتب الرهبان العتيقة، المزخرفة بنمنماتها الرقيقة، وكتب الشعراء الألمان المنسية التي يعود عهدها إلى مئتي عام ومئة عام، وكل المجلدات بما عليها من بقع الرطوبة وآثار تقليب الصفحات بطرف الإبهام. ومطبوعات المؤلفين الموسيقيين ومخطوطاتهم، والكميات الهائلة من أوراق النوتة الموسيقية الممسوسة بأحلام ترجيع الغناء - من سمع أصواتها المفعمة بالشوق، والخبث والحيوية الفائقة، مَنْ شق طريقه في عالم أقصاهم عن قلب مترع بروحهم وسلطانهم؟ من ذا الذي كان مايزال يتذكر شجرة سرو هيفاء تسمق على تل يطل على غبيو، على الرغم من كونها منغلقة ومشقوقة بفعل سقوط الحجارة، إلا أنها تشبثت بالحياة بقوة وأنبتت من ذروتها بويقةً متناثرة جديدة بآخر ما لديها من موارد؟ مَنْ أنصف ربة البيت المجتهدة التي تسكن الطابق الأول ونبات الأروكاريا النظيف خاصتها؟ مَنْ قرأ ليلاً فوق نهر الراين ما خطّته سحب الضباب المنساب؟ إنه ذئب السهوب. ومَنْ فوق أطلال حياته تقصّى مغزاها المرتعش، والخاطف، بينما هو يقاسي عبثها الظاهري، ويعايش جنونها الظاهري، ومَنْ أمل سراً عند آخر انعطافة لمتاهة العماء في نزول وحي وفي دنوّ الله؟.

عندما أرادت صاحبة الحانة أن تعيد ملء كأسي وضعتُ يدي فوقه، ونهضت واقفاً. لم أكن بحاجة إلى مزيد من النبيذ. وكان الأثر الذهبي اللامع قد تلظى فذكرني بالأبديّ، ذكرني بموتسارت، ذكرني بالنجوم. ومرت علي ساعة من الزمن عدت خلالها أتنفس وأعيش وأواجه الوجود، بدون اضطراري إلى أن أعاني العذاب، أو الخوف، أو الاحساس بالعار.

عندما خرجت إلى الشارع المقفر، كانت رياح باردة تنخل مطراً دقيقاً، وتخرق القطرات مع ربتٍ على مصابيح الشارع، وهناك تومض مع تلألؤ زجاجي. والآن، إلى أين؟ لو كنت أملك عندئذ عصا سحرية لاستحضرت غرفة موسيقى من طراز لوي سيز فاتنة صغيرة المساحة، تضم عدداً قليلاً من الموسيقيين يعزفون لي مقطوعتين أو ثلاثاً من تأليف هاندل وموتسارت. كنت في المزاج المناسب تماماً لسماع ذلك، وكنت مستعداً لرشف الموسيقى النبيلة الرائقة كما ترشف الآلهة رحيقها. آه، لو كان لي صديق الآن، صديق جالس في غرفة عليّة، وهو مسترسل في الحلم على ضوء الشموع، ويمسك بيده آلة كمان ومستعد للعزف! كم كنت سأودّ أن أتسلل إليه، وهو في ساعة صفائه، وأصعد الدرج اللولبي بهدوء لأفاجئه، ومن ثم، ومع مزيج من الحديث والموسيقى نقيم احتفالاً يستغرق الليل بطوله! وقد كنت قبل سنين مضت كثيراً ما أمرُّ بلحظات سعادة مثلها، ولكن حتى هذه ذراها الزمن. وباتت تفصل بينها والوقت الحاضر سنوات ذاوية.

تلكأت في سيري قاصداً المنزل، وقد رفعت ياقتي وأخذت أدق العصا على الرصيف المبلل. ومهما طال توانيّ في الخارج فإني سرعان ما كنت سأجدني في غرفتي الكائنة في الطابق الأعلى، منزلي المؤقت، الذي لم أتمكن من أن أحبه ولا أن أستغني عنه، فقد كان قد فات العهد الذي أستطيع خلاله أن أمضي ليلة شتائية في الخلاء. وبت الآن أتوسل كي لا يفسد المزاج الرائق الذي منحنيه المساء، لا بسبب المطر، ولا داء النقرس، ولا نبات الأروكاريا؛ وعلى الرغم من عدم وجود غرفة موسيقى ولا صديق يشعر بالوحشة مع كمانه، إلا أن ذاك النغم الجميل ظل مع ذلك في ذهني وكان في إمكاني أن أعزفه كله بنفسي بشكل أو بآخر، مهمهماً إيقاعه أثناء أخذ الشهيق. وتابعت سيري وأنا أقلب هذه الأفكار. نعم،

حتى بدون غرفة موسيقى وبدون الصديق. ما أشد حماقة المرء إذ يرهق نفسه عبثاً توقاً إلى الدفء! إن العزلة استقلال. ولطالما كانت مُنيتي وقد بلغتها مع مرور السنين. لقد كانت باردة. أوه، ما أشد برودتها! لكنها أيضاً ساكنة، ساكنة بشكل رائع ومترامية الأرجاء مثل سكون الفضاء البارد الذي تدور فيه النجوم في أفلاكها.

لدى مروري بإحدى صالات الرقص قابلتْ سمعي أنغام موسيقى جاز حيوية، حارة وغير مصقولة كبخار متصاعد عن لحم نيء. فتوقفت برهة. وعلى الرغم من شدة كرهي لهذا النوع من الموسيقى، فلطالما وجدته ينطوي على سحر سري. كنت أبغض موسيقى الجاز، إلا أنني كنت أفضلها عشر مرات على كل الموسيقى المدرسية التي تؤلّف هذه الأيام. أنا أيضاً وجدت أن مرحها البدائي والهمجي يبلغ عالماً سفلياً من الغريزة، وينضح بحسية صادقة وبسيطة.

استوقفني العطر هنيهة، ورحت أشم هذه الموسيقى الصاخبة النابضة بالدم الحي، أتنشق جو الصالة بغضب، وأيضاً أتحرك قليلاً بتوق نحوها. وكان نصف هذه الموسيقى، هذا اللحن، مضمخاً كله بالعطر ومغلفاً بالسكر وبالنبرة العاطفية المفرطة. أما النصف الآخر فكان همجياً، مزاجياً ويضج بالحيوية. غير أن الجزأين كانا يتماشيان معاً بتناسق يفتقر إلى البراعة، ويشكلان كلاً واحداً. إنها موسيقى الانحدار. لا شك في أنه كانت هناك موسيقى مشابهة لهذه في عهد أباطرة روما المتأخرين. وإذا ما قورنت بموسيقى باخ وموتسارت، وهي الموسيقى الحقيقية، لكانت النتيجة، حتماً، بائسة، ولكن هذا هو حال فنوننا كلها، وفكرنا كله، وحضارتنا المؤقتة كلها، بمقارنتها مع الحضارة الحقيقية. وفضيلة هذه الموسيقى هي صدقها الشديد. وبسبب اتصافها بالصبغة الزنجية دون خجل وبشكل محبب، فقد كانت تتسم بمزاج السعادة الطفولية. كان

فيها شيء زنجي، شيء أميركي، يبدو على الرغم من كل قوته نضراً نضارة صبيانية وطفولية بالنسبة إلينا نحن الأوروبيون. فهل سيطرأ التغيير نفسه على أوروبا؟ هل هي الآن في طور هذا التحول؟ وهل نحن، الضليعون القدامى، المبجّلون لأوروبا كما كانت، وللموسيقى والشعر الأصيلين كما كانا ذات يوم، لسنا غير أقلية حمقاء عنيدة من العصابيين المعقّدين المعرضين للنسيان أو للسخرية غداً؟ وهل كل ما نسميه حضارة، روحاً، نفساً، وكل ما نسميه جميلاً ومقدساً، ليس غير وهم تلاشى منذ زمن بعيد، ولم يبق غير حفنة من الحمقى أمثالنا ما زالوا يعتقدون أنه حقيقة حية؟ هل كان ما أرهقنا رؤوسنا به نحن الحمقى المساكين، لم يكن قط إلا سراباً؟.

عندئذ كنت قد وصلت إلى القطاع القديم من المدينة. كانت هناك كنيسة صغيرة تنهض قائمة وكئيبة كالوهم. وسرعان ما استعدت ذكرى تجربة المساء، الباب ذا الطراز الغوطي الغامض، واليافطة الغامضة التي تعلوه والحروف المضاءة المتراقصة ساخرة. ماذا كان مكتوباً؟ "الدخول ليس للجميع". وأيضاً: "للمجانين فقط!". ودققت النظر في الجدار العتيق المقابل يحدوني أمل سري في أن يعود السحر من جديد، أن تدعوني الكتابة، أنا المجنون، إلى الدخول، ويسمح لي الباب الصغير بولوجه. لعلي أجد هناك ما أبتغي، وقد أسمع الموسيقى التي أحب.

بادلني الجدار الحجري القاتم النظر بهدوء صلب، قاطعاً مانعاً وسط الغسق العميق، غارقاً في حلمه الخاص. ولم يكن هناك أي منفذ في أي موقع ولا أي مدخل مقنطر محدد، لا شيء غير البناء الصلد المظلم. تابعت طريقي وأنا أبتسم، وأومئ له بود قائلاً: «نوماً هانئاً. لن أوقظك. سيأتي الوقت المناسب الذي ستنهار فيه أو تُلصق عليك إعلانات تجارية.

أما الآن، فها أنت قائم، جميل وهادئ كعهدك دائماً، وأنا أحبك لهذا السبب».

من الفوهة السوداء لأحد الأزقة ظهر رجل بفجاءة مُجفِلة بالقرب مني، رجل وحيد متوجه إلى بيته ويسير بخطى مرهقة. كان يعتمر قلنسوة ويرتدي بلوزة زرقاء اللون، ويرفع فوق كتفيه لوحة مثبتة فوق عصا، ويحمل أمامه صينية مكشوفة تتدلى منها أشرطة كالتي يحملها البائعون المتجولون في الأسواق. سار يتقدمني بهيئة مرهقة دون أن يلتفت إليّ. ولو فعل لألقيت عليه تحية المساء، وأعطيته سيجاراً. وحاولت أن أقرأ الشعار المدون على رايته ـ اللوحة الحمراء المرفوعة على عصا ـ على ضوء المصباح التالي، لكنها كانت تترنح جيئة وذهاباً فلم أتمكن من فك مغاليقها. ثم ناديت عليه وطلبت منه أن يسمح لي بقراءة إعلانه. فتوقف وثبّت عصاه أكثر قليلاً. وعندئذ تمكنت من قراءة الأحرف المترنحة المتراقصة:

أمسية ترفيه للفوضويين

مسرح سحري

الدخول ليس للجميع

هتفت بابتهاج: «هذا ما كنت أبحث عنه. ما هي أمسية الترفيه هذه؟ أين تقام؟ ومتى؟».

كان قد تابع طريقه لتوه.

قال بنبل وبصوت ناعس: «إنها ليست للجميع». لقد ناله التعب وهو الآن متوجه إلى البيت، ثم تابع طريقه.

صرخت وأنا أركض خلفه: «توقف، ماذا تحمل في صندوقك؟ أريد أن أشتري شيئاً منك».

تحسس الرجل، بدون أن يتوقف، داخل صندوقه بحركة آلية وأخرج كتاباً صغيراً وناولنيه. أخذته على عجل ووضعته في جيبي وبينما كنت أتحسس بحثاً عن أزرار معطفي لأخرج بعض المال، انعطف داخلاً أحد الأبواب، ثم أغلق الباب خلفه واختفى. وتردد وقع خطاه الثقيلة قوياً على بلاط الفناء، ومن ثم على الدرج الخشبي، ثم لم أعد أسمع أي شيء. وفجأة بدأت بدوري اشعر بتعب شديد. وخطر لي أن الوقت قد تأخر كثيراً ـ وأنه حان وقت العودة إلى المنزل، وسرت بوقع خطى أسرع، متخذاً الطريق المؤدية إلى الضاحية وسرعان ما وصلت إلى الحي الذي أقطن فيه بين الحدائق المعتنى بها جيداً، حيث تقطن طبقة الموظفين وذوو الموارد المعتدلة في شقق صغيرة نظيفة خلف أرض مرجة ولبلاب. واجتزت اللبلاب والمرجة وشجرة التنوب الصغيرة لأصل إلى باب بيتي، وعثرت على ثقب المفتاح وعلى مفتاح النور، وعبرت الأبواب ذات الألواح الزجاجية، والخزائن المصقولة، والنباتات في أصصها وفتحت بالمفتاح باب غرفتي، منزلي الصغير، حيث الكرسي ذو ذراعين والمدفأة، ودواة الحبر وعلبة الدهان، ونوفاليس ودوستويفسكي، ينتظرون عودتي كما تفعل الأم، أو الزوجة، والأولاد، والخدم، والكلاب والقطط في حالة الأناس الأكثر عقلانية.

عندما خلعت معطفي المبلل وقعت على الكتاب الصغير، فأخرجته ووجدته أحد تلك الكتب الصغيرة المطبوعة بشكل سيء على ورق رديء وتباع في الأسواق العامة، وتحمل عناوين مثل: "هل ولدت في شهر كانون ثاني؟" أو "كيف تبدو أصغر سناً بعشرين سنة خلال أسبوع واحد".

بيد أني، بعد أن استقريت على الكرسي ذي الذراعين ووضعت نظارتي على عينيّ، دهشت أي دهشة وداهمني إحساس بقرب وقوع

كارثة، حين قرأت العنوان المدون على **هذا** الدليل للكتيبات الـتي تتكهـن بالخط "**أطروحة في ذئب السهوب. ليس للجميع**".

قرأت ما يحتويه في جلسة واحدة باهتمام مضطرد كـان يتعمـق مـع توالي الصفحات.

أطروحة حول ذئب السهوب

في يوم من الأيام كان هنالك رجل يدعى هاري، ويكنّى بذئب السهوب. كان يسير على قدمين، ويرتدي الملابس. وكان كائناً بشرياً. إلا أنه في واقع الأمر كان كذئب يجوب السهوب. تعلّم الكثير جداً حول كل ما يستطيع عمله الناس، ذوو التفكير المحايد، وكان رجلاً حاذقاً. إلا أن ما لم يتعلمه كان أن يرضى بنفسه وبحياته الخاصة. وكان السبب الظاهري لذلك هو أنه كان يعلم طوال الوقت، في قرارة قلبه (أو ظن أنه يعلم) أنه في الواقع ليس إنساناً، وإنما ذئب سهوب. وقد يجادل الحاذقون حول ما إذا كان فعلاً ذئباً، فيما إذا كان قد تحول، ربما قبل ولادته، من ذئب إلى كائن بشري، أو أنه وُهب روح ذئب، وإن كان قد ولد كائناً بشرياً، أو فيما إذا كان، من ناحية ثانية، اعتقاده هذا أنه ذئب ليس أكثر من وهم، أو مرض خاص به. لعله كان، مثلاً، في طفولته جامحاً ومتمرداً وفوضوياً، ولعل القائمين على تنشئته أعلنوا حرب إبادة للحيوان داخله، ولعل هذا بالذات ما أوحى إليه بفكرة الاعتقاد أنه في الحقيقة حيوان لا تغطيه إلا طبقة رقيقة من الانسانية. وحول هذه النقطة يمكن التحدث مطولاً والتسلّي، بل والكتابة أيضاً عنها. غير أن ذلك لن يفيد ذئب السهوب في شيء، لأنه سيان لديه إن كان الذئب داخله قد فتن أو ضرب، أو كان مجرد فكرة خاصة به. ولا يفيده في شيئ رأي الآخرين فيه أو رأيه هو ذاته. لأن الذئب سيبقى كما هو داخله.

وهكذا فإن للذئب طبيعتين، إنسانية وذئبية. هذا هو قدره، وقد لا يكون استثنائياً كثيراً. إذ لا بد أن كثيرين من الناس ينطوون على قدر كبير من صفات الكلب أوالثعلب، السمكة أو الأفعى بدون أن يواجهوا في هذا المجال مصاعب جمَّة. وفي مثل هذه الحالات يتعايش الإنسان والثعلب، الإنسان والسمكة معاً بدون أن يؤذي أحدهما الآخر. بل إن كلاً منهما يساعد الآخر. والحق أن الكثيرين قد حملوا هذا الوضع معهم فترات طويلة جداً يُحسدون عليها بحيث أنهم يدينون بسعادتهم للثعلب أو للقرد الذي في داخلهم أكثر منهم للإنسان. كفى معلومات عامة. إلا أن الوضع في حالة هاري كان مختلفاً. ففي داخله لم يسر الإنسان والذئب جنباً إلى جنب في اتجاه واحد، ولم يساعد أحدهما الآخر، وإنما كانا في حالة عداء لدود دائم. وكان وجود كل منهما قائم ببساطة وحصراً على أساس إيذاء الآخر، وعندما يشترك عدوَّان لدودان في الدم وفي النفس، تغدو الحياة إخفاقاً تاماً. وكما يقال، لكلٍ قدرة، ولا عبء خفيفاً.

أما مع صاحبنا ذئب السهوب فإن الوضع كان من الفداحة بحيث أنه كان في حياته الواعية يعيش تارة كذئب، وأخرى كإنسان، كما هو الحال مع كل الكائنات المختلطة. غير أنه عندما يكون ذئباً فإن الإنسان يكمن له، ويظل دائماً متوثباً ليتدخل ويدين، في حين إنه عندما يكون إنساناً فإن الذئب يفعل الشيء نفسه. فمثلاً، إذا كان هاري، كإنسان، يحمل فكرة جميلة، أو يمر بانفعال نبيل ورائع، أو يؤدي عملاً صالحاً، إن صح التعبير، فإن الذئب يكشر له عن أنيابه ويضحك ويبين له وهو يؤنبه أشد التأنيب كم إن هذا العرض النبيل برمته مثير للسخرية في نظر الحيوان، في نظر الذئب الذي يعرف حق المعرفة ومن قرارة قلبه ما يناسبه، أي، أن يجوب السهوب وحيداً ويتخم نفسه بين حين وآخر من سفك الدماء أو يطارد ذئبة. وعندئذ تبدو كل النشاطات الانسانية، من

وجهة نظر الذئب، سخيفة إلى أقصى حد، وفي غير موضعها، وحمقاء ولا طائل من ورائها. لكن مشاعر هاري وسلوكه كانت هي نفسها تماماً عندما كان ذئباً وأبرز للآخرين أنيابه وشعر بالحقد وبالعداء لكل الكائنات البشرية، بما يتصف به سلوكهم وعاداتهم من كذب وانحطاط. لأن الجانب الانساني منه يربض عندئذ كامناً له ويراقب الذئب، ويرميه بصفات الوحش والحيوان، ويفسد عليه كل مسرَّة في وجوده الصحيح جسدياً والبسيط كذئب ضار وينغّصها.

هكذا إذن كان الوضع مع ذئب السهوب، ويمكننا أن نتصور كيف أن حياة هاري لم تكن بالضبط حياة هانئة وسعيدة جراء ذلك. بيد أن هذا لا يعني أنه لم يكن سعيداً بشكل مطلق (على الرغم من أن هذا مع ذلك ما قد يبدو له، بقدر ما يعتبر كل إنسان الآلام التي تحل به هي الأفدح). وهذا الكلام لا يصح على أي إنسان. حتى ذاك الذي لا ينطوي في داخله على ذئب، قد لا يكون أسعد حالاً. إذ حتى أتعس حياة تحتوي على لحظاتها المشرقة وأزهار سعادتها الصغيرة التي تنبت بين الرمال والحجارة. وكذا كان حال ذئب السهوب. ولا يمكن أن ننكر أنه في العموم كان تعيساً جداً، وكان في إمكانه أيضاً أن يسبب التعاسة للآخرين، أي عندما يحبهم أو يبادلونه الحب. لأن كل من تورط في حبه لم يكن يرى دائماً إلا جانباً واحداً منه. كثيرون أحبوه، بوصفه رجلاً مثيراً للاهتمام، حاذقاً وراقياً، وأصيبوا بالرعب وبخيبة الأمل عندما صادفوا جانب الذئب منه. وكان لا بد لهذا أن يحدث لأن هاري كان يرغب، مثل أي مخلوق واع، في أن يُحبَّ كله وبالتالي فإنه لم يستطع أن يخفي عن أولئك الذين كان يقدِّر حبهم عالياً الذئب ويناقضه. ولكن كان هناك أولئك الذين كانوا يحبون بالذات جانب الذئب منه، الحر، الهمجي، العصي على الترويض، الخطر والقوي، وكان هؤلاء يصابون

بخيبة أمل كبيرة إلى درجة يرثى لها عندما يكتشفون فجأة أن الذئب الشرير والضاري هو أيضاً إنسان، ويتوق توقاً شديداً إلى الخير والدماثة، ويرغب في سماع موسيقى موتسارت، وفي أن يقرأ الشعر ويضمر مُثلاً عليا إنسانية. وكان هذا عادة أشد ما يسبب لهم الخيبة والغضب، وهكذا حدث أن دخل ذئب السهوب ازدواجيته وطبيعته المنقسمة إلى أقدار الآخرين كلما تواصل معهم.

الآن، إن كل من يعتقد أنه يعرف ذئب السهوب، وأن في استطاعته أن يتخيل حياته المنقسمة بشكل مفجع مخطئ على الرغم من كل ذلك. إنه لا يعرف بعد كل شيء. هو لا يعرف (كما أنه لا قاعدة بلا استثناء وكما إن الآثم يمكن أن يكون في ظروف معينة أقرب إلى الله من تسع وتسعين من الأتقياء) أنه مع هاري أيضاً كانت تحدث أحياناً استثناءات وضربات من الحظ الحسن، فكان تارة يتنفس ويفكر ويشعر كذئب، وتارة أخرى كإنسان، بوضوح وبدون الخلط بين الاثنين، بل إنهما حتى في مناسبات نادرة كانا يتصالحان ويتعاونان في الحياة إلى درجة أنهما لم يكتفيا بأن يبقى أحدهما يقظاً بينما الآخر نائم بل كان كل منهما يشدُّ من عزيمة الآخر ويقوِّيه. وفي حياة هذا الرجل أيضاً، كما في كل الأشياء الأخرى في العالم، كان يبدو أنه ليس للعادة اليومية والعُرف والمعلومات العامة من هدف آخر غير أن يتم القبض عليها أحياناً برهة خاطفة، واختراقها، لكي تسلِّم مرتبة الشرف للاستثنائي والمعجز. ومرة أخرى يصبح التساؤل عما إذا كانت سويعات السعادة القليلة تلك تُوازن قدرَ ذئب السهوب وتلطِّفه بحيث تحافظ على كفتي الميزان، في ذروتيّ السعادة والألم، متعادلتين، أو عما إذا كانت ربما كفّة السعادة القصيرة الأمد ولكن المكثفة التي تبثها تلك السويعات، ترجح على كفة كل ألم وترفعها ـ أقول إن هذا التساؤل يصبح قضية قد يتفكر حولها

الكسالى ملء قلوبهم. حتى الذئب كثيراً ما يتأمل فيه، وخلال ذلك مرت اشد أيامه كسلاً وعقماً.

حول هذا الأمر يجب إضافة قول آخر. إن هناك عدداً كبيراً من الناس من أشباه هاري. والعديد من الفنانين بوجه خاص هم من الفئة نفسها. وينطوي كل من هؤلاء الأشخاص على نفسين، على وجودين. ففي داخلهم ا لله والشيطان، دماء الأم ودماء الأب، المقدرة على السعادة والمقدرة على التألم، وفي مثل هذه الحالة من العداء والتشابك كان الذئب والانسان داخل هاري. هؤلاء الرجال، الذين لا توفر لهم الحياة أي راحة، يعيشون أحياناً لحظاتهم من السعادة النادرة باندفاعٍ هائل وجمال يعصى على الوصف، ورذاذ لحظات سعادتهم ينتشر عالياً جداً وبشكل مذهل فوق بحر آلامهم المترامي، حتى إن بريقه، الذي ينشر بهاءه، يلمس آخرين أيضاً بسحره. وهكذا ترتفع كل تلك الأعمال الفنية، مثل زبدٍ طافٍ، نفيسٍ، فوق بحر الآلام، يحلّق فرد واحد وهو ينغمس فيها مدة ساعة من الزمن مرتفعاً عالياً جداً فوق قدره الشخصي حتى إن سعادته تشرق كنجمة وتتبدّى لكل من يراها كشيء سرمدي وكأنها حلمه الخاص بالسعادة. كل هؤلاء الرجال، مهما كانت إنجازاتهم أو أعمالهم، ليست لديهم حياة حقيقية، أي إن حياتهم هي بلا وجود ولا شكل لها. وهم ليسوا أبطالاً، أو فنانين، أو مفكرين كما يغدو غيرهم قضاة، أو أطباءاً، وحذّائين أو معلمين. إن حياتهم تتألف من حركة مدّ وجزر مستمرة، تعيسة يمزقها الألم، الرهيب والعبثي، اللهم إلا إذا كان المرء مستعداً لأن يستشف معناها فقط من خلال تلك التجارب النادرة، والأفعال، والأفكار، والأعمال التي تشرق فوق عماء مثل تلك الحياة. وقد تبدّت لهؤلاء الفكرة اليائسة والرهيبة التي مفادها أن كامل الحياة الإنسانية ربما ليست أكثر من نكتة سخيفة، إجهاض مشؤوم، عنيف،

للأم الأولية، وكارثة طبيعية، مغمّة وهمجية. ولكن تبدت لهم أيضاً فكرة أخرى تقول إن الإنسان قد لا يكون فقط حيواناً نصف عاقل وإنما طفل للآلهة وأن الخلود هو قدره.

إن لكل إنسان، مهما كان، خصائصه، وجوانبه، وفضائله ومثالبه وآثامه القاتلة. وأحد جوانب ذئب السهوب هو أنه جوّاس الليل. والصباح هو أسوأ وقت بالنسبة إليه من النهار وهو يخشاه ولا يجلب له ابداً أي خير. فلم يحدث قط في صباحٍ في حياته أن كان مستبشراً أو قام بأي عمل مفيد قبل منتصف النهار، ولا استلهم أي فكرة جيدة، ولا تسبّب في أي متعة لنفسه أو لغيره. وشيئاً فشيئاً خلال فترة بعد الظهر يأخذ الدفء يسري في أوصاله وتدب الحياة فيه، ولا يغدو منتجاً، ونشطاً، وأيضاً، أحياناً، متقداً بالفرح، إلا مع اقتراب المساء، وفي أيامه السعيدة. وتقترن بهذا حاجته إلى العزلة والاستقلال. وليس هناك من إنسان يفوقه في عمق توقه وعنفوانه إلى الاستقلال. وفي شبابه عندما كان فقيراً ويجد صعوبة في كسب قوته، كان يفضل أن يظل جائعاً وعارياً فقط لكي يحافظ على الهامش الضيق القليل من الاستقلال. ولم يحدث قط أن باع نفسه من أجل المال أو أي حياة رخيَّة أو النساء أو تقرباً من أصحاب النفوذ، وكان ينبذ مئة مرة ما يعتبره العالم مصلحته وسعادته لكي يصون حريته. ولا شيء كان أكره على نفسه ويثير اشمئزازها من اضطراره إلى أن يتوجه إلى مكتب وأن يتكيف مع الروتين يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، وأن يطيع الآخرين. وكره مختلف أنواع المناصب، الحكومية منها أو التجارية، كراهيته للموت، وكان أسوأ كابوس بالنسبة إليه هو احتجازه داخل أسوار الثكنات العسكرية. وكان يعمل، وفي كثير من الأحيان مع تضحية كبرى، على تجنب أمثال هذه المآزق. وهنا كانت تكمن قوته ومَزيَّته. وعند هذه النقطة ما كان يمكن

إخضاعه أو رشوته. هنا كانت شخصيته تقف حازمة ولا يمكن قهرها. غير أنه، ومن خلال هذه المزيَّة، ارتبط بقوة أكبر إلى ما قُدِّر له من معاناة. لقد وقع ذلك له كما يقع لكل إنسان، إن ما كافح لتحقيقه من أعمق غريزة للبقاء وأشدها عناداً كان قدره المرير. إن رجل السلطة تحطمه السلطة، ورجل المال يحطمه المال، والمذعن الإذعان، والساعي إلى المتعة المتعة. لقد حقق هدفه. حافظ دائماً على استقلاله. لم يتلق أوامر من أي إنسان ونظّم أساليبه بحيث لا تناسب أحداً. وقرر، وهو مستقل ووحيد، ما ينجزه وما يدعه دون إنجاز. لأن كل إنسان قوي يبلغ ما يأمره حافز حقيقي ببلوغه. لكن هاري، وهو وسط حريته التي حققها، أدرك فجأة أن حريته هي موت وإنه يقف وحيداً. لقد تركه العالم وشأنه بطريقة غريبة، ولم يعد يهتم بالآخرين، بل إنه لم يكن يهتم بنفسه. وبدأ يختنق ببطء في جو النأي والانعزال المتخلخل باضطراد. أما الآن فلم تعد عزلته واستقلاله يمثلان رغبته وهدفه، وإنما أصبحا قدره وعقوبته. لقد تحققت الأمنية السحرية ولا يمكن إلغاؤها ولا فائدة الآن من فتح ذراعيه اشتياقاً ووداداً للترحيب بقيود المجتمع. لقد تركه الناس الآن وحده. لكن هذا مع ذاك لا يعني أنه بات موضع كراهية وبغض، على العكس، لقد كان لديه العديد من الأصدقاء، وأحبه الكثيرون. لكن الأمر لم يتعد العطف والود. كان يتلقى الدعوات، والهدايا، والرسائل السارة، ولكن لا أكثر. لا أحد اقترب منه. إذ لم تتبق أي صلة، ولم يعد في إمكان أحد أن يقوم بأي دور في حياته ولا رغب أحد في ذلك. لأنه أصبح الآن محاطاً بجو الأناس المتوحدين، وهو جو ساكن ينزلق العالم من حوله مبتعداً، ويتركه عاجزاً عن إقامة علاقة، جو لا تنفع في مكافحته إرادة ولا اشتياق. وقد كانت هذه إحدى العلامات المميزة في حياته.

من العلامات الأخرى أنه كان ينتمي إلى فئة الانتحاريين. وهنا يجب أن أقول إنه من الخطأ حصر الانتحاريين بأولئك الذين ينتحرون بالمعنى الحرفي للكلمة. في الحقيقة إن من بينهم عديدين انتحاريين بمعنى ما وبالمصادفة وليس للانتحار في وجودهم مكان ضروري. وبين الأناس العاديين هناك العديد من أصحاب الشخصية الضعيفة و لم يترك القدر عليهم أي بصمة عميقة. الذين وجدوا نهايتهم في الانتحار بدون أن ينتموا في هذا المجال إلى نمط الانتحاريين بالنزعة، في حين أن، من ناحية أخرى، من بين الذين يُعتبرون انتحاريين من عمق أعماق طبيعتهم كثيرين، وربما الأغلبية، لا يمسون أنفسهم بأي أذى، في الحقيقة. إن "الانتحاريين"، وهاري أحدهم، ليسوا بحاجة إلى أن يعيشوا وهم على صلة وثيقة بالموت. إذ يمكن للإنسان أن يفعل ذلك بدون أن يكون انتحارياً. إن ما يتميز به الانتحاري هو أنه يشعر، أمحقاً كان أم مخطئاً، إن ذاته (أناه) هي جرثومة الطبيعة الخطرة إلى أقصى حد، والمريبة، والمدانة، وإنه دائماً يرى نفسه عرضة لخطر هائلٍ، وكأنه يقف وهو بالكاد يجد موطئ قدم على قمة جرف شديد الانحدار، حيث تكفي دفعة صغيرة من الخارج أو برهة ضعف من الداخل لكي تطيح به إلى الهوة. إن خط القدر في حالة هؤلاء البشر يحدده إيمانهم بأن الانتحار هو الأسلوب الأكثر احتمالاً لموتهم. ولعل من المسلّم به أن مثل هذه الأمزجة، التي تتبدّى عادة في مرحلة الشباب المبكر وتلح عليهم على امتداد حياتهم، تكشف عن نقص فريد في الطاقة الحيوية. إلا أن العكس هو الصحيح، فبين "الانتحاريين" يوجد ذوو طبائع متماسكة ومتشوفة وأيضاً شجاعة بشكل فائق للعادة. ولكن كما إن هناك من يصابون بالحمى لدى أقل انحراف من الصحة، ثمة أيضاً أولئك الذين نسميهم بالانتحاريين وهم دائماً متوثبو المشاعر ومرهفو الحس، ولدى تعرضهم لأقل صدمة

يفكرون في الانتحار. ولو أن لدينا العلم المتصف بالشجاعة وبالسلطة ليهتم بالجنس البشري، بدل أن يهتم فقط بآلية الظاهرة الحيوية، لو أننا نتصف بشيء من طبيعة علم الانسان أو علم النفس، لكانت هذه الأمور الواقعية مألوفة لدى الجميع.

إن ما قيل أعلاه حول موضوع الانتحاريين من الواضح أنه لا يلمس إلا السطح. إنه علم نفس، ولذلك فهو جزئياً فيزياء. وعند النظر إلى المسألة من الزاوية الميتافيزيقية، نرى أن لها وجهاً مختلفاً وأشد وضوحاً. ومن هذه الزاوية يظهر الانتحاريون كأناس يستبد بهم إحساس بالذنب متأصل في بعض الأفراد، في أولئك الذين يجدون أن هدف الحياة ليس الوصول بالذات إلى الكمال وفي قولبتها، وإنما في تحرير أنفسهم بالعودة إلى الأم، إلى الله، إلى الكليّ. والعديد من ذوي هذه الطبائع عاجزون تماماً عن اللجوء بأي حال إلى انتحار حقيقي، لأنهم على وعي عميق بالخطيئة خلف هذا العمل. إلا أنهم يبقون مع ذلك انتحاريين بالنسبة إلينا، لأنهم يعتبرون أن محررهم هو الموت وليس الحياة. وهم مستعدون للاستسلام التام، للزوال والعودة إلى البداية.

كما إن كل قوة قدتُضحي ضعفاً (وهذا ما يجب أن يحدث تحت ظروف معينة)، لذلك، وعلى العكس، يمكن للانتحاري النموذجي أن يستمد القوة والدعم من ضعفه الظاهر. والحق أن هذا ما يفعله في أغلب الأحيان. وهاري، ذئب السهوب، يمثل إحدى هذه الحالات. لقد وجد، كالآلاف من أمثاله، العزاء والدعم، ليس فقط العبث الكئيب للوهم الفتي، في اعتقاده أن طريق الموت مفتوحة أمامه في أي لحظة. وصحيح أن معه، كما مع كل أمثاله، كل صدمة، وألم، وورطة مستعصية كانت تستجمع على الفور الرغبة في العثور على مهرب من الموت. إلا أنه صمّم لنفسه في هذا الميل، وبالتدريج، فلسفة كانت في الحقيقة تعين على

الحياة. وقد اكتسب قوة من خلال تآلفه مع اعتقاده أن باب الطوارئ مفتوح دائماً، وأضحى أيضاً تواقاً إلى أن يتذوق معاناته وحتى آخر قطرة حنظل. فإذا ساءت الأمور معه شعر أحياناً باستمتاع خبيث مقيت: «ومع ذلك أنا تواق إلى معرفة إلى أي مدى يستطيع الإنسان أن يتحمّل. فإذا كان في الإمكان بلوغ ما يمكن تحمّله، فكل ما عليّ أن أفعله هو أن أفتح الباب وأهرب». وهناك عدد كبير جداً من الانتحاريين تمنحهم هذه الفكرة قوة خارقة.

من ناحية أخرى إن الصراع ضد إغواء الانتحار مألوف لدى كل الانتحاريين. كل منهم يعلم علم اليقين في ركنٍ ما من روحه أنه على الرغم من أن الانتحار هو أسلوب للهروب، إلا أنه أسلوب خسيس ووضيع، وأن من الأنبل والأرقى أن تصرعنا الحياة على أن نصرع أنفسنا بأيدينا. ولعلمهم بهذا، ولحملهم ضمير كئيب يشترك مع الضمير المحارب للأشخاص المسمّون بالمكتفين ذاتياً في منشئه، فإن غالبية هؤلاء الانتحاريين تُتْرَك لتشن صراعاً مطولاً ضد ما تتعرض له من إغواء، فتصارع صراع المهووس بالسرقة ضد آفته. وذئب السهوب لم يكن غريباً عن هذا الصراع. فقد كان قد انخرط فيه مع تبديل كبير في نوعية الأسلحة المستخدمة. وأخيراً، وهو في سن السابعة والأربعين أو نحوها، خطرت له فكرة مؤاتية، لا تخلو من أذى، كثيراً ما كانت مبعث تسلية له. فعيَّن تاريخ ميلاده الخمسين بوصفه اليوم الذي يمكن فيه أن ينتحر. وقد اتفق مع نفسه، في هذا اليوم، على أنه سيتكشف له، ووفقاً لحالته النفسية، إن كان عليه أن يلجأ إلى باب الطوارئ أم لا. فليقع له ما يقع، مرض، فاقة، ألم، ومرارة، فثمة توقيت محدد، ولا يمكن أن يمتد لما بعد هذه السنوات، الشهور، الأيام، التي يتضاءل عددها يومياً. والحق إنه تحمل الكثير من وطأة المحن بسهولة. وكان جدير بها في السابق أن تكلفه

عذابات أقسى وأطول أمداً وأن تهزه ربما من أعماق كيانه. وحين كانت الأمور تسير معه من سيء إلى أسوأ، بسبب من الأسباب، عندما كانت الآلام والعقوبات الاستثنائية تضاف إلى جدب حياته، ووحشتها ووحشيتها، كان في وسعه أن يقول لمعذبيه: «فقط انتظروا سنتين وسأغدو سيدكم». وبهذا راح يفكر في صباح يوم عيد مولده الخمسين. وكانت تصله رسائل التهنئة، إلا أنه كان يدير ظهره لآلامه، واضعاً ثقته في موساه، ويغلق الباب وراءه. وعندئذ يصبح على داء المفاصل، والانقباض النفسي، وكافة آلام الرأس والجسد أن تبحث لها عن ضحية أخرى.

يبقى أن نوضح أن حالة ذئب السهوب هي ظاهرة منعزلة، وذلك في علاقته مع العالم البورجوازي، حتى يصبح من الممكن أن نتقصى أعراض حالته حتى منبعها. فلنبدأ من نقطة علاقته الشخصية بالطبقة البورجوازية، ما دامت هي التي تقدم نفسها.

إذا أخذنا وجهة نظر ذئب السهوب من الموضوع، نجد أنه كان يقف بمنأى عن عالم الأعراف التقليدية، بما إنه لم يكن يعيش حياة عائلية ولا يضمر طموحات اجتماعية. كان يشعر أن عليه أن يبقى عازباً ووحيداً، سواءً أبوصفِهِ شخصاً غريب الأطوار أم ناسكاً غارقاً في كآبة مرضية، أم كمن أبعدته عن الناس العاديين مواهبه المتميزة المتسمة بشيء من العبقرية. وكان ينظر باستخفاف متعمد إلى الإنسان العادي ويشعر بالفخر لأنه ليس عادياً مثله. غير أن حياته كانت عادية بكل معنى الكلمة من نواح عديدة. فقد كان يودع مبلغاً من المال في المصرف ويساعد أقرباءه الفقراء، ويظهر بمظهر محترم بدون أن يلفت الانتباه، ولكن بطريقة تنم عن إهمال. وكان سعيداً بعلاقته الطيبة مع رجال الشرطة وجباة الضرائب وما شابههم من أصحاب النفوذ. إضافة إلى ذلك كان العالم البورجوازي الصغير يجذبه سراً وباستمرار؛ تجذبه تلك

المنازل المحترمة التي تشملها السكينة ذات الحدائق الأنيقة، وبيوت السلالم التامة المزايا وما يسودها من جو متواضع من النظام والراحة. وكان يسره أن ينأى بنفسه عنه، بعيوبه الصغيرة وتصرفاته المتطرفة، كإنسان غريب الأطوار أو عبقري، لكنه لم يتخذ له قط مقاماً دائماً في تلك المساكن حيث لم يعد للطبقة البورجوازية وجود. ولم يكن يرتاح للأشخاص العنيفين أو الاستثنائيين أو المجرمين أو الخارجين على القانون، وكان دائماً يتخذ له مسكناً بين الطبقات الوسطى، التي كان على تواصل دائم مع عاداتها ومعاييرها وجوها العام، وإن كانت صلة تعارُض وتمرُّد. وزيادة على ذلك، كان قد نشأ في بيت إقليمي وتقليدي ولم يفارقه الكثير من مفاهيمه وأغلب مُثُله. ونظرياً لم يكن لديه أي اعتراض على البغاء، أما عملياً فكان من المستحيل أن ينظر إلى عاهرة نظرة الند للند. كان في مقدوره أن يحب المجرم السياسي، أو الثوري أو المحرض الفكري، أو طريد القانون والمجتمع، كأخ له، أما السرقة، والسطو، أما القتل والاغتصاب، فما كان ليعرف كيف يشجبها إلا بأسلوب بورجوازي محض.

بهذه الطريقة كان دائماً يسلّم ويقر، فكراً وعملاً، بنصفٍ منه، وبالنصف الآخر كان يرفض ويستنكر. ولما كان قد نشأ في بيت راق وبالأسلوب المستحب، فلم يعمد قط إلى أن يفصل جزءاً من روحه عن أعرافها حتى بعد أن انفرد بنفسه إلى حد ما بوقت طويل، ونأى بعيداً عن مداها وتحرر من جوهر مُثُلها العليا ومعتقداتها.

إن ما ندعوه بـ "البورجوازي"، بوصفه عنصراً موجوداً دائماً في الحياة الإنسانية، ما هو إلا البحث عن توازن ما. إنه اللهاث خلف واسطة بين أعداد لا تحصى من التصرفات المتطرفة والمتناقضة التي تبرز في السلوك الإنساني. وإذا تناولنا أي زوج من هذه المتناقضات، كالتقوى والتهتك، لفهمنا القياس على الفور. ومن المباح لأي إنسان أن يستسلم

بكلّيته للآراء الروحية، للسعي بحثاً عن الله، لتبني الورع كمثل أعلى. ومن ناحية أخرى أيضاً أن يهب نفسه بكاملها لحياة الغرائز، لشهوات الجسد، فيوجه كل جهوده لبلوغ المتع العابرة. إن إحدى الطريقين تؤدي إلى القديس، إلى شهادة الروح والاستسلام لله، والطريق الأخرى تؤدي إلى المتهتك، إلى شهادة الجسد، والاستسلام للفساد. والبورجوازي يسعى إلى أن يسير بين الاثنين، في وسط الطريق. إنه يرفض تماماً أن يستسلم للشبق أو للزهد، ويرفض أن يكون شهيداً أو أن يوافق على دماره. بل على العكس، إن مثله الأعلى هو أن لا يستسلم وإنما أن يحقق ذاته. إنه لا يكافح لبلوغ القدسي ولا نقيضه، ويمقت المطلق. ربما هو مستعد لأن يخدم الله، ولكن ليس بالتخلي عن الترف. وهو مستعد لأن يكون فاضلاً، لكنه يحب أن تكون حياته في هذا العالم رخية ومريحة. باختصار، إن هدفه هو أن يتخذ له مسكناً بين طرفي نقيض في منطقة معتدلة لا تضربها عواصف عاتية أو أعاصير، وهو ينجح في تحقيق ذلك، وإن كان على حساب كثافة الحياة والشعور التي تمنحها الحياة المتطرفة. فالإنسان لا يستطيع أن يعيش حياة غنية إلا على حساب نفسه. ولا شيء يفوق في قيمته عند الإنسان البورجوازي أكثر من نفسه (مهما كانت بدائية). وهكذا يحافظ على حياته ويحقق أمانه على حساب كثافة الحياة. ويحصد لقاء ذلك هدوء البال الذي يفضّله على أن يمسّه الله، كما يفضل الراحة على السرور، والظرف الملائم على الحرية، ودرجة الحرارة المريحة على تلك النار الداخلية المهلكة المميتة. والبورجوازي، على هذا، وبطبيعته، مخلوق، ذو دوافع ضعيفة، وهو قلق، يملؤه الخوف من إفشاء ما في سريرته ومن السهل السيطرة عليه. لذا، استبدل الأغلبية العددية بالسلطة، والقانون بالقوة، والانتخاب بالاقتراع بتحمّل المسؤولية.

من الواضح أن هذا المخلوق الضعيف القلق، مهما بلغ عدد التجمعات التي يعيش فيها، لا يستطيع أن يعيل نفسه. والخصال التي يتصف بها لا تلعب في العالم إلا دور قطيع من الغنم بين ذئاب حرة هائمة. غير أننا نرى أن البورجوازي، حتى في الأوقات التي يكون لذوي الطبائع المسيطرة اليد الطولى، ينهار على الفور، لكنه لا يتحطم أبداً، بل إنه حتى في بعض الأحيان يبدو كأنه يسيطر على العالم. أممكن هذا؟ فلا أعداد القطيع الغفيرة، ولا الفضيلة، ولا الحس السليم، ولا النظام يفيد في إنقاذ العالم من الدمار. لا يوجد في العالم كله دواء قادر على إبقاء خفق النبض الشديد الضعف في الأصل. ومع ذلك، فالطبقة البورجوازية تزدهر. لماذا؟.

الجواب هو ما يلي: بفضل ذئاب السهوب. بل إن قوة الطبقة البورجوازية الحيوية لا تكمن، في الحقيقة، في خواص أفرادها الطبيعيين، وإنما في خواص أشد أفرادها تطرفاً في "انعزالهم". الذين تستطيع أن تستوعبهم بفضل شمولية مثلها العليا ومرونتها. وثمة دائماً عدد كبير من أصحاب الطبائع القوية والجامحة الذين يشاركون في حياة القطيع. وصاحبنا ذئب السهوب، مثال متميز على ذلك. والشخص الذي تجاوز بتطوره المستوى المعقول للإنسان البورجوازي، الذي لا تقل معرفته لنعمة التأمل عن المتع القاتمة للكراهية ولكراهية الذات، ومن يمقت القانون، والفضيلة، والحس السليم، يظل مع ذلك أسير الطبقة البورجوازية ولا يقوى على الإفلات من سحرها. وهكذا نرى أنه تتخلل كامل الطبقة البورجوازية الحقيقية طبقات دخيلة عديدة من الإنسانية، آلاف مؤلفة من الحيوات والعقول، وصحيح أن كل منها كان جديراً أن يفوقها حجماً وأن يلبي نداء الحياة المنطلقة، لو لم تكن موثقة إليها بمشاعر مرحلة طفولتها العاطفية وملوثة في معظمها بحياتها الأقل غنى،

وهكذا تظل في مكانها، صاغرة ومقيدة بأداء الالتزامات والخدمات. إذ حين يتعلق الأمر بالطبقة البورجوازية فإن عكس الصيغة يكون في الغالب صحيحاً، إن من ليس ضدي هو في صفي.

لنختبر الآن روح ذئب السهوب. سوف نجد أنه يختلف عن البورجوازي في أعلى مراحل تطور فرديته ـ لأن كل امتدادات الفردية تدور حول الذات وتعمل على تدميرها. ونرى أنه ينطوي على اندفاع قوي نحو القديس والمتهتك معاً، لكنه يعجز، نظراً إلى اتصافه بقدر من الضعف أو القصور الذاتي، عن الغوص في عوالم الفضاء الحرة، المترامية. وتقيّده المجموعة البورجوازية التي تربطه بها صلة الغرابة بسحرها. هذا هو مكانه في الكون وهذه هي عبوديته. ومعظم المفكرين والفنانين ينتمون إلى النمط نفسه. والأقوى بينهم فقط يشقون سبيلهم في فضاء العالم البورجوازي ويصلون إلى الكون اللامتناهي. أما الباقون فيتكيفون كلهم، أو يقبلون بتسويات مذلّة. ويزيدون من قوتهم ومجدهم بنفورهم من الطبقة البورجوازية، على الرغم من انتمائهم إليها، إذ إنهم يضطرون في نهاية المطاف إلى التشديد على معتقداتهم لكي يعيشوا. وحياة هؤلاء الأشخاص بأعدادهم التي لا تحصى لا تدّعي المأساوية، لكنهم يعيشون تحت نجم شرير وسط جو من الأسى العارم، بل إن مواهبهم في هذا الجحيم تنضج وتثمر. والقلائل الذين يتحررون ينشدون مكافأتهم في اللامشروط ويسقطون بفخامة. إنهم يضعون تاج الشوك على رؤوسهم وعددهم قليل. إلا أن الآخرين الذين يبقون داخل الحظيرة ويجني الطبقة البورجوازية من مواهبهم الربح الكثير، فإن مملكة ثالثة تبقى مفتوحة أمامهم، عالم من صنع الخيال لكنه رائع، هو عالم الفكاهة. والذئاب المستوحدة التي لا تعرف السكينة، ضحايا ألم متواصل هؤلاء الذين أنكر عليهم اندفاعهم نحو المأساة، والعاجزون عن الانطلاق في الفضاء

المترامي، الذين يشعرون أن نداءً يستدعيهم إلى هناك، ومع ذلك لا يستطيعون أن يبقوا على قيد الحياة في جوه ـ لهؤلاء، الذين جعل الألم الجاهز أرواحهم صلبة ومرنة بشكل كاف، خُصص أسلوب للمصالحة ومهرب إلى الفكاهة. ولطالما انطوت الفكاهة على جانب بورجوازي، على الرغم من أن البورجوازي الأصيل عاجز عن فهمها. ففي عالمها الخيالي يتحقق المثل الأعلى المعقد والمتعدد الوجوه لكل ذئاب السهوب. هنا يصبح ممكناًليس فقط إطراء القديس والمتهتك في نَفَسٍ واحد، وجَعْلُ طرفي النقيض يتلاقيان، بل أيضاً، شَمْلُ البورجوازي بالقبول نفسه. والآن يصبح ممكناً مسّ ا لله، وقبول الاثم، والعكس بالعكس، ولكن من غير الممكن للقديس أو للآثم (ولا لأي من غير المقيّدين) أن يؤكدا أيضاً على أن الإنسان الذي تعوزه الحماسة يعني البورجوازي. والفكاهة وحدها، ذاك الاكتشاف الرائع الذي تم على أيدي أولئك الذين قوطعت دعوتهم إلى القيام بأجرأ المحاولات، الذين على الرغم من قصورهم في بلوغهم المأساة، إلا أنهم مازالوا أغنياء في المواهب كما في الأسى، أقول إن الفكاهة وحدها (ولعلها إنجاز الروح الإنسانية الأكثر فطريّة وألمعيّة) تبلغ المستحيل وتسلط أشعتها الموشورية على كل جانب من جوانب الوجود الإنساني. والعيش في العالم وكأنه ليس العالم، واحترام القانون وأيضاً تجاوزه، وامتلاك الأشياء، وكأن المرء "لا يملك أي شيء"، والإنكار وكأنه ليس إنكاراً،كل هذه الافتراضات الأثيرة، والمستنبطة غالباً، ليس في مقدرة إلا الفكاهة وحدها أن تجعلها فعالة.

إذا فرضنا أن ذئب السهوب قد نجح، وهو الذي يتمتع بفيض من المواهب والوسائل، في استخلاص هذه الجرعة السحرية في جو متاهات جحيمه الحار الرطب، لتأكّدَ خلاصه. ولكن هناك نقص هائل. إذ ليس هناك إلا الاحتمال، الأمل. وكل من يحبه ويقف في صفه قد يتمنى له

الخلاص. وصحيح أن هذا سوف يقيده إلى الأبد إلى العالم البورجوازي، غير أن معاناته ستكون محمولة ومثمرة. وستفقد صلته بالعالم البورجوازي صفتها العاطفية في حبها وفي كراهيتها معاً وستكف عبوديته له عن تسبيب عذاب الإحساس بالعار المتواصل له.

لكي يحقق ذئب السهوب كل هذا، أو ليغدو قادراً ربما على أن يقفز أخيراً إلى المجهول، عليه أن يلقي نظرة أخيرة على نفسه. عليه أن يغوص بنظره عميقاً إلى عماء روحه وأن يسبر أعماقها. وعندئذ سوف يتكشف لغز وجوده له على الفور بكل ثباته، وسيكون من المستحيل عليه أن يظل هارباً، أولاً من جحيم الجسد إلى نعيم فلسفة عاطفية، ومن ثم أن يعود إلى القصف الأعمى لطبيعته الذئبية. وعندئذ سوف يضطر الإنسان والذئب إلى التعرف كل منهما على الآخر بدون قناعيّ المشاعر الزائفة وإلى المواجهة المباشرة. عندئذ إما أن ينفجر الوضع بينهما ويفترقان إلى الأبد، ويختفي ذئب السهوب إلى الأبد، أو أن يتوصلا إلى تفاهم على ضوء فجر الفكاهة.

من الممكن أن يجد هاري نفسه ذات يوم سائراً باتجاه هذا الخيار الأخير. ومن الممكن أن يتعلم ذات يوم كيف يعرف نفسه. وقد يتمكن من حمل إحدى مرايانا الصغيرة. وقد يقابل الخالدين. وقد يعثر في أحد مسارحنا السحرية على الشيء اللازم بالضبط لتحرير روحه المهملة. إن ألفاً من مثل هذه الاحتمالات في انتظاره، وقدره هو الذي يحققها، ولا يترك له خياراً في ذلك، لأن أولئك الموجودين خارج الطبقة البورجوازية يعيشون في جو هذه الاحتمالات السحرية. وقبل أن يقع ما يستحق الذكر ـ يومض البرق.

إن كل هذا يعرفه ذئب السهوب حق المعرفة، على الرغم من أن عيناه قد لا تقعان على هذه الفقرة في سيرته الداخلية. إنه يرتاب في

مكانه المقدَّر له في العالم، ويرتاب من الخالدين، ويرتاب في أنه قد يقابل نفسه وجهاً لوجه، ثم إنه يعي وجود تلك المرآة التي هو في أمسّ الحاجة إلى أن ينظر فيها والتي ينكص منكمشاً بعيداً عنها وقد تملكه خوف مريع.



ختاماً لدراستنا بقي هناك وهم آخر وأخير، أو ضلال أساسي يجب إيضاحه. إن كل لجوء إلى التفسير، وعلم النفس، وكل المحاولات لجعل الأمور مفهومة، إنما يتطلب وسطاً من النظريات، والأساطير والأكاذيب، وعلى الكاتب الذي يحترم نفسه أن لا يفعل، عند نهاية عرض ما، أن يبدد هذه الأكاذيب بكل ما لديه من طاقة. فإذا قلت "فوق" أو "تحت"، فهذا تقرير يتطلب تفسيراً، بما إن الفوق والتحت موجودان فقط في الفكر، فقط في المجردات. والعالم نفسه لا يعرف أي شيء عن فوق وتحت.

عندما نصل إلى النقطة محور البحث نجد أن ذئب السهوب أيضاً هو وهم. فعندما يشعر هاري أنه مستذئب، ويفضل أن يكون مؤلَّفاً من كائنين عدائيين ومتناقضين، فهو فقط يستفيد من تبسيط ميثولوجي. إنه ليس مستذئباً على الإطلاق، فإذا بدا أننا نقبل بلا تدقيق هذه الكذبة التي لفقها لنفسه وصدقها وحاول أن يعتبره حرفياً كائناً مزدوجاً وذئب سهوب، وهو بتسميته هكذا إنما فقط أملاً في أن يُفهم بسهولة أكبر بمساعدة وهم ما، والذي ينبغي علينا الآن أن نحاول أن نظهره على صورته الحقيقية.

إن هذا التقسيم إلى ذئب وإنسان، وجسد وروح، والذي يحاول هاري من خلاله أن يفهم قدره بسهولة أكبر ما هو إلا تبسيط هائل للأمر. إنه إجبار الحقيقة لتتناسب وتفسير مقبول، ولكنه مغلوط، لذاك التناقض الذي اكتشفه هذا الرجل في نفسه والذي يبدو له أنه أصل

معاناته التي لا يمكن بأي حال تجاهلها. إن هاري يرى في نفسه "كائناً بشرياً"، بمعنى، عالماً من الأفكار والمشاعر، من الثقافة والطبيعة المروّضة أو المتسامية، وقد عثر أيضاً إلى جانب هذا في داخله على "ذئب"، أي، على عالم مظلم من الغريزة، من الهمجية والوحشية، على طبيعة سافلة وفجة وعلى الرغم من هذا التقسيم الواضح ظاهرياً لكينونته إلى عالمين، يعادي أحدهما الآخر، إلا أنه كان يمر بين حين وآخر بلحظات سعادة، عندما يتصالح الإنسان والذئب فترة وجيزة. فعندما كان هاري يحاول أن يتحقق في أي لحظة من حياته ومن أي عمل يقوم به، من الدور الذي يلعبه الإنسان فيه والدور الذي يقوم به الذئب، إذا به يجد نفسه على الفور في مأزق، وتتهشم كامل نظريته الجميلة عن الذئب شذراً. إذ ليس هناك كائن بشري واحد، أو حتى زنجي بدائي، أو حتى أبله، يتصف بالبساطة الكافية بحيث يمكن تفسير كيانه وكأنه مقدار من عنصرين أساسيين أو ثلاثة، وإن تفسير إنسان على قدر كبير من التعقيد مثل هاري بمجرد تقسيمه بسذاجة إلى ذئب وإنسان لمحاولة حمقاء إلى أبعد حد. إن هاري يتألف من مئة أو ألف ذات، وليس فقط اثنتين. وحياته تتأرجح، كحياة أي إنسان، ليس فقط بين قطبين، كالجسد والروح، والقديس والآثم، بل بين آلاف الأقطاب، أقطاب لا حصر لها.

ينبغي ألا نفاجأ إذ نرى إنساناً بذكاء وثقافة هاري، يعتبر نفسه ذئب سهوب ويحجّم نظام حياته الغني والمعقد إلى صيغة غاية في البساطة، والبدائية، والسذاجة. إن الإنسان عاجز عن الارتقاء بالفكر عالياً، وحتى أشد الرجال روحانية وعلواً في الثقافة، يرى عادة العالم ونفسه من خلال صيغ مضللة وتبسيطات خرقاء ـ وخاصة نفسه. إذ يبدو أن كل إنسان بحاجة ملحة وفطرية إلى اعتبار نفسه وحدة واحدة. ومهما تكرر تهشيم هذا الوهم وكان ذلك موجعاً، فإنه دائماً يعود فيلتئم. والقاضي الذي

يطل من فوق مجلسه على القاتل ويحدّق إلى وجهه، ويتعرَّف برهة من الزمن على كل مشاعر وإمكانات واحتمالات القاتل داخل روحه هو ويسمع صوت القاتل وكأنه صوته هو يعود في اللحظة التالية واحداً لا يتجزأ بوصفه قاضياً، ويهرع متراجعاً إلى قوقعة ذاته المثقفة ويؤدي واجبه ويحكم على القاتل بالموت. فإذا ما انتاب الشك ذوي القدرات الخارقة، والتصورات المرهفة بشكل خارق في كيانهم المتعدد الجوانب، بحيث أنهم، وكما يحدث مع كل العباقرة، يخترقون وهم وحدة الشخصية ويدركون أن الذات مؤلفة من حزمة من الذوات، ويكفي أن يقولوا هذا حتى تعمد الأغلبية وعلى الفور إلى حبسهم بالقفل والمفتاح، وتطلب مساعدة العلم، وتثبِّت وجود انفصام في الشخصية، وتحمي الإنسانية من ضرورة سماع صرخة الحقيقة المنبعثة من بين شفاه هؤلاء التعساء. فلماذا إذن نهدر الكلمات، لماذا ننطق بشيء يقبله كل إنسان مفكر على أنه بديهي، في حين أن مجرد نطقه يكسر الذوق العادي؟ لذا، فإن كل إنسان يتوصل إلى حد جعل وحدة الذات المفترضة ثنائية الجانب هو عبقري حتماً، أو على الأقل شخص استثنائي إلى أقصى حد ومثير للاهتمام. ولكن على أرض الواقع كل ذات، من ناحية كونها وحدة واحدة، هي عالم متعدد الجوانب على أعلى مستوى، وسماء مرصعة بالنجوم، وعماء من الأشكال، والحالات والمراحل، والمواريث والاحتمالات. ويبدو من الضروري ضرورة ملحة كالأكل والتنفس بالنسبة إلى أي إنسان أن يُجبَر على أن يعتبر هذا العماء وحدة واحدة، وأن يتحدث عن ذاته بوصفها أحادية الجانب وظاهرة منفصلة بجلاء وثابتة. حتى أفضلنا يشترك في تبني هذا الوهم.

الوهم يقوم ببساطة على أساس تشابه زائف. فكل إنسان منفرد جسدياً، أما في الروح فأبداً لم يكن كذلك. وفي الأدب أيضاً حتى في

اشد إنجازاته غنى، نعثر على هذا الهم المألوف عند الشخصيات الروائية مجتمعة ومنفردة. ومن بين كل فروع الإبداع الأدبي الذي أُنتج حتى يومنا هذا ظلت الدراما هي الشكل الأعلى تقديراً من الكتّاب والنقاد، وهم على حق، بما أنها تقدِّم (أو قد تقدم) الاحتمالات الأعظم لإظهار الذات كهوية متعددة الجوانب، ولكن فقط أمام الوهم البصري، الذي يجعلنا نصدق أن شخصيات المسرحية هي هويات أحادية الجانب بإيداع كل منها في جسد رائع، منفرد، منفصل وبشكل نهائي. وعندئذ يكنّ النقد الجمالي الأخرق أعلى تقدير لما يسمى بالشخصية الدرامية التي تظهر فيها كل شخصية كهوية منفصلة ومنفردة بوضوح تام. ثم يبدأ الشك بالظهور من بعيد وشيئاً فشيئاً، هنا وهناك، في أن كل هذا ربما كان مجرد فلسفة جمالية سطحية ورخيصة، وإننا نرتكب خطأً إذ ننسب إلى كتابنا المسرحيين تلك المفاهيم الرفيعة في الجمال والتي تصلنا من عهد غابر. وهذه المفاهيم ليست متأصلة فينا، وإنما فقط انتقيناها عن طريق غير مباشرة، ونعثر فيها، بما تشترك فيه من جسد مرئي، على أصل وهم ذاتٍ ما، فردٍ ما. ولا نجد أثراً لمثل هذه الفكرة في قصائد الهند القديمة. فأبطال ملاحم الهند ليسوا أفراداً، بل مجموعات هائلة من الشخصيات الفردية تتخذ سلسلة من التجسدات. وفي العصور الحديثة هناك إبداعات شعرية، الدافع الكامن فيها خلف غلالة من الاهتمام بسمات فردية وشخصية لم تخطر على بال المؤلف، هذا الدافع هو أن يقدم نشاطاً متعدد الجوانب للروح. وكل من يرغب في أن يلاحظ هذا يجب أن يقرر قراراً نهائياً أن لا يعتبر الشخصيات في ذلك الإبداع كيانات منفصلة، وإنما واجهات مختلفة وأوجهاً لوحدة أرقى، في اعتقادي، لروح الشاعر. وإذا عوملت مسرحية "فاوست" بهذه الطريقة، فإن شخصيات فاوست، ومفيستوفيليس، وفاغنر، والباقين يشكلون وحدة واحدة وفردية أسمى،

وفي هذه الوحدة الراقية وحدها، وليس في الشخصيات المتعددة، يتكشف شيء من الطبيعة الحقة للروح. وفي بيت من الشعر خلّده أساتذة المدارس وهلل له المحافظون مع رعشة دهشة، عندما يقول فاوست: «روحان، واحسرتاه، تسكنان صدري!» فهو قد نسي ذكر مفيستو وكامل حشد الأرواح الأخرى التي كان يضمها أيضاً بين أضلعه. وذئب السهوب بدوره يؤمن بأنه يحمل روحين (ذئب وإنسان) بين أضلعه ومع ذلك فهو يشعر أن صدره يضيق بهم. والحق أن الصدر والجسد شيء واحد، أما الأرواح التي تسكنه فليست فقط اثنتين، ولا خمساً، وإنما لا حصر لها ولا عدّ. إن الإنسان بصلة مكونة من مئة غلاف، نسيج مؤلف من خيوط عديدة. والآسيويون القدامى يعرفون هذا حق المعرفة، وفي اليوغا البوذية ابتكرت تقنية دقيقة لفضح وهم الهوية الشخصية. إن الدوامة الإنسانية تشهد تغيرات كثيرة: الوهم الذي كلّف الهند جهود آلاف السنين لفضحه هو نفسه الوهم الذي جاهد الغرب بعزم مساوٍ للمحافظة عليه وتعزيزه.

إذا تأملنا ذئب السهوب من موقع النظر هذا فسيتضح سبب معاناته الفادحة تحت وطأة هذه الهوية الشخصية المزدوجة والمثيرة للسخرية. إنه يؤمن، مثل فاوست، بأن روحين هما أكثر مما يطيق صدر على احتوائه بكثير ويجب تمزيق الصدر شذراً. وفي الحقيقة إنهما على العكس أقل بكثير مما ينبغي، وهاري إنما يعرّض روحه المسكينة لصدمة عنيفة، عندما يحاول أن يفهمها بواسطة صورة غاية في البدائية. وعلى الرغم من كونه إنساناً على درجة عالية من الثقافة، إلا أنه يتقدّم كهمجي يعجز عن العد لأكثر من إثنين. إنه يسمّي نفسه نصف ذئب ونصف إنسان، وهو بهذا يعتقد أنه قد وصل إلى نهاية المطاف واستنفذ المسألة، إنه يحشد في "الإنسان" كل ما هو روحي وسامٍ أو حتى مهذب فيه، وفي الذئب كل ما هو غريزي، وهمجي،

وعمائي. غير أن الأمور في الحياة ليست بهذه البساطة كما تبدو في أفكارنا، ولا صالحة لتمشية الحال كما تظهر في لغتنا السقيمة الحمقاء، وهاري يكذب مرتين على التوالي بشأن نفسه عندما يستخدم نظرية الذئب الهزيلة هذه. ونخشى أنه ينسب كامل عالم روحه إلى "الإنسان" الذي هو أبعد من أن يكون عالماً إنسانياً، وينسب أجزاءً من كيانه إلى الذئب الذي خلّف وراءه عالم الذئاب قبل زمن بعيد.

إن هاري يؤمن ككل البشر بأنه يعلم علم اليقين ما هو الإنسان. لكنه لا يعرف أي شيء، وإن كان في الأحلام وفي حالات أخرى لا يمكن التحكم فيها غالباً ما تنتابه شكوك. ليت كان في وسعه أن يتذكرها، ويحتفظ بها، على الأقل أطول مدة ممكنة، لنفسه. إن الإنسان ليس بأي حال من الأحوال شكلاً ثابتاً ودائماً. (كان هو المثل الأعلى للأقدمين، على الرغم من الشكوك المناقضة التي أبداها الحكماء). إنه أقرب إلى كونه تجربة ومرحلة انتقالية، وليس أكثر من جسر ضيق وخطر يمتد ما بين الفطرة والروح. وقدره الأوغل يقوده إلى الروح وإلى الله. وتوقه الأعمق يعود به إلى الفطرة، إلى الأم. وتبقى حياته معلقة مرتعشة ومترددة بين قوتين. والمقصود عموماً بكلمة "إنسان" ليس أكثر من اتفاق عابر، من تسوية بورجوازية. وبعض الغرائز الأكثر عرياً قد أبعدت وعوقبت بسبب هذا الميثاق، واستُخلص قدر من الوعي الإنساني والثقافة من الحيوان، وليس فقط أُجيز قدرٌ ضئيلٌ من الروح بل واستُحث أيضاً. والإنسان في هذا الميثاق، كما في كل مثلٍ أعلى بورجوازي آخر، هو تسوية، تجربة رعديدة وماكرة بشكل أخرق، تهدف إلى خداع الطبيعة الأم الأولى الغاضبة والروح الأب المشاغب معاً لمطالبهما الملحاحة، وللعيش في المنطقة المعتدلة الواقعة بينهما، ولهذا السبب يتسامح الإنسان العادي مع ما يسميه بـ "الشخصية"، لكنه، في الوقت نفسه، يتنازل عن

الشخصية إلى "دولة" مولوخ[1] ويصبحان في حالة مواجهة مستمرة. ولهذا السبب نرى البورجوازي اليوم يحرق الذين أقام لهم بالأمس نصباً تذكارية كالمهرطقين ويشنقهم كالمجرمين.

إن الإنسان خلقٌ لم يكتمل بعد بل هو بالأحرى تحدي الروح، احتمالٌ بعيدُ المنال يخشى جانبه بقدر ما هو مرغوب، وذئب السهوب يخامره شعور أيضاً بأن الطريق إليه فرشت فقط مسافة قصيرة قصيرة جداً منها بالأحزان الرهيبة والنشوات حتى على يد تلك القلّة التي تُنصب المشانق لها اليوم وستُقام لها النصب التذكارية غداً. إلا أن ما يسميه جانب "الإنسان" فيه، كنقيض للذئب، ليس في الغالب إلا هذا الإنسان العادي نفسه الذي يتبنى عُرف البورجوازي.

أما السبيل إلى الرجولة الحقة، السبيل المؤدي إلى الخلود، فصحيح أن لديه فكرة غامضة عنه وهو يخطو فيه بين حين وآخر بضع خطوات مترددة ويدفع ثمنها الكثير من الآلام والعديد من غصّات الوحشة. وأما عن المجاهدة مع ثقة في النفس، تلبيةً لحاجة سامية، باتجاه رجولة الروح الحقّة، وطرق الدرب الضيقة الوحيدة المؤدية إلى الخلود، فهو ما يخافه خوفاً عميقاً. إنه يعلم عِلْمَ اليقين أنها تفضي إلى معاناة أفدح بكثير، إلى الإبعاد، إلى الزهد الأقصى، وربما إلى المشنقة، ومع كل ذلك يظل إغواء الخلود موجوداً عند نهاية الرحلة، ويظل غير راغب في تكبد تلك المعاناة وفي أن يموت كل تلك الميتات. وعلى الرغم من أن نهاية الرجولة معروفة لديه أكثر مما لدى البورجوازي، إلا أنه مع ذلك يتغاضى عنها. إنه مصمم على أن ينسى التشبث اليائس بالذات والتشبث اليائس بالحياة هما أضمن سبيلين إلى الموت الأبدي، في حين أن القدرة على الموت، على تعرية المرء

[1] مولوخ: إله قديم. كان يضحّى بالأطفال لأجله. والإشارة هنا إلى الدولة المستبدة. ـ المترجم.

لذاته، واستسلام الذات الأبدي تجلب معها الخلود. وعندما يتعبَّد المفضَّلين لديه من الخالدين، فإنه ينظر ربما دائماً إلى موتسارت وعلى المدى الطويل بعين البورجوازي وهو يميل إلى أن يفسر كيان موتسارت المنجز، على طريقة أستاذ المدرسة بوصفه هبة سامية وليس كنتيجة لقدراته الهائلة على الاستسلام والمعاناة. وعلى لامبالاته بالمثل العليا للبورجوازي، وعلى صبره تحت ضغط أعلى درجات الوحشة التي تخلخل جو العالم البورجوازي حتى يغدو أثيراً مصقعاً، وتحيط بالذين يعانون لكي يصبحوا أناساً، الوحشة التي سادت حديقة الجثسيماني.

صاحبنا ذئب السهوب هذا طالما كان واعياً على الأقل للطبيعة الفاوستية المزدوجة داخله. وقد اكتشف أن الجسد أحادي الجانب لا تسكنه روح أحادية الجانب، وأنه في أفضل الأحوال موجود في بداية رحلة حج طويلة وجهتها هذا التناغم المثالي. وهو يفضل إما أن يقهر الذئب ويصبح كله إنساناً أو أن يتخلى عن البشر ويعيش في نهاية المطاف حياة ذئب كاملة. وقد يقول قائل إنه لم يشاهد قط عن قرب ذئباً حقيقياً. ولو أنه قد فعل فلربما أدرك أنه حتى الحيوانات لا تخلو روحها من انفصام، حتى معها يُخفي جمال الجسد المتناسق كياناً يتسم بتعدد الأحوال والصراعات. إن للذئب أيضاً لُججه. والذئب أيضاً يعاني. كلا، إن طريق العودة إلى الطبيعة هو مسار زائف لا يؤدي إلا إلى الآلام واليأس. ولا يمكن لهاري أن يعود من جديد ليغدو ذئباً كله، ولو كان في وسعه أن يفعل ذلك لوجد أنه حتى الذئب لا يتصف ببساطة بدائية، وإنما هو في الأصل مخلوق يتسم بتعقيد متعدد الجوانب. حتى الذئب يضم بين أضلعه نفسين، بل أكثر من نفسين، ومن يرغب في أن يكون ذئباً يغرق في النسيان نفسه الذي يغرق فيه الرجل الذي يرتّل: «ليتني أعود طفلاً من جديد». ومَنْ يرتّل بنبرة عاطفية مزمور الطفولة

المباركة إنما يفكر في العودة إلى الفطـرة وإلى البراءة وإلى أصـل الأشـياء، وقـد نسـي تمامـاً أن هـؤلاء الأطفـال المبـاركين محـاصرون بـالصراع وبالتعقيدات وقادرون على المعاناة بكافة أصنافها.

الحقيقة هي أنه لا وجود لخط عودة سـواء إلى الذئـب أم إلى الطفـل. إن البراءة والفردية مفقودتـان منـذ البدايـة. وكـل مخلـوق، حتـى أبسـطها، مذنب مسبقاً، ومتعدد مسبقاً. لقد رُمي في السيل الموحل للوجـود وقـد لا يسبح عائداً قط إلى منبعه. إن الطريق إلى البراءة، إلى الأزلي وإلى ا لله تؤدي إلى الأمـام، وليـس إلى الـوراء، ليـس إلى العـودة إلى الذئـب أو إلى الطفـل، ولكن أعمق فأعمق داخـل الإثـم، أعمـق فـأعمق داخـل الحيـاة الإنسـانية. وذئب سهوب ذو ميول انتحارية، أو حتى تعيس، لن يفيد غرضـك حقـاً. سوف تجد نفسك سائراً على أطول الطرق وأشدها إرهاقاً ومشـقة المؤديـة إلى الحياة الإنسانية. وسـيكون عليـك أن تضـاعف مـرات عديـدة كيـانك المزدوج وأن تعقّد تعقيداتك أكثر. وبدل أن تضيّق عالمك وتبسط روحك، سوف تحتوي أخيراً العالم كله في روحك، مهما كلفك الأمر، قبل أن تمـلّ وتركن إلى الراحة. هذه هي الطريق التي طرقهـا بـوذا، وكـل رجـل عظيـم رحل، عن وعي أوبلا وعي، طالما أن الخط يساند سعيه. إن كل مولد يعني الابتعاد عن الكل، الانغلاق داخـل حـدود، الانفصـال عـن ا لله، عذابـات الولادة المتجددة دائماً. والعـودة إلى الكـل يعـني الارتقـاء بالشـخصية عـبر المعاناة إلى أن تبلغ ا لله، وامتداد الروح إلى أن تعود قادرة من جديد علـى احتواء الكل.

نحن لا نتعامل هنا مع الإنسان على طريقة علم الاقتصاد والإحصاء. وكما يُرى وهو يحشد الشوارع مع الملايين من أمثالـه، الـذي لا تعـد لـه قيمة تفوق قيمة رمل الشاطئ أو رذاذ أمواجه. إننا لسنا مهتمين بـالملايين قلّوا أم زادوا. إنهم أدوات، لا أكثر. كلا، إننـا نقصـد بكلامنـا الإنسـان

بالمعنى الأسمى، نهاية الطريق الطويلة المؤدية إلى الرجولة الحقة، الرجال الممتازين، الخالدين. إن العبقرية ليست نادرة كما نعتقد أحياناً، وطبعاً ليست ظاهرة متكررة كما يبدو من كتب التاريخ أو من الصحف. يجب أن نذكر أن هاري يتمتع بعبقرية كافية تتيح له أن يبحث عن الرجولة بدل أن يتحدث بشكل مثير للشفقة عن نظريته الحمقاء عن ذئب السهوب كلما قابلته صعوبة.

إنه لمن المدهش إيّما دهشة والمحزن أن يلجأ أصحاب مثل هذه الإمكانيات إلى ذئاب السهوب. وفكرة «إنهما روحان ويا للأسف!» بقدر ما يدهش أنهم غالباً ما يظهرون ذاك الحب المثير للشفقة للبورجوازية. إن من في وسعه أن يفهم بوذا ولديه حدس بنعيم وجحيم الإنسانية ينبغي أن لا يعيش في عالم يحكمه "الحس السليم" والديموقراطية ومعايير البورجوازي. إن الجبن وحده يدفعه إلى العيش فيه، فإذا أطبقت أبعاده بشدة عليه وضاق صالون البورجوازي حتى الاختناق، يرمي به على عتبة باب ذئب السهوب، ويرفض أن يفهم أن الذئب غالباً ما يكون أفضل جزء فيه. إنه يسمّي كل ما هو جامح فيه ذئباً، ويعتبره خبيثاً وخطراً وبعبع الحياة المحترمة كلها. هو لا يدرك، على الرغم من أنه يعتبر نفسه فناناً وصاحب تصورات مرهفة، أن ثمة أشياء كثيرة جداً أخرى موجودة فيه إلى جانب الذئب وقبله. إنه لا يفهم أن ليس كل ما يعض ذئب وأن الثعلب، والتنين، والنمر، والقرد، وعصفور الجنة موجودة أيضاً هناك. إلا أنه يسمح لهذا العالم برمته، لجنة عدن بكل ما فيها من جمال ورعب، من عظمة وحقارة، من قوة ورقة، أن يتراكم معاً بإهمال، وينغلق بسبب أسطورة الذئب، كما يسجن الإنسان الحقيقي داخله بسبب زيف وادّعاء بورجوازي.

تخيل بستاناً بمئة نوع من الأشجار، وألف نوع من الزهور، ومئة نوع من الفاكهة والخضراوات. ولنفرض مثلاً أن الفرق الوحيد الذي يعرفه البستاني عنها هو أنها تؤكل أو لا تؤكل، فإن تسعة أعشار ما في هذا البستان لن يكون ذا فائدة له. سوف يقتلع أشد الزهور فتنة، ويقطع أنبل الأشجار. بل إنه سينظر إليها بعين مشمئزة وحاسدة. وهذا ما يفعله ذئب السهوب بآلاف زهور روحه. فما لا يدخل في تصنيف الإنسان أو الذئب لا يراه أبداً. وحين يعيد التفكير في هذا فإنه يعزوه إلى "الإنسان"! كل ما ينم عن جبن وتصنّع، وحمق وخسة ـ بينما ينسب إلى الذئب، فقط لأنه لم ينجح في السيطرة عليه، كل ما هو قوي ونبيل.

الآن نودّع هاري ونتركه كي يمضي في طريقه وحده. ولو أنه كان أحد الخالدين ـ لو أنه كان قد وصل إلى الهدف الذي يبدو أن طريقه الشاقة توصله إليه، لنظر خلفه بذهول طاغ إلى كل تحركاته، إلى كل تلك الحيرة وآثار التردد الهائج. كم كان سيبتسم بمزيج من التشجيع واللوم، من الشفقة والفرح، على ذئب السهوب هذا.



بعد أن فرغت من القراءة تذكرت أني قبل بضعة أسابيع خَلَتْ كنت قد كتبت ذات أمسية قصيدة على شيء من الغرابة تدور أيضاً حول موضوع ذئب السهوب. فأخذت أبحث بين ركام من الأوراق موضوعة على طاولة مكتبي، وعثرت عليها، وقرأت:

يخبّ الذئب جيئة وذهاباً
والعالم يهجع تحت الثلوج،
ويطير غراب عن مجثمه على الشجرة.
ولكن لا يُرى أرنب بري أو أنثى ظبي في الأفق.
فإذا ما باغتُّ مخلوقاً عزيزاً، عذباً، كأنثى الظبي

وانقضضتُ عليها، وغرزتُ فيها أنيابي،
ماذا يبقى تحت قبة السماء؟
سوف أدّخر المخلوق الجميل،
وأولم على أفخاذها الريانة،
وسأجرع دمها الأحمر حتى الثمالة،
ثم أعوي حتى ينقضي الليل.
حتى أرنبٌ بري لن أحتقره،
لذيذ لحمه الدافئ في الليل.
هل أرفض كل ما يجعل
الحياة أكثر إشراقاً قليلاً؟
الشَعر على ذيلي علاه المشيب.
وبصري يعشى في عينيّ.
لقد ماتت وليفتي قبل سنين عديدة.
وها أنا أحبّ وأحلم بأنثى ظبي.
أحبّ وأحلم بأرنب بري.
أسمع ريح منتصف الليل تعوي.
أُبرِّدُ بالثلج فكي الملتهب،
وأحملُ إلى الشيطان روحي البائسة.

إذن أمامي الآن لوحتان شخصيتان لي، إحداها صورة شخصية مكتوبة بشعر هزيل، تثير الحزن والرثاء مثلي، والأخرى رُسمت بمسحة من الموضوعية المتغطرسة بيد شخص كان يقف خارجي ويعرف عني أكثر مما أعرف عن نفسي ولكن أيضاً أقل مني. وكلا هاتين الصورتين الشخصيتين لي قصيدتي الكئيبة والعرجاء والدراسة الحاذقة المجهولة

المؤلّف، توجعاني بقــدر متســاوٍ. كلتاهمـا علـى حـق. كلتاهمـا أعطـت الحقيقة العارية عن وجودي العقيم. كلتاهما بيّنتا بجلاء كم كـان موقفـي لا يحتمل وميئوساً منه. لقد كان الموت مقدّراً لذئب السهوب هذا. يجب أن يضع بيده حداً لوجـوده الممقـوت ـ إلا إذا ذاب في نـار معرفـةٍ ذاتيـةٍ متجددة. وطرأ عليه تغيُّر وانتقل إلى ذاتٍ جديـدةٍ وغـير قابلـة للإخفـاء. واحسرتاه! لقد كنت أعرف هذه المرحلة الانتقالية. كنت كثـيراً مـا أمـرُّ بها في السابق، ودائماً يكون ذلك في فترات اليأس الأقصى. وفي كل مرة مررت بهذه التجربة الرهيبة، التي تقتلعني من جذوري كانت ذاتي، كمـا كانت تسمي عندئذ، تتهشم شذراً. في كل مرة كانت ذاتي تزلزلها قوى راسخة عميقاً وتدمرها، في كل مرة كان يتبـع ذلـك فقـدان جـزءٍ عزيـزٍ ويحظى بحبٍ خاص من حيـاتي لم يعـد مخلصاً لي. وذات مـرة، خسـرت سمعتي وأسباب رزقي. وكان لا بد لي من أن أخسر احترام أولئك الذيـن كانوا قبل ذلك يلمسون أطراف قبعاتهم احتراماً لي. بعد ذلك، انهـارت حياتي العائليــة وتحطمـت بـين ليلـة وضحاهـا، عندمـا طردتـني زوجـتي، المختلة عقلياً، من منزلي وبيتي. وانقلب الحب والثقة على حـين فجـأة إلى كراهية وعـداء لـدود وشـاهدني الجـيران أرحـل محتَقَـراً ومثيراً للشـفقة. عندئذ بدأت عزلتي. وتوالت سنوات المشقة والمرارة. وكنت قـد أنشـأت مثلاً أعلى لحياةٍ جديدة، ألهمني به زهد العقل. وحققت من جديـد قـدْراً من صفاء الحيـاة وسمّوهـا، مستسـلماً لممارسـة الفكـر المجـرد ولنظـام مـن التأمل الصارم. ولكن هذا القالب أيضاً انكسر وفَقَد بنفخـة واحـدة كـل فحواه النبيل، الممجَّد. ودفعتني دوامة السفر من جديد إلى أرجاء الأرض، وتراكمت آلام جديـدة وإحساس جديـد بالذنب. وفي كـل مـرة كـان يتمزق فيها قناع، ويتحطم مثل أعلى، كان يسبق ذلــك هـذا الإحســاس الكريه بالفراغ والسكون، هـذا الانقبـاض الرهيـب والشـعور بالوحشـة،

وبالغربة، هذا الجحيم المقفر والخاوي منَ اللاحب واليأس، والآن هذا ما سأعانيه من جديد.

صحيح أنه في كل مرة بدا الإرهاق على وجهي بهذا الشكل أكون قد اكتسبت في آخر المطاف شيئاً، لا أنكر هذا، قدراً من الحرية. ونمواً وعمقاً في الروح، ولكن كان يرافقه زيادة في الإحساس بالوحشة، وزيادة في برودة الانفصال والاغتراب. فإذا نظرت إلى حياتي بعين بورجوازية لبدت انحداراً متواصلاً من إرهاق إلى آخر كان مع كل خطوة أخطوها يبعدني أكثر عن كل ما هو طبيعي ومباح، ومعافى. وقد جرَّدتني السنون المنصرمة من اندفاعي إلى العمل. ومن عائلتي وبيتي. ونأيت بنفسي عن كل الحلقات الاجتماعية، ووقفت وحيداً، لا يحبني أحد، ويرتاب بي الكثيرون، وأنا في حالة صراع متواصل مرير مع الرأي العام، والأخلاق العامة، وعلى الرغم من أني كنت أعيش ضمن محيط بورجوازي، إلا أني مع ذلك كنت غريباً تماماً عن هذا العالم بكل أفكاري ومشاعري. وَفَقدَ الدين، والوطن، والعائلة، والدولة كل قيمة ولم تعد تعني لي أي شيء. وأصبحت أبهة العلوم، والمجتمعات، والفنون تثير اشمئزازي. وشاخت آرائي وميولي وكل أفكاري في غياهب الإهمال، وكانت من قبل الحلى البراقة التي يتزين بها كل موهوب ومرغوب، وأصبح يُنظر إليها بارتياب. وإذا افترضنا أني خلال كل تحولاتي المؤلمة قد حققت بعض المكسب الخفي والمحيِّر، فقد كان عليّ أن أدفع مقابله ثمناً باهضاً، وكانت حياتي تغدو عند كل منعطف أكثر خشونة، وصعوبة، ووحشة، ومحفوفة بالأخطار. والحق، لم يكن لدي من الأسباب ما يجعلني أرغب في أن أستمر على هذا المنوال الذي كان يودي بي إلى مزيد من التلاشي، مثل الدخان في قصيدة نيتشه عن الخريف.

آه، نعم، لقد خبرت كل هذا التغيرات والتحولات، التي يخبئها القدر لأولاده الصعبي المراس، لأولاده الأشد حساسية. لقد عرفتهم حق

المعرفة. عرفتهم كما يعرف رياضي متحمس ولكن فاشل مواقع الإطلاق، وكما يعرف مقامر عجوز في سوق البورصة كل مرحلة من مراحل المضاربة، السبق الصحفي، السوق المتضعضعة، والانكسار ثم الإفلاس. أما كان مقدراً لي أن أعايش كل هذا من جديد؟ كل هذا العذاب، كل هذه الحاجة المُلحة، كل هذه النظرات الخاطفة إلى حقارة ذاتي وتفاهتها، والخوف المريع من أن أستسلم، والخوف من الموت. أما كان من الأفضل والأشد بساطة أن أمنع تكرار الكثير من الآلام وأن أغادر مسرح الأحداث؟ حتماً، لكان أشد بساطة وأفضل. فمهما كانت حقيقة ما قيل في الكتاب الصغير الذي يدور حول ذئب السهوب عن "الانتحاريين"، ما كان لأحد أن يحرمني متعة استحضار عون مدفأة على الغاز أو موسى أو مسدس، لأوفر بذلك على نفسي هذا التكرار لعملية كان عليّ أن أجرع كأس معاناتها المُرّة مرات كثيرة، بلا شك، وحتى آخر قطرة حنظل. كلا، يقيناً، لم تكن هناك قوة في العالم في وسعها أن تقنعني أخيراً باختبار الرعب الهائل لمواجهة أخرى مع ذاتي، لمواجهة إعادة تنظيم أخرى، تجسّد آخر، حين لن يبقى هناك في آخر الدرب سلام ولا سكينة - بل تدمير أبدي للذات من أجل تجديد الذات. قُل عن الانتحار إنه أحمق، جبان، جائر قدر ما تشاء، سمِّه هروباً مشيناً ومخزياً، ومع ذلك فإن أي هروب، حتى الأشد خزياً، من دوامة العذاب هذه كان الأمل الوحيد المنشود. لم تعد هناك خشبة مسرح للقلب النبيل والبطولي. لم يبق غير الاختيار البسيط بين غصّة قصيرة وسريعة، ومعاناة مهلكة، لا تصدَّق ولا تنتهي. وكنت قد لعبت دور دون كيخوته كثيراً خلال حياتي المجنونة، الصعبة، ووضعت الشرف قبل الراحة، والبطولة قبل العقل. ثم كانت نهاية كل ذلك!.

كان الفجر ينبلج ويتسلل عبر زجاج النافذة، فجراً ثقيلاً، جحيمياً ليوم شتائي ماطر، عندما أويت أخيراً إلى سريري لأنام. وصحبت معي قراري إلى السرير. ولكن في آخر لحظة، عندما كنت قد وصلت إلى شفا الوعي عند نقطة الاستغراق في النوم، ومضت داخلي الفقرة الرائعة من كراس ذئب السهوب، التي تعالج مسألة الخالدين. جاءت مصحوبة بالذكرى الفاتنة بأني شعرت مرات عديدة، آخرها كان في عهد قريب، باقترابي من الخالدين بحيث أتمكن من مشاركتهم بقدرٍ متساوٍ في تذوق الموسيقى القديمة بأسلوب حكمتهم الرائقة، والبراقة، والصارمة وأيضاً المبتسمة. وحلّقت هذه الذكرى، ثم سطعت، ومن ثم خمدت، وبعد ذلك هبط النوم على رأسي ثقيلاً كجبل.

استيقظت عند منتصف النهار، وفي الحال عاد إليّ الوضع، كما كنت قد تركته. ها هو الكتيب على طاولتي المجاورة للسرير، وقصيدتي وقراري، أيضاً، كان حاضراً. فبعد نوم الليل اتخذ شكلاً وأخذ ينظر إليّ من فوضى حياتي القريبة العهد ملقياً علي تحية هادئة ودوداً. العجلة لا تعني السرعة. وقرار موتي لم يكن نزوة وليدة ساعة، بل كان ثمرة ناضجة، متينة نمت ببطء حتى اكتمل حجمها، هدهدتها رياح القدر بخفة وكانت تكفي هبة واحدة لكي تسقطها إلى الأرض.

كان لديّ في صندوق أدويتي مادة ممتازة لتسكين الألم ـ صبغة قوية بشكل خارق من مادة اللودنوم. وكنت نادراً ما أتساهل في اللجوء إليها، وغالباً ما أمتنع عن استخدامها فترة طويلة من الزمن. ولم أكن ألجأ إلى العقار إلا عندما يتجاوز الألم الجسدي حد الاحتمال. ولسوء الحظ لم يكن ذا فائدة من أجل وضع حد لحياتي. وكنت قد برهنت على هذا من قبل ذلك ببضع سنين. فذات مرة عندما كاد اليأس قد بلغ عندي مبلغه ابتلعت جرعة كبيرة منه ـ كافية لقتل ستة رجال، ومع ذلك لم

تقتلني. صحيح إني استغرقت في النوم، وانطرحت ساعات عدة وأنا مخدَّر تماماً، إلا أني لسوء حظي المريع استيقظت بعد ذاك نصف يقظة بفعل تشنجات معدية عنيفة، وتقيأت السم كله، ثم استغرقت في النوم من جديد. و لم أستيقظ وأنا صاح وفي حالة من الرصانة المفعمة إلا في منتصف اليوم التالي. وكان رأسي الفارغ ملتهباً وكنت تقريباً فاقداً للذاكرة. وخلافاً لفترة من الأرق والشعور بآلام حادة في المعدة لم يبق للسم أي أثر.

إذن لم تكن هذه الوسيلة مجدية. لكني صممت على ما يلي: في المرة التالية التي أشعر أن عليّ أن ألجأ إلى الآفيون، قد أعمد إلى استخدام مادة قوية بدل تلك الضعيفة، أي، موت مؤكد بدون أدنى شك بإطلاق رصاصة أو باستخدام موسى حلاقة. عندئذ يمكن أن أتأكد. أما عن انتظار عيد ميلادي الخمسين، كما يوصي الكتيب ببراعة ـ فقد بدا لي أنه تأخير طويل طويل. كان ما يزال هناك سنتان حتى ذلك الحين.

لم يكن يهم إن كان الباقي هو سنة أم ستة أشهر، أو حتى كان الموعد يقع في اليوم التالي، فالباب مشرَّع.

لا أستطيع أن أجزم بأن القرار قد غيّر حياتي تغييراً جذرياً. لقد جعلني أكثر لامبالاة قليلاً بأوجاعي، وأكثر حرية قليلاً في استخدام الآفيون والنبيذ، وأكثر فضولاً بقليل لمعرفة حدود التحمل، ولكن لا أكثر. وكان للتجارب الأخرى في تلك الليلة أثراً قوياً. وأعدت قراءة أطروحة ذئب السهوب مرات عديدة، وكأني أستسلم بامتنان لساحر خفي بسبب إدارته الحكيمة لقدري، تارة مؤنباً وطوراً مشمئزاً من عقمه، ولقلة ما تبديه من تفهم لمزاجي وأزمتي الحقيقيين. ولا شك في أن كل ما كتب فيها عن ذئاب السهوب والانتحاريين كان جيداً وعلى جانب كبير من الحذاقة. كان يمكن أن يكون مفيداً للنوع، للنمط، إلا

أنه كان شبكة هي من الاتساع بحيث تعجز عن أسر روحي المتفردة، وقدري الفريد والفذ.

إلا أن أكثر ما شغل أفكاري كان الهلوسة، أو الرؤيا الموجودة على جدار الكنيسة. لقد كان الاعلان المصمَّم بالأحرف المضاءة الراقصة يعد بأكثر مما ألمح إليه في الأطروحة، وأصوات ذاك العالم الغريب أثار فضولي بقوة. وأمضيت ساعات طوالاً أتفكر عميقاً فيها. وفي تلك المناسبات كان يزداد تأثري بالتحذير الذي يشير إليه ذاك النقش - «ليس للجميع!» و«للمجانين فقط!» إذن لا بد أني مجنون بلا شك، وأبعد ما يمكن عن صيغة «أي إنسان» حتى تصلني تلك الأصوات ويتحدث ذاك العالم إليّ. بحق الله، ألم أكن منذ أمد بعيد نائياً عن حياة كل إنسان وعن التفكير الاعتيادي والوجود العادي؟ ألم أخصص ومنذ أمد بعيد هامشاً فسيحاً للعزلة والجنون؟ إلا أني، مع ذلك، فهمت فحوى الاستدعاء فهماً جيداً في قرارتي. نعم، فهمت مغزى الدعوة إلى الجنون ومسألة نبذ العقل والهروب من معوقات التقليد بالاستسلام إلى الاصطخاب الجامح للروح والمخيلة.

وذات يوم وبعد أن قمت بجولة بحث عقيمة أخرى خلال الشوارع والساحات عن الرجل حامل اللوحة وجستُ مرات عديدة ماراً من أمام الجدار الذي فيه الباب الخفي ذو العين اليقظة، قابلت موكباً جنائزياً في كنيسة القديس مارتن. وبينما أنا هكذا أتأمل وجوه المفجوعين، الذين يتبعون النعش بخطى مترنحة، قلت في نفسي «أين أجد الإنسان في هذه البلدة أو في العالم كله الذي يشكل موته بالنسبة إليّ خسارة؟ وأين هو الإنسان الذي سيهتم لموتي أنا؟. صحيح إن هناك إريكا، لكننا منفصلان منذ أمد طويل. إننا نادراً ما نجتمع بدون أن نتشاجر وأنا الآن لا أعرف عنوانها. إنها تزورني بين حين وآخر، أو أقوم أنا بزيارتها، وبما أن

كلينا وحيد، وذوي المراس الصعب يتواصلون، نوعاً ما، في الـروح، وفي سقم الروح، فقد كان يصل بيننا رابط ظل متيناً على الرغم من كل شيء. ولكن أليس من الممكن أنها ربما سوف تتنفس بحرية أكبر إذا ما سمعت خبر موتي؟ لا أدري. ولا أدري أيضاً إلى أي مـدى يمكـن الركون إلى مشاعري نحوها. فلكي يعرف المرء أي شيء عن هـذه المسألة يحتاج إلى أن يعيش في عالم من الاحتمالات الممكنة.

في تلك الأثناء، وبينمـا أنـا راضـخ لتخيلاتـي، انضممـت إلى آخـر موكب الجنازة وسرت خلف المعزيـن بخطى وئيدة إلى المقـبرة، وكـانت مكاناً حديث الطراز وكله من الإسمنت المسـلح ومكتمـلاً بوجـود محرقـة للجثث. إلا أن المتوفى الحـاضر لم يكـن ليحـرق. ووضـع التـابوت عنـد حفرة بسيطة في الأرض، ورأيت القسيس وبقية عجائز وموظفـي إحـدى مؤسسات دفن الموتى منهمكين في أداء عملهم، وحاولوا أن يضفوا عليـه كـل مظـاهر المراسـم الفخيمـة والحزينـة وبإتقـان عـال تفوقـوا فيـه علـى أنفسهم وقـد كشـف تمثيلهـم الصـرف كذبهـم، وانتهـى إلى أن أضحـى مضحكاً. رأيـت كيـف كـانت أرديتهـم الرسميـة تنطـوي، والمشـقة الـتي يتحملونها لإثارة مشاعر مجموعة المعزين ولإجبارهم على أن يركعوا أمام جلال الموت. وكان جهداً عقيماً. ولم يبك أحد، وبـدا أن بقـاء المتوفـى بينهم لم يكن ضرورياً، ولا كان بالإمكان إقنـاع أي منهـم باتخـاذ حالـة نفسية ورعة، وعندما خاطب القس المجموعة مكـرراً «أخوتـي في الإيمـان الأعزاء»، انخفضت كل الوجوه الصامتة لأصحاب الدكـاكين والخبـازين الكباروزوجاتهم بارتبـاك ولم تبـد عليهـم غـير الرغبـة في أن ينتهـي هـذا العمل المزعج في أقرب وقت. وعندما جاءت النهاية صافح أول إثنين من الأخوة المسـيحيين يـد القـس، وكشـطا الطـين المبلـل الـذي كـان الميـت يستلقي فيه عن حذائيهما عند الكاشطة التالية ورسم وجهاهما من جديد

وبدون تردد تعبيرهما الطبيعي، وعندئذ بدا أحدهما مألوفاً لدي. فقد بـدا لي أنه الذي كان يحمل اللافتة وأقحم الكتيّب في يدي.

في اللحظة التي اعتقـدتُ أنـي قـد تعرفـتُ عليـه توقـف، ومـال إلى الأسفل، وثنى بعناية طرفي بنطاله الأسـود، ومـن ثـم سـار مبتعـداً بخطى ناشطة وقد أمسك بإحكام بمظلته تحـت ذراعـه. ولحقـتُ بـه، ولكـن عندمـا تجاوزته وأومأت له برأسي، لم يبدُ عليه أنه تعرف عليّ.

سألته وحاولت أن أغمزه كما يفعل متآمران: «أليس هنـاك عـرض هذا المساء؟». لكني لم أكن قد مارست هذه الحركـة الإيمائيـة منـذ زمـن بعيـد. والحـق، إنـني بأسـلوب حيـاتي ذاك، كـدت أنسـى عـادة الكـلام وشعرت أن كل ما قمت به هو تكشيرة سخيفة.

دمدم قائلاً: «عرض هذا المساء؟»، ورماني بنظرة وكأنه لم يكن قد رآني قط من قبل «إذهب إلى "النسر الأسود" يا رجل، إن كان هـذا مـا تسعى إليه».

الحقيقة هي أنـي لم أعـد متـأكداً مـن أنـه الرجـل نفسـه. وشـعرت بالخيبة وانطلقت أسير بـلا هـدف. لم يكـن لـدي أي دوافـع، أو حوافـز أبذل نفسي فيها، ولا واجبات. وكان مذاق الحياة مراً كالحنظل. شعرت أن الاحساس بالاشمئزاز القديم العهد مقدم على أزمـة وأن الحيـاة لفظتـني ونحتني جانباً. أخترقت شوارع كئيبة وأنا حانق وكان كـل شـيء يفـوح برائحة الأرض الرطبة وعملية الدفن. وأقسـمت علـى أن لا أدع أيـاً مـن عجائز الموت هؤلاء أن يقفوا عند قبري، بغفاراتهم وترنيمهم بـ"أخوتنـا في الإيمان". آه، إنني أنظر إلى ما أشاء وأفكر بمـا أريـد، لا شـيء يبهجـني ولا شيء يغريني. لا شيء يفتنني أو يغويني. كل شيء عتيق، ذاو، كئيـب ومُستهلك، ويفوح بنتانة الابتـذال والتفسـخ. سبحانك يـا رب، كيـف كان ذلك ممكناً؟ كيف توصلت إلى ذلك، على أجنحة الشباب والشعر؟

أولاً بالفن وبالسياحة وبوهج المثل العليا ـ والآن بهذا! كيف تمكن هذا الشلل الذي هو كراهيتي لنفسي ولكل إنسان، هذا الانسداد لكل المشاعر، وحمأة جحيم القلب الخاوي هذه واليأس من أن يجتاحني بهدوء وبطء شديدين؟

لدى مروري بالمكتبة العامة قابلت استاذاً جامعياً شاباً كنت في سنوات سابقة أراه كثيراً في بعض الأحيان. بل إنني أثناء فترة مكوثي في البلدة، قبل بضع سنوات، زرته في منزله مرات عديدة لنتجاذب أطراف الحديث حول الأساطير الشرقية، وهو بحث كنت شديد الاهتمام به. وكان قادماً باتجاهي يسير بخطى متصلبة وبسيماء تنم عن أنه حسير البصر ولم يتعرف عليّ إلا في اللحظة الأخيرة قبل أن أتجاوزه. شعرت، وأنا في حالتي التي تبعث الأسى، بشبه امتنان للطريقة الودودة التي ارتمى بها عليّ. وأضحى سروره بلقياي مفعماً بالحيوية عندما راح يتذكر الأحاديث التي تبادلناها وأكد لي أنه يدين بالكثير للإثارة التي استمدها منها وأنه كان دائماً يفكر بي. ومنذ ذلك الحين نادراً ما عقد مثل تلك النقاشات المثيرة والثرية، مع أي من زملائه. وسألني منذ كم من الوقت وأنا موجود في البلدة، (كذبت وقلت منذ بضعة أيام) ولماذا لم أقم بزيارته. وشملني رجل العلم ذاك بعين الود، ولم أقو على كبح نفسي في الاستمتاع بتلك الفُتات من الدفء والرقة، على الرغم من أنني وجدت ذلك مثيراً للسخرية، وكنت ألعقها ككلب جائع. لقد تأثر هاري، ذئب السهوب، إلى حد رسم تكشيرة. وتجمع الرضاب في حنجرته الجافة وانحنى رغماً عنه انحناءة كبيرة أمام رقة شعوره. نعم، رحت أسرد الكذبة تلو الكذبة بكل حماس، وقلت إنني مار من هنا بالمصادفة، من باب القيام بالتقصي، وإنه كان يجب أن أزوره لولا أنني كنت متوعكاً. وعندما عمد إلى دعوتي من كل قلبه لقضاء الأمسية معه، وافقت بكل

امتنان وحمّلته تحياتي لزوجته، حتى أن وجنتيّ آلمتاني تماماً من فرط الجهود غير المعتادة التي بذلتها وأنا أرسم قسراً كل تلك الابتسامات وأبادله تلك الأحاديث. وبينما كنت أنا، هاري هاللر، واقفاً هناك في الشارع، مشبَّعاً بالغرور ومندهشاً وحريصاً على أن أبدي الأدب وأبتسم في وجه الرجل الطيب الودود، والحسير النظر، كان هاري الآخر، أيضاً، يقف بالقرب مني ويكشّر مثلي. وقف هناك وكشّر لأنه كان يعتقد إنني شخص غريب الأطوار، ومجنون، ومخادع، لأني أكشف عن أسناني حنقاً وأصب لعناتي على العالم برمته في لحظة، وفي اللحظة التالية، أبذل ما في وسعي توقاً إلى أن أرد التحية بأحسن منها لأول إنسان صادق وطيب أصادفه، ولأني أتقلب مثل خنزير رضع من نعيم إحساس صغير ممتع واحترام ودود. وهكذا وقف الهاريان وجهاً لوجه مع الأستاذ الكفؤ، وما يقوم به أي منهما ليس دوراً ممتعاً، يسخر كل منهما من الآخر محاكياً، ويراقب كل منهما الآخر، ويتراشقان بالبصاق، في حين أن السؤال الأبدي الذي يطرح نفسه دائماً في مثل هذه الورطات هو ما إذا كان كل هذا محض حماقة وضعفاً إنسانياً، وفساداً تاماً، أم إن هذه الأنانية العاطفية والانحراف، وهذه القذارة والمراءاة في الشعور هي مجرد خاصية ينفرد بها ذئاب السهوب. فإذا كانت هذه القذارة شائعة بين الرجال عموماً، كان في إمكاني أن أرتد من هذه العثرة بطاقة متجدّدة لأصب جام كراهيتي على العالم كله، ولكن إذا كانت ضعفاً، فهي مناسبة جيدة لأنغمس في كراهيتي لذاتي.

بينما كانت ذاتاي مشتبكتين هكذا للسيطرة، كادتا تنسيان وجود الأستاذ، وعندما عدت فجأة إلى وعي حضوره الثقيل الوطأة عجّلت إلى التحرر منه. ورحت أتابع الأستاذ بنظري فترة طويلة وهو يختفي في المدى على طول الجادة القاحلة بخطوة إنسان مثالي، مؤمن، تدل على

الود ومضحكة قليلاً. وكـان الصراع يحتدم عنيفاً في داخلي. ورحـت بحركة آلية أثني أصابعي المتيبسة وأبسطها كأنما استعداداً لمجابهة مـا خلّفـه سمٌّ خفي من تلف، وكان علـيّ في الوقـت نفسـه أن أدرك أنـي صحيـح البنية. وكانت تكبلني دعوة الساعة الثامنة والنصف بكل ما تلزمني به من إبداء التهذيب، والتحدث عن عملي والتـأمل في النعيـم العـائلي لإنسـان آخر. وهكذا انطلقت إلى المنزل ـ أضطرم بالحنق. وحالما وصلت صببـت لنفسي كـأس برانـدي مـع المـاء، وابتلعـت معـه بعـض حبـوب مكافحـة النقرس، ثم استلقيت على الصوفا، وحاولت أن أقرأ. ومـا أن نجحـت في الاستغراق برهة في كتاب "رحلة صوفي مـن ممـل إلى ساكسـوني"، وهـو كتاب قديم ممتع مـن القـرن الثـامن عشـر، حتـى انتبهـت فجـأة إلى أمـر الدعوة وتذكرت أني لم أحلق ذقني ولا ارتديت ملابسي. بحـق ا لله لمـاذا جلبت على نفسي كل هذا؟ حسن، قلت لنفسي إنهض، ضـع الصـابون على ذقنك واحلقها جيداً حتى تدمي، وارتد ملابسك، وأظْهِر شيئاً مـن البشاشة لأقرانك الناس. وبينما كنت أرغو الصابون على وجهـي رحـت أفكر في تلك الحفرة القذرة المحفورة وسط الطين في المقبرة، وأنزل فيها في ذلك اليوم شخص لا أعرفه. فكرت في الوجوه الذابلـة للإخـوة المؤمنـين الضجرين ولم تثر عندي حتى الضحك. وقلت في نفسي، هناك في تلـك الحفرة الطينية القذرة، وبمصاحبة خدمات كهنوتية حمقاء وكاذبة وسلوك لا يقل حماقة وكذباً من مجموعة من المعزيـن وسـط مشـهد مزعـج لكـل الصلبـان المعدنيـة والألـواح الرخاميـة والأزهـار الاصطناعيـة المؤلفـة مـن أسلاك وزجاج، انتهت رحلة ليس فقط ذاك الرجل المجهول، وسرعان ما سألحق به ذات يوم، وسأدفن في التراب يصحبني عرضٌ منافق من الحـزن ـ كلا، بل هناك وبتلك الطريقة سينتهي كل شـيء، كـل كفاحنـا، كـل ثقافتنا، كل معتقداتنا، كل فرحنا وسرورنا في الحياة ـ إنني سئم منذ الآن

وقريباً سأدفن أنا أيضاً هناك. إن حضارتنا بأكملها مقبرة حيث ما يسوعُ المسيح وسقراط، موتسارت وهايدن، دانتي وغوته، إلا أسماء مبهمة منقوشة على شواهد بالية، والمعزّون المحيطون بالقبر ويتكلّفون الحزن لن يؤمنوا في هذه الأسماء المنقوشة التي كانت ذات يوم مقدسة، ولن يتمكنوا حتى من أن ينطقوا كلمة واحدة صادقة تعبر عن الحزن واليأس من هذا العالم الذي لم يعد له وجود. ولا يبقى لهم غير التكشيرات المرتبكة لعصبة تتحلّق حول قبر. وبينما كنت أتفكر هكذا جرحت ذقني في الموضع المعتاد وكان لا بد أن أضع بوتاساً كاوياً مكان الجرح، ومع ذلك ها هي ياقتي النظيفة قد تلطخت، وكنت قد ارتديتها للتو، ويجب تبديلها مرة أخرى، وكل ذلك من أجل دعوة لا تمنحني أقل قدر من السرور. ومع ذلك فهذا جزء مني قد بدأ من جديد يمثل، ويقول عن الأستاذ إنه شاب متعاطف، ويتوق إلى إثارة حديث قصير مع أقرانه من الرجال وإلى الاتصال بهم، ويذكرني بزوجة الأستاذ الجميلة، ويحثني على أن أصدق أن أمسية أمضيها مع مضيفي ومضيفتي الأنيسين سوف تكون في الواقع أمسية مبهجة جداً، ويساعدني على لصق لزقة جرح على ذقني، وعلى ارتداء ملابسي، وأيضاً على عقد ربطة عنقي، ويبعدني بلطف، في الواقع، عن رغبتي الحقيقية في أن ألازم البيت. وعلى الأثر تبدّى لي ـ إن هذا ما يحدث مع كل إنسان. فكما أرتدي ملابسي وأخرج لأقوم بزيارة الأستاذ وأتبادل بضع عبارات التملق الكاذبة إلى حد ما معه، دون أية رغبة حقيقية في ذلك، كذلك الأمر مع أغلبية البشر يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة في حياتهم اليومية وفي شؤونهم. وبلا أي رغبة من جانبهم، يؤدون الزيارات وينخرطون في أحاديث، ويمضون أوقات عملهم جلوساً على طاولات مكاتب أو كراس، وكل ذلك إجباري، آلي وضد الفطرة، ويمكن إنجازه أو تركه بلا إنجاز أيضاً بواسطة آلات، والحق إن هذه الآلية

التي لا تتوقف هي التي تمنعهم من أن يكونوا، مثلي، نقّاد حياتهم الخاصة ومن أن يتعرفوا على حماقتهم وسطحيتهم، وعلى مأساة حياتهم العبثية وعقمها التي يعيشون، وعلى الغموض الهائل الذي يكشِّر هازئاً بكل هذا. وهم على حق، على حق ألف مرة بعيشهم على هذا النمط، يؤدون أدوارهم التمثيلية وينهمكون في أداء أعمالهم، بدل أن يقاوموا الآلة الرهيبة ويحدّقوا إلى الفراغ كما أفعل أنا الذي خرجت عن الخط المرسوم. ولا يعتقد أحد أني أضع اللوم على بقية الناس، وإن كنتُ بين حين وآخر خلال هذه الصفحات قد أنّبتهم بل وسخرت منهم، أو إنني أتهمهم بمسؤوليتهم عن بؤسي الشخصي. ولكن الآن وقد وصلت إلى هذا الحد، وها أنا أقف عند آخر شفا الحياة حيث تهوي الأرض أمامي إلى ظلمة لا قرارة لها، أخطئ وأكذب إذ أتظاهر أمام نفسي أو أمام الآخرين بأن هذه الآلة مازالت تدور بالنسبة إليّ وإني مازلت ممتثلاً لعبث الأطفال الأبدي لذاك العالم الفاتن.

على أساس كل هذا أوحت لي الأمسية التي تنتظرني بتعليقٍ رائع. فتوقفت برهة أمام المنزل ورفعت بصري إلى النوافذ. وقلت في نفسي، إنه يقطن هنا ويواصل ممارسة أعبائه سنة بعد سنة، يقرأ النصوص ويزودها بالحواشي، يفتش عن أوجه التشابه بين اساطير آسيا الغربية والهند، وهذا يرضيه، لأنه يؤمن بالدراسات التي هو خادمها، وهو يؤمن بقيمة المعرفة المحض، وباكتسابها، لأنه يؤمن بالتقدم وبالنشوء. إنه لم يخض الحرب، ولا هو مطّلع على تهشّم أسس الفكر على يد أينشتاين (فهو يعتقد أن هذا مقتصر على مجال الرياضيات). ولا يلاحظ وجود أي تحركات استعداداً لحربٍ تالية تجري في كل مكان من حوله. وهو يكره اليهود والشيوعيين وهو طفل سعيد، غافل وطيب، وجدّي، والحقّ إنه يستحق كثيراً أن يُحسد. وهكذا، استجمعت شتات نفسي، وولجت

المنزل. فتحت لي الباب خادمة تعتمر قلنسوة وترتدي مئزراً. ولاحظت، بحذر يحدوني حسٌّ داخلي، المكان الذي وضعت فيه قبعتي ومعطفي. ثم قادتني إلى غرفة دافئة وحسنة الإضاءة، وطلبت مني أن أنتظر. وبدلاً من أن أتلو صلاة أو آخذ غفوة، تبعت حافزاً معانداً والتقطتُ أول شيء رأيته. وتصادف أن كان صورة مؤطّرة موضوعة على طاولة مستديرة وتميل إلى الخلف وترتكز على دعامتها من الورق المقوّى. وكانت حفراً يمثل الشاعر غوته، كرجل عجوز مهيب الطلعة، ذي وجه رائع التقاطيع وشعر غزير جدير بعبقري. ولم يكن ينقصه لا اللهب الشهير المنبعث من عينيه ولا التعبير المأساوي والمتوحد المستتر تحت البياض الصقيل. وقد أولى الفنان اهتماماً خاصاً بهذا، ونجح في أن يجمع ما بين القوة الجوهرية التي يتمتع بها الرجل العجوز والتركيبة الحِرفية نوعاً للانضباط الذاتي والاستقامة، بدون إجحاف في حق عمقه، وقد جعل منه، بشكل عام، جنتلماناً عجوزاً فاتناً حقاً، جديراً بأن يزين أي غرفة جلوس. ولا شك في أن هذه الصورة الشخصية لم تكن أسوأ من أخريات من ضربها. كانت تشبه كثيراً تلك الصور التي ينفذها رسامون محترفون دقيقون لصور المخلّص، والرُسُل،والأبطال، والمفكرين ورجال الدولة. ولعلي وجدتها مثيرة للسخط فقط بسبب براعتها الفنية الفائقة المدَّعية. على أي حال، ومهما يكن، لقد صرخت هذه الصورة الجوفاء والمغرورة في وجهي وعلى الفور بكونها تمثل تنافراً مميتاً، ومثيرة للسخط وللأعصاب وهكذا كان حالي فعلاً. لقد نبهتني إلى أنه ما كان يجب أن آتي قط. هنا كان المكان الأليف للأساطين العجائز ولعظام رجالات الأمة، وليس لذئاب سهوب.

ليت سيد المنزل كان قد أتى، إذن لواتاني الحظ وعثرت على ذرائع مقبولة لانسحابي. وللتو جاءت زوجته، واستسلمت للقدر على الرغم من أني شممت رائحة خطر. وتصافحنا وتلا التنافر الأول تنافرات أخرى

جديدة. وراحت السيدة تقرظ مظهري، مع أني كنت أعرف جيداً إلى أي درجة محزنة تركت السنون عليّ آثار التقدم في السن منذ أن التقينا آخر مرة. وقد ذكّرتني بهذا للتو قبضة يدها المشدودة على أصابعي المصابة بالنقرس. ومن ثم تابعت فسألتني عن زوجتي العزيزة، فاضطررت إلى القول إن زوجتي قد تركتني وإننا الآن مطلقان. وقد سرَّ كلانا بحق عندما دخل الأستاذ. هو أيضاً هشَّ وبشَّ مرحباً بي ووصلت الملهاة السمجة إلى ذروة جميلة. كان يحمل صحيفة يشترك فيها وهي الناطقة بلسان الحزب المشرَّب بالروح العسكرية والشوفينية، وبعد المصافحة أشار إليها وعلّق على فقرة عن شخص سمّي لي ـ خبير في الشؤون العامة ويدعى هاللر، وهو إنسان سيء ووطني عفن ـ كان يهزأ بالقيصر ويعبر عن وجهة نظرٍ تقول إن بلده لا يقل مسؤولية عن اندلاع الحرب عن الدول المعادية. هذا رجل يعجبك! وقد أعطاه الناشر ما يستحق وشهّر به. ولكن، عندما لاحظ الأستاذ أني لست مهتماً للأمر انتقلنا إلى مواضع أخرى، ولم يكن قد خطر لأي منهما مطلقاً أنه من الممكن أن يجلس قبالتهما مثل هذا الشخص الفظيع. نعم، هذا ما حدث، وكنت أنا هو ذاك الشخص الفظيع. حسن، وما الداعي لإثارة القلق وإزعاج الناس؟ وضحكت بيني وبين نفسي لكني عندئذ كنت قد تخليت عن أي أمل في قضاء أمسية ممتعة.

لا زلت أذكر بجلاء لحظة تحدَّث الأستاذ عن هاللر بوصفه خائناً لبلده. فعندئذ بالذات تكثّف ذاك الشعور الرهيب بالانقباض واليأس والذي كان يتصاعد داخلي ويقوى باضطراد منذ مشهد الدفن حتى أضحى اكتئاباً مزمناً. وقد ازداد حتى درجة الألم الجسدي، مثيراً داخلي هاجساً خانقاً ورهيباً. شعرت أن ثمة ما يكمن لي، أن خطراً ما يطاردني خلسة. ولحسن الحظ تلا ذلك إعلان أن طعام العشاء بات جاهزاً على

المائدة. فولجنا غرفة الطعام، وبينما كنت أجهد عقلي لتذكّر شيء بريء أقوله، تناولت من الطعام أكثر مما اعتدت أن أفعل وشعرت أنني أزداد بؤساً في كل لحظة. وكنت طوال الوقت أقول لنفسي، يا إلهي، لماذا نسبِّب لأنفسنا كل هذا التوتر؟ وشعرت بوضوح أن مضيفيّ أيضاً لم يكونا مرتاحين وأن حيويتهما كانت مغتصبة، إما لأنه كان لي تأثير شالّ عليهما أو لمصدر إحراج آخر، لعله عائلي. ولم يطرحا عليّ سؤالاً واحداً يمكنني أن أجيب عنه بصراحة، وسرعان ما وجدتني متورطاً في شبكة من أكاذيبي وأتصارع مع إحساس بالغثيان عند كل كلمة أقولها. وأخيراً، ومن باب تغيير الموضوع، أخذت أحكي لهما عن الجنازة التي كنت قد شهدتها في وقت مبكر من ذاك النهار. لكني فشلت في الضرب على الوتر الصحيح. لقد أخفقت جهودي في إشاعة روح الفكاهة إخفاقاً تاماً، وازدادت الفرقة بيننا أكثر من ذي قبل. وكشّر داخلي ذئب السهوب عن أنيابه. وفي الوقت الذي وصلنا إلى فاكهة بعد الطعام كان الصمت المطبق قد ران علينا نحن الثلاثة.

عدنا إلى الغرفة التي أتينا منها لكي نناشد عون القهوة والكونياك، ولكن هناك وقعت عيناي مرة أخرى على قطب الشعر، إلا أنه كان قد وضع على خزانة بأدراج في إحدى نواحي الغرفة. ولما كنت عاجزاً عن الابتعاد عنه، حملته مرة ثانية بين يديّ، متجاهلاً أصواتاً محذّرة كنت أسمعها بوضوح، وباشرتُ في مهاجمته. كنت كالممسوس بإحساس بأن الوضع غيرمحتمل وأن الوقت قد حان إما أن أبث الحرارة في مضيفيّ، أن أشعلهما بالحماس وأجعلهما يتناغمان معي، أو أن أحدث انفجاراً أخيراً.

قلت: «آمل أن لا يكون غوته يبدو حقاً هكذا. أي عالم من العاطفية الفاتنة يكمن تحت هذه النبالة المعجبة بذاتها، ونظرة الحب التي يسددها الرجل العظيم إلى الصحبة المتميزة، وتحت المظهر الرجولي الخارجي!

لا شك في أن هناك الكثير مما يؤخذ عليه. وأنا نفسي لدني الكثير من المآخذ على تباهيه المهيب. أما أن أمثّله هكذا ـ لا، هذه مغالاة فادحة».

انتهت سيدة المنزل من صب القهوة وقد ارتسم على وجهها تعبير من التأذي العميق ومن ثم عجلت بمغادرة الغرفة، وأخذ زوجها يشرح لي بمزيج من الارتباك والتأنيب أن لوحة غوته تخص زوجته وإنها إحدى أعز الممتلكات لديها «وحتى لو كنت على حق، من الناحية الموضوعية، وإن كنتُ لا أوافقك الرأي، فما كان يجب أن تكون صريحاً هكذا».

اعترفت قائلاً: «أنت على حق. لسوء الحظ إنها عادة مرذولة عندي، فأنا دائماً أبوح بما يجول في خاطري قدر ما أستطيع، تماماً كما كان غوته يفعل بدوره، في أفضل حالاته. إن غوته ما كان ليسمح لنفسه قط، في غرفة جلوس ذات طابع محافظ كهذه، أن يستخدم تعبيراً قاطعاً وصادقاً وشائناً. إنني بكل صدق ألتمس عذر زوجتك وعذرك. قل لها، أرجوك، إنني مصاب بالفصام. والآن، إذا سمحت لي، سأستأذن بالرحيل».

أبدى اعتراضه على ذلك على الرغم من ارتباكه. بل إنه عاد إلى موضوع نقاشاتنا السابقة وعاد يقول من جديد كم كانت مثيرة للاهتمام ومحفزة وكم تركت نظرياتي عندئذ حول ميثراس وكريشنا أثراً بليغاً فيه. وعبَّر عن أمله في أن تكون المناسبة الحاضرة فرصة لتجديد فتح هذه النقاشات. فشكرته على كلامه هذا. ولسوء الحظ كان اهتمامي بكريشنا قد تلاشى ومعه تلاشى استمتاعي بالنقاشات الثقافية. زيادة على ذلك، كنت قد ألقيت على مسمعه عدة أكاذيب في ذلك اليوم. فمثلاً، كنت موجوداً في البلدة منذ أشهر عديدة، وليس منذ بضعة أيام، كما قلت. إلا أني كنت أعيش في عزلة تامة، ولم أعد ملائماً للمجتمع الراقي، فأولاً كنت دائماً تقريباً عكر المزاج ومبتلياً بداء النقرس، وثانياً، أكون في العادة ثملاً. وأخيراً، ولكي أنقّي سجلّي، لكي، على الأقل، لا

أعرف بالكذاب على طول الخط، كان من واجبي أن أبلغه أنه قد أهانني بدرجة محزنة في تلك الأمسية. فقد صادق على الموقف الذي اتخذته صحيفة رجعية من آراء هاللر، وهي صحيفة فظة بلهاء، جديرة بضابط بنصف أجر، وليس برجل مثقف. إلا أن هذا الإنسان السيء والوطني الغض هاللر وأنا شخص واحد، وهذا أفضل لبلدنا وللعالم كله، على الأقل إذا ما دعمت القلة القادرة على التفكير العاقل وحب السلام بدل أن تندفع بهياج يحدوها مسٌّ أعمى لشن حرب جديدة. وبهذا ودعته.

هنا نهضت واقفاً واستأذنت من غوته ومن الأستاذ الجامعي بالمغادرة. تناولت قبعتي، ومعطفي من المنصب في الخارج وغادرت المنزل. عوى الذئب في داخلي بصوت مدوٍ معبراً عن طربه، وامتد بيننا ميدان مترامي الأطراف لإجراء العمليات الحربية. فقد اتضح لي على الفور أن هذه الأمسية البغيضة كان لها من المغزى بالنسبة إليَّ أكثر مما كان للأستاذ. فبالنسبة إليه كانت خيبة أمل وإهانة حقيرة. وبالنسبة إليّ كانت فشلاً ذريعاً وهروباً. كانت بمثابة فترة إجازة من العالم المثقف، الأخلاقي والمحترم، وانتصاراً ساحقاً لذئب السهوب. لقد تُركتُ لأهرب مهزوماً من الساحة، والافلاس باد في عيني. مطروداً مجرداً من أقل قدر من الشرف أو شعاع من الفكاهة ليواسيني. لقد غادرت العالم الذي وجدت فيه ذات يوم وطناً، عالم العُرف والثقافة، على صورة رجل مصاب بعسر الهضم كفّ عن أكل لحم الخنزير. ومضيت في طريقي وأنا حانق أسير تحت مصابيح الشارع حانقاً ومريضاً حتى الموت. أي يوم شنيع ملؤه الخزي والبؤس منذ الصباح وحتى الليل، من المقبرة وحتى المشهد الذي جرى مع الأستاذ الجامعي. ما الهدف؟ لماذا؟ أكان ثمة مغزى في تنكّب عبء المزيد من أيام كهذا أو من تلبية المزيد من مثل هذه

الدعوة على العشاء؟ لا مغزى. وفي هذه الليلة بالذات سوف أضع حداً لهذه المهزلة، سوف أمضي في البيت وأحزُّ عنقي. كفاني توانياً.

قطعت شوارع تتجه في كل الاتجاهات، يحثني بؤسي. لا شك في أنه كان حمقاً مني أن ألوث زخارف غرفة جلوس وجهاء القوم، حماقة وجلافة، ولكن لم يكن لي حيلة في ذلك؛ وحتى الآن لا حيلة لي. لم يعد في مقدوري أن أتحمّل هذه الحياة الجلفة، المنافقة، التفهة. وبما إنه قد تبدى إنه لم يعد في مقدوري أيضاً أن أتحمل عزلتي، بما أن صحبتي أضحت كريهة ومثيرة للغثيان بشكل يعصى على الوصف، بما إنني جاهدت كي أتنفس في جحيم خال من الهواء وخانق، فأي مخرج تبقّى لي؟ لا مخرج. ورحت أفكر في أمي وأبي، في اللهب المقدس لشبابي الذي انطفأ منذ أمد بعيد، في آلاف المتع والأهداف والمشقات، والأهداف التي حفلت بها حياتي. لم يتبق لي شيء منها، ولا حتى الندم، لا شيء غير الألم والغثيان. ولم يبد قط التشبث بالحياة المحض موجعاً كما بدا عندئذ.

أخذت قسطاً من الراحة في إحدى الحانات تقع في جزء قصي من البلدة وجرعت بعض البراندي الممزوج بالماء، ومن ثم انطلقت أقطع الشوارع من جديد، والشيطان يجري في إثري، في طول شوارع البلدة القديمة الملتوية والمنحدرة وعرضها، على طول الجادات، عبر ساحة المحطة. وأوصلني التفكير في التوجه إلى مكان معين إلى داخل المحطة. فأنعمت النظر في لوائح المواعيد المعلقة على الجدران، وشربت بعض النبيذ وحاولت أن أستعيد وعيي. ثم اقترب مني الشبح الذي أصابني بالرعب، حتى بت أراه بوضوح. كان رعب العودة إلى غرفتي فتوقفت عن السير، ووقفت وجهاً لوجه مع يأسي. لا مهرب من تلك اللحظة على الرغم من بقائي سائراً أجوب الشوارع ساعات طوال. وعاجلاً أو آجلاً سأصل إلى عتبة غرفتي، إلى الطاولة التي تحمل كتبي، ولأجلس على

الصوفا المعلقة فوقها صورة إريكا الفوتوغرافية. وعاجلاً أو آجلاً ستأتي اللحظة التي سأخرج فيها موسى حلاقتي وأحزُّ عنقي. وكانت الصورة تتضح أكثر فأكثر أمامي. وراح شعوري بأشد أنواع الخوف من الموت يتكثف باضطراد، ووجيب قلبي يدمدم. نعم، كنت خائفاً خوفاً مريعاً من الموت. وعلى الرغم من أني لم أر مخرجاً آخر، على الرغم من أن الغثيان، والألم، واليأس هددوا بأن يُحدِقوا بي، على الرغم من أنه ليس لدى الحياة ما تغريني به، ولا شيء تمنحه لي سواء أكان فرحاً أم أملاً، مع ذلك انتابتني رعشة مصحوبة برعب لا يوصف من تنفيذ العملية، من الجرح المفتوح في لحمي.

لم أجد وسيلة أخرى للهرب من هذا الشبح المخيف. لنفرض أن الجبن أحرز اليوم انتصاراً على اليأس، فإني غداً وفي كل يوم يتلوه سأعود لأواجه اليأس من جديد وقد تصاعد بفعل إزدراء الذات. إن الأمر كله لا يتعدى رفع السكين ثم الإطاحة بها إلى أن يتم الأمر أخيراً. والأفضل أن يحدث اليوم إذن. وتفكرت بيني وبين نفسي وكأنما مع طفل خائف. لكن الطفل رفضٍ أن ينصت. لقد أردتُ أن أعيش. وجدَّدتُ جولاتي المتشنجة في أرجاء البلدة، وقمت بالتفافات كثيرة متجنباً العودة إلى المنزل الذي كان لا يبرح تفكيري ودائماً أؤجلها. وكنت أتوقف هنا وهناك وأتلكأ، أشرب كأساً أو إثنين، ومن ثم، وكأنما ثمة من يلاحقني، أركض باتجاه دائري حول الهدف، حول الموسى، حول الموت. وأحياناً كنت أجلس، من فرط الارهاق، على مقعد عام، على حافة نافورة، أو على حافة الطريق لأمسح العرق على جبيني، ولأنصت إلى وجيب قلبي. ومن ثم إلى الانطلاق من جديد يمسّني رعب مميت يملؤني توق يتلظى إلى الحياة.

هكذا وجدتني في وقت متأخر من الليل في جزء قصي وغير مألوف من البلدة، وهناك دخلت إلى حانة كان يصدر عنها صوت موسيقى

راقصة وحيوية. وفوق المدخل قرأت وأنا أدخل عبارة "النسر الأسود" على اللافتة. وفي الداخل وجدت أن الأمسية مجانية ــ حشود ودخان، ورائحة نبيذ، وصخب أصوات، ورقص يدور في غرفة كائنة في الخلفية، ومنها يصدر ضجيج الموسيقى المسعور. فجلست في أقرب غرفة لا يشغلها إلا أناس بسطاء، وبعضهم كان يرتدي ملابس رثة، في حين أن في القسم الخلفي من قاعة الرقص كان يُرى أيضاً أناس أنيقو الملبس. وجرَّني الحشد معه، وسرعان ما وجدتني بالقرب من البار، محشوراً على طاولة تجلس عليها فتاة جميلة وشاحبة، وتستند إلى الجدار. كانت ترتدي ثوب رقص رقيقاً وقصيراً جداً، وتضع زهرة ذابلة في شعرها. رنت إليَّ بنظرة منتبهة وودية لدى اقترابي منها ثم ابتسمت وأزاحت إلى أحد الأطراف تفسح لي مكاناً.

سألتها: «أتسمحين؟» وجلستُ إلى جوارها.

قالت: «طبعاً، أسمح. ولكن من أنت؟».

أجبت: «شكراً، إنني لا أستطيع أن أذهب إلى البيت، لا أستطيع، لا أستطيع. سأمكث معك إن سمحت لي. لا، لا أستطيع أن أعود إلى البيت».

هزت رأسها وكأنما فهمت، وبينما هي تهز رأسها لاحظتُ العقصة المنسدلة من صدغها على أذنها، ورأيت أن الزهرة الذابلة كانت زهرة الكاميليا. وكانت الموسيقى في الجزء الداخلي تهدر وعلى مائدة الطعام المفتوحة كانت النادلات يصدرن أوامرهن بأصوات عالية.

قالت بصوت أراحني: «فابق هنا، إذن. لم لا تستطيع أن تذهب إلى البيت؟».

«لا أستطيع. ثمة شيء ينتظرني هناك. لا، لا أستطيع ــ إنه مخيف جداً».

«دعه ينتظر إذن وابق هنا. أولاً إمسح نظارتك. إنك لا تستطيع أن ترى أي شيء. أعطني منديلك. ماذا سنشرب؟ برغندي؟».

بينما كانت تمسح نظارتي، كوّنت أول انطباع واضح عن وجهها الصارم، الشاحب، ذي العينين الرماديتين الصافيتين والجبين الأملس، والعقصة الثابتة، القصيرة المنسدلة على أذنها. وبدأت بالإمساك بيدي بحركة ودية مع لمسة سخرية. طلبت نبيذاً، وبينما كانت تقرع كأسها بكأسي، وقع بصرها على حذائي.

«يا إلهي، من أين أنت قادم؟ تبدو كأنك قادم من باريس سيراً على قدميك. ليست هذه هي الحالة المناسبة لحضور حفل راقص».

أجبت بـ «نعم» و«لا»، وأنا أضحك بين حين وآخر، وتركتها تتكلم. ووجدتها فاتنة، فتنة طاغية ومدهشة، لأني طالما تفاديت الفتيات أمثالها وكنت أرقبهن بارتياب. وقد عاملتني في ذلك الوقت المعاملة المناسبة تماماً لحالتي، وواظبت على ذلك دون تبديل. طوتني تحت جناحيها كما كنت أحتاج تماماً، وسخرت مني، أيضاً، كما كنت أحتاج. طلبت لي شطيرة وأمرتني أن آكلها. وملأت كأسي وأمرتني أن أرشفها رشفاً لا أن أجرعها بسرعة كبيرة. ثم أطرت قيادي السهل.

قالت تشجعني: «هذا رائع. إنك لست صعب المراس. أنا مستعدة للمراهنة على أنه قد مرَّ عليك زمن طويل لم تطع خلاله أحداً».

«لقد ربحت. كيف عرفت؟».

«الأمر سهل. إن الطاعة مثل الأكل والشرب. عندما تتركه ردحاً طويلاً من الزمن يصبح شيئاً فريداً. أليس كذلك، ألست سعيداً لإطاعة أوامري؟».

«بل في غاية السعادة. أنت تعرفين كل شيء».

«إنك تجعل الأمر هيناً. لعل في مقدوري، يـا صديقـي، أن أخـبرك، أيضاً، بما ينتظرك في البيت وما يسبب لك الرعب الشديد، لكنك تعـرف ذلك بنفسك، لذا فلا حاجة بنا إلى التحدث عنه، هه؟ شيء سخيف! إن الإنسان إمـا أن يذهـب ويشـنق نفسـه، وعندئـذ يكـون الأمـر قـد بُـتَّ، وتكون لديه أسبابه الموجبة لذلك، أو أن يستمر في الحياة وعندئذ كل مـا عليه أن يفعله هو أن يهتم بإدارة أسلوب حياته. الأمر بسيط».

هتفتُ: «آه، ليته كان بهذه البساطة. يعلم الله إني انهمكت كثـيراً في القلق بشأن الحياة و لم يفدني ذلك بشيء. لعل الانتحار أمر صعب. لا أدري. أما العيش فأصعب أكثر بكثير، يا إلهي كم هو أشد صعوبة».

«سوف ترى أنه لعب أطفال. لقد قمنا لتونـا بـالخطوة الأولى. لقـد نظفـت نظـارتك، وتنـاولت شـيئاً مـن الطعـام والشـراب. والآن سـوف نذهب لننظف حذاءك وبنطالك وبعد ذلك سوف تراقصني».

هتفتُ في ارتباك: «الآن هذا يبين أنـي كنـت علـى حـق! لا شـيء يحزنني أكثر من عجزي عن تنفيذ أي مـن أوامـرك، لكـني لا أحسـن أداء الرقصة الشيمية، أو الفالس، أو البولكا، ولا أي مـن الأخريـات. إنـي لم أرقص مرة في حياتي. ها أنت ترين أن الأمر ليس بالسهولة التي تظنين».

افترت شفتاها الحمراوان البراقتان عن ابتسامة وهزت بتصميم رأسها ذا الشعر القصير والمتماوج، وبينما كنت أنظر إليها، تهيأ لي أنهـا تشـبه روزا كرايزلر، التي كنت قد عشقتها وأنا فتي. إلا أن بشرتها كانت سمراء وشعرها أسود. لا، لا أذكر بمن ذكرتني. كل ما أعرفه أنه شخص في عهد الشباب الأول والفتوة.

هتفتْ: «انتظر لحظة. أتقول إنك لا تحسن الرقص؟ أبداً؟ ولا حتـى خطوة واحدة؟ ومع ذلك فأنت تتحدث عن المشقة الـتي تكبدتهـا وأنـت تعيش؟ لقد كذبت هنا، يا صاحب، ولا يجدر بك أن تفعل هذا وأنت في

هذه السن. كيف يمكنك أن تقول إنك تكبدت أية مشقة في العيش وأنت ترفض حتى أن ترقص؟».

«ولكن إذا كنت لا أستطيع ـ أنا لم أتعلم قط!».

ضحكتْ.

«لكنك تعلمت القراءة والكتابة والحساب، كما أعتقد، والفرنسية واللاتينية، وأموراً أخرى كثيرة؟ لا مانع لدي أن أراهن على أنك أمضيت في المدرسة عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة ودرست كل ما استطعت دراسته. لعلك حتى حصلت على درجة دكتوراه وتعرف الصينية أوالإسبانية. ألستُ محقة؟ حسن إذن. ولكن لم يتوفر لك الوقت والمال اللازمين لتلقي بضعة دروس في الرقص! لا، حتماً لم تفعل!».

قلت مبرراً نفسي: «الحق على والديّ، لقد دفعاني إلى دراسة اللاتينية واليونانية وكل الأشياء الأخرى. لكنهما لم يسمحا لي بتعلُّم الرقص. لم يكن هذا شائعاً بيننا. والديّ نفساهما لم يرقصا مرة في حياتهما».

رمتني بنظرة باردة تماماً، ملؤها الامتعاض، ومرة أخرى ذكّرني شيء في وجهها بعهد شبابي.

«إذن فاللوم كله يجب أن يقع على والديك. هل طلبت منهما أن يسمحا لك بقضاء أمسية في "النسر الأسود"؟ هل فعلت؟ أتقول أنهما قد توفيا قبل زمن بعيد؟ لا مزيد يقال. والآن لنفرض أنك عندما كنت صغيراً كنت مفرط الطاعة بحيث تعذّر عليك أن تتعلم الرقص (وإن كنتُ لا أصدق أنك كنت طفلاً مثالياً)، فماذا كنت تفعل بنفسك طوال كل تلك السنين؟».

اعترفتُ قائلاً: «في الواقع، لا أكاد أعرف ـ لقد درست ، عزفت الموسيقى، قرأت كتباً ألّفت كتباً، سافرت ـ».

«إن لديك وجهات نظر راقية من الحياة. كنت دائماً تقوم بالأعمال الشاقة والمعقدة في حين أنك حتى لم تتعلم الأشياء البسيطة. لم يكن لديك وقت، طبعاً، كانت لديك أمور أكثر إمتاعاً لتقوم بها. حسن، أشكر الله لأني لست أمك. ولكن أن تفعل ما فعلته ومن ثم تقول إنك قد اختبرت الحياة حتى العمق، و لم تعثر على شيء فيها فهو مغالاة مفرطة».

قلت أناشدها: «لا تعنّفيني، أنا أعرف أني مجنون».

«أوه، لا تجعل من آلامك نشيداً. أنت لست مجنوناً، يا بروفيسور. بل لست مجنوناً بنصف المقدار الكافي لإرضائي. ويبدو لي أنك مفرط الذكاء بشكل سخيف، جدير ببروفيسور. خذ قطعة أخرى. يمكنك أن تحكي لي المزيد لاحقاً».

ناولتني قطعة أخرى، رشّتْ عليها بعض الملح، ووضعت بعض المستردة، وأخذت جزءً منها لنفسها، وأمرتني أن آكلها. كنت مستعداً لتنفيذ كل ما تطلبه مني فيما عدا الرقص. كان يريحني أيما راحة أن أنفذ كل ما تأمرني به، وأن أجد من يجلس إلى جانبي ويُصدر إليّ الطلبات والأوامر ويعنّفني. ولو أن البروفيسور أو زوجته قد فعلا هذا معي قبلها بساعة أو ساعتين، لوفر ذلك عليّ الكثير من المتاعب. ولكن لا، إن سير الأمور هكذا أفضل. وإلا كان فاتني الكثير.

فجأة سألتني: «ما اسمك؟».

«هاري».

«هاري؟ يا له من اسم صبياني. وأنت ما زلت طفلاً صغيراً يا هاري، على الرغم من الشعرات القليلة البيضاء. أنت طفل وتحتاج إلى من يعتني بك. لن أعود إلى ذكر الرقص. ولكن أنظر إلى شعرك! أليست لديك زوجة، أو حبيبة؟».

«لم تعد لدي زوجة. نحن مطلقان. أما عن الحبيبة، فنعم ولكنها لا تقيم هنا. إنني لا أراها كثيراً. علاقتنا لا تسير سيراً حسناً».

صفّرتْ بصوت خافت.

«لا بد أنك رجل صعب المراس حتى لا يخلص لك أحد. ولكن قل لي الآن ما الخطب بالضبط الذي حصل هذا المساء؟ ما الذي دفعك إلى أن تركض محموماً كالفاقد عقله؟ هل تورطت في عراك؟ أم خسرت في ورق اللعب؟».

لم يكن من السهل شرح هذه النقطة.

باشرت بالقول: «في الواقع، لقد كانت مسألة تافهة تماماً. فقد تلقيت دعوة لتناول العشاء مع أستاذ جامعي ـ وبالمناسبة، أنا لست أستاذاً ـ والحق أنه ما كان يجب قط أن ألبي الدعوة. لقد فقدت عادة الاندماج مع الآخرين والانخراط في الأحاديث. لقد نسيت كيف أفعل ذلك. وما إن ولجت المنزل حتى ساورني شعور بأن خطباً ما سيقع، وعندما كنت أعلّق قبعتي على المشجب قلت في نفسي إنني ربما أريده أن يقع بأسرع مما أتوقع. وفي منزل البروفيسور كانت هناك صورة شخصية موضوعة على الطاولة، صورة رديئة. أزعجتني ـ».

قاطعته قائلة: «أي صورة؟ وتقول إنها أزعجتك ـ لماذا؟».

«في الحقيقة كانت صورة تمثل غوته، غوته الشاعر، أنت تعرفينه. لكنها لم تكن تشبهه في شيء. وطبعاً هذا أمر لا أحد يعرفه بالضبط. فقد توفي قبل مئة سنة. مهما يكن، كان أحد الرسامين المعاصرين قد رسم صورة له كما تخيله وجمّله، وهذه الصورة أزعجتني. أثارت اشمئزازي التام. ولا أدري إن كان في وسعك أن تفهمي ذلك».

«بل أفهم تماماً. لا تقلق، تابع».

«على كل حال، قبل ذاك اللقاء لم أكن قد قابلت البروفيسور. وقد كان، ككل أساتذة الجامعة تقريباً، وطنياً كبيراً، وخلال الحرب قام بواجبه على شكل خداع الناس، وطبعاً بكل النوايا الحسنة. غير إني مناهض الحرب. ولكن، ما علينا. فلأواصل قصتي. و لم تكن بي أي حاجة إلى أن أنظر إلى الصورة -».

«حتماً لا».

«إنها جعلتني أرثي لحال غوته، الذي أحبه حباً جماً، ثم إنني قلت في نفسي - الأفضل أن أعبر بالضبط عن رأيي أو شعوري. لقد كنت جالساً مع أناس كواحد منهم ومعتقداً أن رأيهم في غوته مثل رأيي فيه، وإني أتصوره كما يتصورونه، وإذا بتلك اللوحة السقيمة، الزائفة، العديمة الذوق تقف هناك وهم يعتقدون أنها جميلة وليست لديهم أدنى فكرة عن أن روح تلك اللوحة وروح غوته يقفان على طرفي نقيض. لقد رأوا أنها صورة ممتازة، ولا يهمني رأيهم في هذا، أما أنا فرأيت أنها قد وضعت حداً باتاً قاطعاً لأي ثقة، أي علاقة صداقة، أي شعور بالإلفة كان يمكن أن أكنه لأولئك البشر. وعلى أي حال، فإن صداقتي معهم لم تتوطد كثيراً. وهكذا ثار غضبي وحزني، أيضاً، عندما وجدتني وحدي ولا أحد يفهمني. أتدركين ما أعني؟».

«من السهل جداً إدراكه. وماذا بعد. هل رميتهم بالصورة؟».

«لا، إني أهنتهم ومن ثم غادرت المنزل. وأردت أن أتوجه إلى بيتي، ولكن -».

«ولكنك شعرت أنك لن تجد هناك أي مومياء لتواسي الطفل الأحمق وتعنّفه. يجب أن أقول، يا هاري، أنك تكاد تجعلني أرثي لحالك. إني لم أقابل قط طفلاً مدلّلاً مثلك».

بدا لي أن عليَّ أن أعترف بذلك. وناولتني كأساً من النبيذ لأشربه. والحقيقة هي أنها كانت كالأم بالنسبة إليّ. وإن كنت قد لاحظت، من خلال نظرة سريعة كنت ألقيها عليها بين حين وآخر، أنها صغيرة جداً وجميلة جداً.

باشرتْ تقول من جديد: «إذن، غوته مات قبل مئة عام، وأنت مولع به، وتحمل في مخيلتك صورة رائعة لما يمكن أن يكون عليه شكله، وأعتقد أن هذا من حقك. لكن الفنان الذي يعبد غوته أيضاً، وينفّذ صورة له، لا يحق له أن يفعل ذلك، ولا البروفيسور، ولا أي إنسان آخر ـ لأنك لا تحب هذا، تجده شيئاً لا يطاق. وكان لا بد أن تكون مهيناً وأن تغادر المنزل. ولو كنت تتمتع بحس تقدير، لضحكتَ من الفنان ومن البروفيسور ـ لضحكتَ وانتهيت من الأمر. ولو كنتَ فاقداً لوعيك، لهشّمت الصورة على وجوههم. ولكنك بمجرد طفل صغير، تهرع راكضاً إلى البيت لكي تنتحر. إنني أفهم قصتك فهماً جيداً يا هاري. إنها قصة مضحكة. لقد جعلتني أضحك. ولكن لا تسرع في الشرب. البرغندي يجب رشفه رشفاً، وإلا ارتفعت حرارتك. ولكن لا بد من أن تُلقَّن كل شيء ـ ككل طفل صغير».

وجَّهت لومها إليّ وهي ترميني بنظرة جديرة بأن تصدر عن مربية قاسية في الستين من العمر.

قلت راضياً: «أوه، أعرف هذا. هيا واصلي تلقيني».

«ماذا أقول لك؟».

«كل ما ترغبين في قوله لي».

«عظيم. إذن سأقول لك شيئاً. إنني منذ ساعة أخاطبك مع رفع الكلفة، وأنت تتكلف في مخاطبتي. إنك دائماً متأثر باللغة اللاتينية واليونانية، دائماً مصقول قدر الإمكان. عندما تخاطبك فتاة بمودة وتجد

أنها لطيفة معك، فيجب أن تعاملها بالمثل. ها أنت ذا قد تعلمت شيئاً. وثانياً ـ إنني منذ نصف ساعة أعرف أن اسمك هو هاري. أعرفه لأني سألتك عنه. ولكنك لا تأبه بمعرفة اسمي».

«أوه، ولكن صدقاً ـ أحب كثيراً أن أعرفه».

«لقد تأخرت كثيراً! إذا تقابلنا ثانية، يمكنك أن تسألني عندئذ. أما هذا اليوم فلن أخبرك به. والآن سأذهب لأرقص».

لحظة قرَّرتْ أن تنهض واقفة، غاص قلبي كقطعة من رصاص. أرعبتني فكرة أن تذهب وتتركني وحدي، فعندئذ ستعود إليّ الحالة السابقة. وللتو تملكني الرعب القديم والشعور بالبؤس مثل ألم الأسنان الذي يختفي ومن ثم يعود فجأة ليحرق كالنار. ولكن آه، يا إلهي، هل كنت عندئذ قد نسيت ما كان في انتظاري؟ هل تغير كل شيء؟.

ناشدتها: «قفي لا تذهبي. طبعاً يمكنك أن ترقصي، وقدر ما تشائين، ولكن لا تطيلي غيابك. عودي ثانية. عودي ثانية».

ضحكت وهي تنهض واقفة. تخيلتها أطول قامة. كانت نحيلة ولكن ليست طويلة القامة. ومرة أخرى وجدتها تذكرني بشخص ما. بمن؟ لم أتذكر.

«ستعودين؟».

«سأعود، لكن ربما ليس قبل نصف ساعة أو ساعة. أريد أن أقول لك شيئاً: أغمض عينيك ونم قليلاً. هذا ما تحتاجه».

أفسحت لها مجالاً لتعبر. حفَّ طرف ثوبها بركبتيّ وألقت أثناء مرورها، نظرة إلى نفسها في مرآة جيب صغيرة، ورفعت حاجبيها، وضمخت ذقنها بالبودرة، ومن ثم اختفت داخل صالة الرقص. ورحت أتلفت فيما حولي، وجوه غريبة، رجال يدخنون، بيرة مسفوحة على السطوح الرخامية، قرقعة وصخب في كل مكان، والموسيقى الراقصة

تضج في أذني. قالت إن عليّ أن أنام. آه، يا صغيرتي الطيبة، إنك تعرفين الكثير عن طبيعة نومي الأشد مراوغة من ابن عرس. أنام وسط هذا الهرج والمرج، وأنا جالس عند طاولة، بين قرقعة قدور البيرة! رحت أرشف النبيذ، وأخرجت سيجاراً، وتلفّتُ فيما حولي بحثاً عن كبريت، ولكن لما لم تكن بي أي رغبة في التدخين، وضعت السيجار على الطاولة أمامي. كانت قد قالت لي "أغمض عينيك". يعلم الله من أين لتلك الفتاة صوتها ذاك، صوت شديد العمق ومريح وأمومي. كان مريحاً إطاعة مثل ذاك الصوت، اكتشفت ذلك لتوي. أغمضت عينيّ طائعاً، اتكأت برأسي على الجدار وسمعت هدير مئة نوع من الضجيج الممزوج يصطخب من حولي وابتسمت لفكرة النوم في مثل ذاك المكان. ومن ثم قررت أن أذهب إلى باب صالة الرقص لألقي نظرة من هناك على فتاتي الجميلة وهي ترقص. وقمت بحركة أهمُّ أن أذهب، ثم شعرت أخيراً كم كنت مستنزفاً من فرط التعب من طول ما طفت فلزمت مقعدي؛ وعلى الأثر استغرقت في النوم كما أُمِرت. نمت نوماً نهماً، ممتناً، وحلمت أحلاماً خفيفة، ممتعة، كما لم أحلم منذ مدة طويلة.

حلمت أني جالس أنتظر في غرفة انتظار. في أول الأمر لم أميِّز إلا أن جمهوري على شيء من الرقي. ثم دخل في خلدي أن غوته سيستقبلني. ولسوء الحظ لم أكن موجوداً هناك لتلبية دعوة شخصية. كنت مراسلاً صحفياً، مما سبب لي إزعاجاً شديداً و لم أفهم كيف تورطت في مثل تلك الورطة. ثم إني كنت مضطرباً بوجود عقرب كنت قد رأيته برهة وهو يحاول أن يرتقي ساقي. وكنت قد هززت نفسي لأتخلص من الحيوان الأسود الزاحف. لكني لم أعرف إلى أين ذهب و لم أجرؤ على تعقبه.

أيضاً لم أكن واثقاً كثيراً مما إذا كنت سأدخل خطأ إلى ماتيسن[1] بدل غوته، وخلطت مرة أخرى خطأ في حلمي بين هذا الأخير وبين برغر[2]، لأني ظننته مؤلف قصائد إلى موللي. زيادة على ذلك كنت أود كثيراً لو أقابل موللي. كنت أتخيلها رائعة الجمال. رقيقة، عذبة. ليتني لم أكن موجوداً هنا بناءً على أوامر صادرة من مكتب الصحيفة الملعون ذاك. وازداد نكدي حول هذا إلى أن امتد تدريجياً حتى طال غوته، الذي بتُّ أقترب منه بكل صنوف الريبة واللوم. سيكون لقاءً صحفياً مملوءً حيوية. ولعل العقرب على الرغم من كونه خطراً ومختبئاً بلا ريب في مكان ما داخلي على عمق إنش مني، ليس شريراً جداً. بل لعله قد ينم عن شيء ودِّي. وبدا لي من المحتمل إلى أقصى حد أن له قاسماًمشتركاً مع موللي: فلعله أشبه بحامل رسائل منها ـ أو حيوان يستخدم كشعار، يرمز بإيحاء خطر وجميل إلى المرأة والإثم. أيمكن أن لا يكون اسمه هو فَلْبيوس؟ ولكن في تلك اللحظة فتح أحد الخدم الباب بقوة. فنهضت واقفاً وولجته. وإذا بي أمام العجوز غوته، القصير والشديد انتصاب القامة، وقد علّق على صدره الكلاسيكي، بشكل واضح، نجمة ضخمة لوسام ما. ولم يتخل لحظة عن وقفته المسيطرة، عن هيئةِ مَنْ يخاطب جمهوراً غفيراً، وعن التحكم في العالم من متحفه ذاك الكائن في فايمار. والحق، إنه لم يكن قد نظر إليّ مباشرة من قبل، وباشر بالقول بأسلوبه الطنان، وهو يومئ براسه ويهتز كغراب عجوز: «أعتقد أنكم، معشر الشبان، لا تكنون أي تقدير لنا ولجهودنا».

---

[1] فريدريتش ماتيسن ـ Matthisson.ـ المترجم.

[2] غوتفريد برغر (1747-1794): شاعر غنائي ألماني. ـ المترجم.

قلت، وقد أشاعت نظرته الوزارية القشعريرة في أوصالي: «معك كل الحق، نحن معشر الشبان لا نكنّ فعلاً أي تقدير لكم. فسعادتكم مفرطو الرصانة بالنسبة إلينا، وغاية في التفاهة والغرور، ولا تتحلون بما يكفي من الصراحة. وهذا، بلا شك، هو جوهر المسألة ـ أقصد افتقاركم إلى الصراحة».

طأطأ العجوز القميء رأسه المنتصب إلى الأمام، وعندما ارتخى فمه الصارم بتضاعيفه الرسمية راسماً ابتسامة صغيرة وسرت فيه حياة فاتنة، طفر فجأة قلبي، إذ على الفور قفزت القصيدة إلى ذهني ـ "الغسق ذو الجناحين المطويين" ـ وتذكرت أن تلك القصيدة خرجت من بين شفتي هذا الرجل. والحقيقة أني في تلك اللحظة تجردت من كل أسلحتي وسربلني الارتباك ولو خُيِّرتُ لركعت إجلالاً له. لكني حافظت على انتصاب قامتي وسمعته يقول وهو يبتسم: «أوه، إذن فأنت تتهمني بالافتقار إلى الصراحة؟ يا له من قول! هلاّ وضحت كلامك أكثر؟».

الحق لقد سرني أيما سرور أن أفعل ذلك.

«لقد ميَّزت، ياهر فون غوته، بوضوح وشعرتَ، ككل العظماء، بلغز الحياة الإنسانية وعبثها، بلحظات سموّها التي تعود لتغوص إلى درك البؤس، واستحالة ارتفاعها إلى ذروة شعور مؤاتية واحدة إلا بعد دفع ثمنها أياماً عديدة من الرضوخ لاستعباد الكدّ اليومي؛ ومن بعده الاشتياق المتقد لعالم الروح في حربها الأبدية المبيدة مع الحب المقدس الذي لا يقل اتقاداً لبراءة الطبيعة الضائعة، وكل الحيرة المخيفة وسط الخواء والضياع، هذا الشجب للزائل الذي لا يمكن أن يغدو فعالاً، التجريبي دائماً، والمؤقت؛ باختصار، الفقدان التام للهدف المحكوم به الوضع الإنساني ـ حتى درجة اليأس المهلك. لقد عرفتَ هذا كله، نعم، وتحدثتَ بالقدر نفسه وكررت القول، غير أنك كرّستَ حياتك بأكملها للتبشير بعكسه،

منادياً بالإيمان وبالتفاؤل وناشراً أمامك وأمـام الآخرين وهمـاً مفـاده أن لكفاحنا الروحي مغزى ما، وأنه باق. لقد صَمَمْـتَ أذنيـك دون أولئـك الذين سبروا الأعماق وخنقت الأصوات التي جهرت بحقيقة اليأس، ليـس فقط داخلك أنت، بل أيضاً داخل كلايست[1] وبتهوفن. ومرت السنون وبعدها سنين وأنت تقيم في فايمار تكدّس المعرفة وتجمع الأشـياء، تكتـب الرسائل وتجمّعهـا، وكـأنك أسسـت خـلال سنين شيخوختك السـبيل الحقيقي لاكتشاف الأبدي في اللحظي، وإن كل ما فعلته هو أنك حنّطتـه، ولإضفاء الروحيّ على الطبيعة وإن كل ما فعلته هو أنك أخفيتها تحت قنـاع جميل, ولهذا ترانا نتهمّك بالنفاق».

ثبّت العجوز العظيم عينيه المتأملتين على عينيّ، مبتسماً كما كان.

فوجئـت عندمـا سـألني: «إذن فـلا بـد أن لـك اعتراضـاً شـديد اللهجة على "الناي السحري" لموتسارت؟».

قبل أن يتاح لي أن أبدي اعتراضاً، تابع قائلاً:

«إن "النـاي السـحري" تقـدّم الحيـاة لنـا كأغنيـة معجـزة. إنهـا تشرّف مشاعرنا، وهي العابرة، وتجعلهـا سـرمدية وقدسـية. وهـي لا تتطابق مـع هـر فـون كلايسـت، ولا مـع هـر بتهوفـن. إنهـا تصـدح بالتفاؤل وبالإيمان».

هتفت حانقاً: «أعرف، أعرف. يعلم الله لمـاذا اخـترت أن تضـرب على وتر "الناي السـحري" الأثـيرة لـديّ دون كـل الأشياء الأخـرى في العالم. لكن موتسارت لم يعش حتى بلغ الثانية والثمـانين. وهـو لم يعتـبر نفسه عالي الأهمية! لقد صدح بألحانه القدسية ثـم مـات. مـات شـاباً ـ فقيراً ومُساء فهمه ـ».

---

[1] هاينريش فون كلايست (1777-1811): كاتب مسرحي، وشاعر وقاص ألماني. ـ المترجم.

كنت ألهث. كان لا بد أن أقول ألف شيء ضمن حدود عشر كلمات. وأخذ العرق يتفصد من جبيني.

إلا أن غوته قال بودّ جم: «لعل ما لا يغتفر لي أني عشت حتى سن الثانية والثمانين. لكن ارتياحي إلى هذا كان أقل مما قد تظن. وأنت محق في أن توقي العارم إلى البقاء كان دائماً يتملكني. وكنت في حالة خوف متواصل وصراع مع الموت. وأعتقد أن الصراع لمكافحة الموت، والتصميم العنيد وغير المشروط على العيش، هما القوة الدافعة الكامنة خلف حياة ونشاطات كل الرجال البارزين. لقد بيّنت لي سنواتي الاثنتين والثمانين بشكل حاسم أن علينا جميعاً أن نموت في نهاية المطاف، وكأني قد متّ وأنا تلميذ مدرسة. وأود أن أضيف، إنْ كان ذلك يساعد في تبرير موقفي، ما يلي: ثمة الكثير من سمات الطفل في فضولي الفطري وحبي لهدر الوقت في اللعب. واستمر الحال على هذا المنوال، إلى أن وجدت أنه لا بد للعب أن ينتهي إن عاجلاً أو آجلاً».

كانت ابتسامته، وهو يقول هذا، ماكرة جداً ـ تتسم بخبث لئيم لا لبس فيه. وكانت قامته قد استطالت أكثر واختفى انتصاب وقفته ووقار وجهه المتكلّف. حتى الجو الذي كان يحيط بنا أصبح الآن يضج بالأنغام، وكلها أغان من وضع غوته. سمعت "البنفسج"[1] لموتسارت و"ها أنت من جديد تزدهرين في الأجمة والوادي" لشوبرت بوضوح تام. وتورّد وجه غوته وامتلأ شباباً، ثم ضحك، وبات تارة يشبه موتسارت كأنه أخوه، وأخرى شوبرت، وكانت النجمة المعلقة على صدره مؤلفة كلها من أزهار برية، وقد تفتحت في وسطها زهرة ربيع صفراء بكامل ازدهارها.

---

[1] البنفسج: مجموعة قصائد لغوته حولها موتسارت إلى أغان. وتصنيفها في مؤلفاته k 476. ـ المترجم.

لم يكـن يناسـبني بشـكل عـام أن يتجنـب السيد العجـوز أسـئلتي واتهاماتي بهذه الـروح الرياضيـة، ورميته بنظـرة مؤنبـة. وقـد رد عليهـا بانحناءة إلى الأمام ثم قرب فمه، الذي كان قد غـدا عندئـذ أقـرب شبهاً بفم طفل، من أذني وهمس برقة قائلاً: «أنت تعـامل غوتـه بجدية مبـالغ فيها، يا صديقي الشاب. عليك أن لا تعـامل العجـائز الذيـن توفـوا منـذ زمن بجدية. نحن نحب المزاح. إن الجدية أيها الشـاب، هـي نكبـة الزمـن. وهي تتألف، ولا بأس في أن أفضي إليك بذلك سـراً، مـن إعطـاء الزمـن أكثر مما يستحق من القيمة. أنا أيضاً أضفيت ذات مرة على الزمن أهميـة زائدة. ولذلك السـبب تمنيـت لـو أعمّر مئة سنة. ولكـن في الأبديـة لا وجود للزمن، في الحقيقة. الأبدية لحظة، تكفي لإطلاق نكتة».

الحق لم يعد هناك أي مجال لقول كلمة جدية واحدة أخرى للرجل. وراح يطفر فرحاً وبرشاقة في طول المكان وعرضـه ويجعـل زهـرة الربيـع تنطلق من نجمته مثل قذيفة ومن ثم يجعلها تنكمش وتختفـي. وبينمـا هـو يخفق جيئة وذهاباً بخطواته الراقصـة وحركاتـه المتنوعـة، لم يسـعني إلا أن أظن أنه على الأقل لم يهمل تعلّم الرقص. وكان يبرع فيـه. ثـم تذكـرت العقرب، أو بالأحرى، موللي، وهتفت لغوته: «قل لي، أموللي هنا؟».

ضج غوته بالضحك، وتقدم من طاولتـه وفتـح أحـد أدراجهـا، ثـم أخرج صندوقاً جميلاً ملبّساً بالجلد أو بالمخمل، وفتحه وقربـه مـن عينيّ. وإذا بي أرى هناك تمثـالاً مصغـراً، صغيـر الحجـم، لا عيـب فيـه ولامعـاً، لساق امرأة موضوعة علـى مخمـل قـاتم اللـون، سـاق رائعـة، ذات ركبـة صغيرة مثنيّة والقدم تشير إلى الأسفل لتنتهي بأرقّ أصابع قدمين.

مـددت يـدي، لأن حـب السـاق الصغيرة الطـاغي وقـع في نفسـي ورغبت في الحصول عليها، ولكن حالما هممت بالإمساك بها بين إصبعي وإبهامي بدا وكأن الدمية قد تحركت بطفرة واهيـة وخيـل إلي فجـأة أنـه

ربما كان العقرب. ويبدو أن غوته استشف ما يجول بخاطري بل حتى رغب في أن يسبب لي هذا الخوف العميق، هذا الصراع المحموم بين الرغبة والخوف. وحمل العقرب الصغير المزعج وقرَّبه من وجهي وراح يراقبني وأنا أندفع إلى الأمام تحدوني الرغبة، ثم أجفل متراجعاً رعباً، وبدا أن هذا يسليه أيّما تسلية. وبينما كان يزعجني بالشيء الفاتن، الخطر، إذا به يصبح عجوزاً من جديد، عجوزاً جداً جداً، كأن عمره ألف عام، وشعره أبيض كالثلج، ووجهه العجوز الذاوي يضحك ضحكاً ساكناً أخرس كان يهزه من الأعماق بحس فكاهي عجوز مطبق.

عندما استيقظت كنت قد نسيت الحلم، ولم أستعده إلا لاحقاً. وكنت قد نمت ما يقارب الساعة، ولم يخطر ببالي قط أنه كان في إمكاني أن أستغرق في النوم على طاولة مقهى والموسيقى تصخب في كل مكان من حولي. كانت الفتاة العزيزة واقفة أمامي وهي تضع إحدى يديها على كتفي.

قالت: «إعطني ماركين أو ثلاثة، لقد أنفقت بعض النقود هناك».

أعطيتها محفظتي، فأخذتها وسرعان ما عادت.

«حسن أستطيع الآن أن أقضي معك بعض الوقت وبعد ذلك عليّ أن أرحل. لدي موعد».

فزعت.

سألتها بسرعة: «مع من؟».

«مع رجل، يا عزيزي هاري. لقد دعاني إلى بار أوديون».

«أوه! لم يخطر ببالي أنك سوف تتركيني وحدي».

«إذن كان عليك أن تدعوني بنفسك. لقد دخل أحدهم على الخط قبلك. حسن، لقد وفرت مبلغاً محترماً من المال. هل تعرف الأوديون؟ لا يقدمون إلا الشمبانيا بعد منتصف الليل. وهناك مقاعد بذراعين كما في النوادي، وفرقة موسيقية من السود، وجو رائع».

لم أكن قد فكرت في كل ذلك.

استعطفتها قائلاً: «لكن دعيني أدعوك. حسبت أن ذلك أضحى بديهياً، بعد أن أصبحنا أصدقاء. إدعي نفسك إلى أي مكان تشائين. إفعلي، أرجوك، أتوسل إليك».

«هذه لفتة لطيفة منك. ولكن، في الواقع، وعد الحر دينٌ عليه، وقد أعطيت كلمتي وسوف أفي بها وأذهب. وكف عن القلق حول هذا الموضوع. إشرب كأساً أخرى من النبيذ. مازال هناك بعض منه في الزجاجة. اجرعه ثم اذهب بكل ارتياح إلى المنزل ونم. عدني بأن تفعل».

«لا، أنت تعلمين أني لا أستطيع أن أفعل هذا ـ أن أذهب إلى البيت».

«أوه ـ تباً لك ـ ولحكاياتك! ألن تنتهي أبداً ـ من صاحبك غوته؟». (عاودني في تلك اللحظة الحلم الذي يدور حول غوته).

«ولكن إذا كان من المتعذر عليك أن تذهب إلى البيت، ابق هنا، ثمة غرف نوم. هل أحجز واحدة لك؟».

أقنعني هذا الاقتراح وسألتها أين يمكن أن أجدها ثانية؟ أين تقطن؟ فرفضت أن تخبرني. وقالت إني سأعثر عليها في مكان ما إذا ما بحثت.

«هل لي أن أعزمك إلى مكان ما؟».

«أين؟».

«في المكان والزمان الذي تختارين».

«عظيم. فليكن يوم الثلاثاء على العشاء في مقر الفرنسيسكان القديم. الطابق الأول. إلى اللقاء».

مدّت لي يدها. لاحظتُ ولأول مرة إلى أي حد تتماشى مع نبرة صوتها ـ يد جميلة، قوية وتدل على الذكاء والود. وعندما قبّلتها ضحكت مني.

ثم وفي اللحظة الأخيرة التفتت إليّ مرة أخرى وقالت: «سأقول لك شيئاً آخر ـ عن غوته. إن شعورك نحوه واعتبارك أن صورته لا تطاق، هما صفتان غالباً ما أجدهما في القديسين».

«قديسون؟ أأنت متدينة إلى هذا الحد؟».

«لا، لست متدينة، يؤسفني أن أقول هذا. ولكني كنت كذلك ذات يوم وسأعود إلى ذلك. لم يعد هناك وقت الآن للتديُّن».

«لا وقت. وهل يتطلب التديُّن وقتاً؟».

«آه، نعم. فلكي تصبح متديناً يجب أن يتوفر لديك الوقت، ويجب، زيادة على ذلك، أن تكون مستقلاً عن الزمن. إذ لا يمكنك أن تكون متديناً جدياً وفي الوقت نفسه أن تعيش الأحداث الواقعية وتظل تتعامل معها بجدية، الزمن والمال وبار أوديون وكل ذلك».

«نعم، أفهم هذا، ولكن ما ذاك الذي قلته عن القديسين؟».

«حسن، هناك العديد من القديسين وأنا مولعة خاصة بـ ـــ ستيفن، والقديس فرنسيس وآخرين. وكثيراً ما أشاهد صوراً لهم وللمخلّص وللعذراء ـ كلها صور كاذبة وزائفة وسخيفة ـ وأنا لا أطيقها كما أنت لا تطيق النظر إلى صورة غوته. وعندما أشاهد إحدى تلك الصور الحلوة السخيفة التي تمثل المخلّص أو القديس فرنسيس وأرى كيف يجدها بقية الناس جميلة ومثقّفة للنفس، أشعر أن ذلك إهانة موجهة إلى المخلّص الحقيقي، وتدفعني إلى أن أفكر قائلة: لماذا عاش وتألم آلاماً مبرحة إذا كان الناس يجدون صورة بهذه السخافة كافية لهم! ولكن على الرغم من ذلك أعرف أن الصورة التي أحملها في مخيلتي للمخلّص أو للقديس فرنسيس ما هي إلا صورة من صنع بشر وتقلّ قيمة بكثير عن الأصل، وأن المخلّص ذاته خليق أن يعتبر الصورة التي أحملها له في داخلي لا تقل سخافة عما أراه في تلك النسخ السقيمة. وأنا لا أقول هذا لأبرر نزقك

وحنقك على صورة غوته. ليس هناك أي تبرير. إنكم معشر المثقفين والفنانين تحملون، بلا ريب، كافة أنواع الأفكار السامية، لكنكم بشر مثلنا جميعاً، ونحن أيضاً، لدينا أحلامنا، وأخيلتنا. فقد لاحظت، مثلاً، يا سيدي المثقف، أنك شعرت بشيء من الحرج عندما بدأت تحكي لي قصتك عن غوته. وقد بذلت جهداً عظيماً لتوضح أفكارك لفتاة بسيطة مثلي. وهكذا تراني أريد أن أبين لك أنه ما كنت بحاجة إلى أن تبذل كل ذاك الجهد. إنني أفهمك فهماً تاماً. والآن ها أنا قد أفضيت بكل ما لدي ومكانك الآن هو السرير».

مضت وصحبني بواب عجوز وارتقينا مجموعتين من الدرج. غير أنه سألني أولاً عن أمتعتي، وعندما سمع أني لا أحمل شيئاً منها، اضطررت إلى أن أدفع ما يسمى بـ"أجرة النوم". ثم صعد بي درجاً مظلماً قديماً يؤدي إلى غرفة علوية وتركني وحدي. كان هناك سرير خشبي كئيب وقد عُلّق على الجدار سيف مبارزة ولوحة ملونة تصوِّر غاريبالدي وأيضاً إكليل ذابل كان ذات مرة قد ظهر في مهرجان أحد الأندية. وكنت مستعداً أن أدفع مبلغاً كبيراً مقابل منامة. وعلى أي حال كان هناك ماء ومنشفة صغيرة وتمكنت من الاغتسال. ثم تمددت على السرير وأنا بثيابي الكاملة، ثم تركت النور مضاءً واستسلمت لتأملاتي. ها قد سويت أمري مع غوته. إن مجيئه إليّ في الحلم أمر مذهل. وهذه الفتاة الرائعة ــ ليتني فقط عرفت اسمها! ها قد ظهر أمامي فجأة مخلوق بشري، مخلوق بشري حي، وهشّم الموت الذي كان قد جثم فوقي كصندوق زجاجي، ومدّ لي يده، يد خيِّرة، جميلة ودافئة. هكذا فجأة عثرت من جديد على أشياء تثير اهتمامي، أستطيع أن أفكر فيها بفرح واشتياق. هكذا فجأة فتح باب بقوة وولجت منه الحياة. لعل في مقدوري أن أعيش من جديد وأن أعود من جديد كائناً بشرياً. وروحي التي كانت قد استغرقت في

سبات عميق وسط البرد وكادت تتجمد عادت تتنفس من جديد، وراحت تنشر جناحيها الصغيرين الواهنين بحركة ناعسة. لقد كان غوته معي. لقد أمرتني فتاة أن آكل وأشرب وأنام، وأبدت لي مودة وضحكت مني وخاطبتني بالولد الصغير الأحمق. وهذه الصديقة الرائعة حدثتني عن القديسين، وبيّنت لي أنه حتى بعد أن تفوقت على نفسي في السخافة فإني لم أبق وحدي. وإني لم أكن استثناءً مريضاً ومبهماً. وثمة أناس يشبهونني. وثمة من يفهمني. فهل سأراها مرة أخرى؟ نعم، بلا ريب. ويمكن الاعتماد عليها. و"وعد الحر دين عليه".

سرعان ما استغرقت في النوم من جديد ونمت أربع ساعات أو خمساً. وعندما استيقظت كانت الساعة قد قاربت العاشرة. وكانت ملابسي قد تمعجت. وشعرت بإرهاق تام. كانت ذكرى رعب الأمس شبه المنسي ماتزال عالقة بذهني، ولكني كنت أملك الحياة، والأمل وأفكاراً متفائلة. ولدى رجوعي إلى غرفتي لم يمسّني شيء من ذاك الرعب الذي كانت عودتي تخبئه لي بالأمس. وعلى الدرج وفوق نبات الأروكاريا قابلت "العمة"، صاحبة المنزل. وكنت نادراً ما أراها لكن روحها الطيبة كانت دائماً تبهجني. ولم يكن اللقاء مبشراً كثيراً بالخير، فقد كان مظهري مايزال مهملاً وشعري شعثاً بعد قضاء ليلتي في الخارج، ولم أكن قد حلقت ذقني. وحييتها وكدت أتابع طريقي. وفي العادة كانت دائماً تحترم رغبتي في أن أعيش وحدي بعيداً عن العيون. ولكن اليوم، كما اتضح، بدا أن الحجاب الذي كان قائماً بيني والعالم الخارجي قد تمزق، وانهار الحاجز. وضحكتْ وتوقفتْ.

«أراك كنت تقضي وقتاً مرحاً يا سيد هاللر. أنت لم تنم في سريرك ليلة أمس. لا بد أنك مرهق من فرط التعب!».

قلت: «نعم»، واضطررت إلى أن أضحك بدوري. «كانت هناك حفلة مرحة ليلة أمس، ولما لم أرغب في أن أفزعك، نمت في الفندق. إن احترامي لراحتك وتوقيري لمنزلك عظيمين. إنني أحياناً أشعر كأني "كيان دخيل" فيه».

«إنك تسخر، يا سيد هاللر».

«فقط من نفسي».

«يجب أن لا تفعل حتى هذا. يجب ألا تشعر حتى كأنك "كيان دخيل" وأنت في منزلي. يجب أن نعيش بالشكل الذي يوفر لك أقصى سعادة وأن تبذل أقصى جهدك في ذلك. لقد استقبلتُ العديد من النزلاء المحترمين جداً. يمثلون دور الاحترام، ولكن أحداً منهم لم يبزّك في هدوئك وقلّة إزعاجه لنا. والآن ـ ما رأيك بشرب بعض الشاي؟».

لم أرفض. قُدِّم الشاي في غرفة جلوسها ذات الصور العتيقة الطراز والأثاث، وتبادلنا حديثاً قصيراً. وانتزعتْ بأسلوبها الودي، نُتفاً عن حياتي وأفكاري بدون أن تطرح أسئلة وأنصتتْ بانتباه إلى اعترافاتي. في حين أنها في الوقت نفسه لم تولها من الاهتمام أكثر مما يجدر بامرأة ذكية في مقام الأم أن توليه لنقاط ضعف الرجال. وتحدثنا أيضاً، عن ابن أخيها وأرتني في غرفة مجاورة آخر هواياته، جهاز راديو. فهناك كان الشاب المجدّ يقضي لياليه وهو يركّب الجهاز معاً، وهو المفتون بالراديو، ويركع على ركبتين ورعتين أمام إله العلم التطبيقي، الذي أتاح لنا بفضل قدرته أن نكتشف بعد مضي آلاف السنين حقيقةً لطالما عرفها كل مفكر ووضعها في موضع التطبيق العملي بشكل أفضل مما حدث خلال فترة هذا التطور الحديث والمنقوص كثيراً. وتحدثنا عن ذلك، لأن العمة لم يكن لديها أي ميل إلى التقوى و لم تكن ترحب بطَرْق المواضع الدينية. فقلت لها إن الحضور الكلي لكل القوى والحقائق كان معروفاً حق المعرفة

للهند القديمة، وإن التكنولوجيا لم تضع قيد التطبيق العام إلا قدراً ضئيلاً من هذه الحقيقة، وذلك بأن ابتكرت لها، أي للأمواج الصوتية، جهازاً مستقبلاً ومرسلاً لا يزال في مراحله الأولى ومتخلفاً إلى حد كبير. والحقيقة الأساسية المعروفة لدى تلك الدراية القديمة كانت، كما قلت، لا واقعية الزمن. وهذا العلم لم ينتبه إليه أحد بعد. وسوف يتم إحراز هذا "الاكتشاف" أيضاً، أخيراً، وعندئذ سوف ينكبُّ المخترعون عليه. وسوف يُكتشف وربما قريباً جداً ـ أن حولنا تطفو ليس فقط صور وأحداث الحاضر العابر بالطريقة نفسها التي تُسمع بها الآن الموسيقى الصادرة من باريس أو برلين في فرانكفورت أو زيوريخ، وإنما يمكن تسجيل كل ما حدث في الماضي واسترجاعه أيضاً. ويمكننا أيضاً أن نتطلّع إلى اليوم الذي نسمع فيه، بأسلاك أو بدونها، بتشويش من أصوات أخرى أو بدونه، الملك سليمان يتكلم، أو فالتر فون در فوغلفايده[1]. وكل هذا، كما قلت، وكما يحدث هذه الأيام مع بدايات الراديو، لن يخدم الإنسان إلا كوسيلة للهروب من نفسه، ومن أهدافه الحقيقية، وكأسلوب لإحاطة نفسه بشبكة تلتصق به باضطراد من وسائل اللهو والنشاطات التافهة. ولكن بدل أن أخوض في هذه المواضيع المألوفة على عادتي بمرارة وبالسخرية من العصر ومن العلم، رحت أضحك منها، وابتسمت العمة، وبقينا جالسين هكذا معاً ساعة أو نحوها وشربنا الشاي باستمتاع جمّ.

دعوتُ الفتاة الرائعة والفاتنة التي قابلتها في "النسر الأسود"، في أمسية يوم الثلاثاء التالي، وكنت حائراً لا أدري كيف أمضي الوقت حتى ذلك الحين، وعندما حل يوم الثلاثاء أخيراً، أضحت أهمية علاقتي

---

[1] فالتر فون در فوغلفايده (1170؟ - 1230؟): شاعر غنائي ألماني.

بهذه الفتاة المجهولة جليّة لي بشكل مفـزع. لم أعـد أفكـر إلا فيهـا. يـت أتوقع أي شيء منها. كنت مستعداً أن أضع كل شيء عنـد قدميهـا. ولم أكن بأي حال عاشقاً لها. ولكن كان يكفي أن أتخيل أنها لن تتمكن من تلبية دعوتي، أو أن تنسى أمرها، حتى تتضـح لي حقيقـة حـالتي. عندئـذ يعود العالم صحراء قاحلة من جديد، أياماً متشابهة في كآبتهـا وعبثهـا، ويكتنفني من جديد سكون الموت والبؤس من كل جـانب حتـى لا أجـد لي مهرباً من جحيم الصمت هذا إلا بواسطة الموسى. وتلك الأيام القليلة لم تدفعني إلى التفكير بحماقة باللجوء إلى الموسى. فلم يكن قد فقـد شيئاً من تأثيره المرعب. والحقيقة البغيضة كانت ما يلي: كنت أرتعب مـن أن أحزَّ عنقي رعباً سحق قلبي. فقد كان خوفي عنيفاً وعضالاً وكـأني أوفـر الناس صحة وكأن حياتي جنة. وأدركت حقيقة وضعـي بتهـور وبـدون أي وهم. أدركت أن التوتر الذي لا يطـاق المتولـد عـن عجـزي عـن أن أحيا وعجزي عـن أن أمـوت هـو الـذي جعـل الفتـاة المجهولـة، الراقصـة الجميلة في "النسر الأسود"، مهمة بالنسبة إليّ. لقد كانت المنفذ الوحيـد، الشق الصغير الوحيد الذي يتسرب منـه النـور إلى جحـر رعـبي الأسـود. كانت انعتاقي وسبيلي إلى الحرية. كان عليها أن تعلمني كيـف أعيـش أو كيف أموت. كان عليها أن تواسي قلبي المرتاع بلمسة مـن يدهـا القويـة والجميلة، وعندما تلمسني الحياة كانت إما ستقفز عائدة إلى اللهب أو أن تخمد وتغدو رماداً. ولم أستطع أن أتصور من أين استمدَّت تلك القـوى، ومصـدر سـحرها، وفي أي تربـة سـرية نمـا هـذا المغزى العميـق الـذي أصبحت تمنحنيه، ولا كان ذلك هاماً. ولا اكترثت بمعرفته. فلم يعد لأي معرفة أو إدراك يمكنني الحصول عليهما أقل أهمية. والحق لقد كان لـدي منهما الشيء الكثير، لأن الخزي الذي كنت أرزح تحت وطأته يكمن في هذا بالذات ـ في أني رأيت وضعي بجلاء تام، وكنت على وعي عالٍ بـه.

رأيت ذئب السهوب هذا، هذا التعس، هذا البهيمي، أشبه بذبابة واقعة في شرك، ورأيت أيضاً اقتراب الكلمة الفصل بقدره. لقد كان عالقاً في الشرك متشابكاً ولا حول له ولا قوة. كان العنكبوت مستعداً لالتهامه، وعلى مسافة منه امتدت اليد المنقذة. وكان في إمكاني أن أقدم ملاحظات على قدر عال من الذكاء ونفاذ البصيرة حول تشعبات وأسباب آلامي، وسقم روحي، وتشوش حالتي العصبية عموماً. لقد كانت الآلية جلية بالنسبة إليّ. ولكن ما كنت بحاجة إليه ليس المعرفة والفهم. ما تقت إليه وسط يأسي كان الحياة والتصميم، الفعل ورد الفعل، الحافز والقوة الدافعة.

على الرغم من أني خلال أيام الانتظار القليلة لم أيأس قط من وفاء صديقتي بوعدها، ولم يمنعني هذا من أن أبقى في حالة من الترقب المرير عندما حل اليوم الموعود. ولم أكن في أي وقت من حياتي قد انتظرت انتهاء نهارٍ ما بصبر نافد كما فعلت عندئذ. وفي الوقت الذي كان الترقب ونفاد الصبر لا يكادان يطاقان، كانا في الوقت نفسه، ذوا فائدة رائعة لي. كان أمراً جميلاً بشكل يفوق التصور وجديداً بالنسبة إليّ، أنا الذي ظل فترة طويلة أكسل بكثير من أن ينتظر أي شيء، أو أن يجد متعة في أي شيء ـ نعم، كان رائعاً أن أهرع متنقلاً من هنا إلى هناك طوال النهار في تلهف لا يعرف الاستقرار وترقب مُجهد، أستبق اللقاء والحديث وما تخبئه الأمسية لنا، أن أحلق ذقني وأرتدي ملابسي بعناية خاصة (ملابس داخلية جديدة، ربطة عنق جديدة، رباط جديد في حذائي). ولم يكن مهماً من تكون هذه الفتاة الغامضة والذكية وكيف توصلت إلى إقامة علاقة معها. لقد كانت موجودة وكفى. حصلت المعجزة. لقد عثرت مرة أخرى على كائن بشري وعلى اهتمام بالحياة.

وأهم ما في الأمر أنه كان على المعجزة أن تستمر، وأن عليّ أن أستسلم لهذه القوة المغناطيسية وأن أتبع هذا النجم.

عندما رأيتها من جديد كانت لحظة لا تنسى! جلست في المطعم المريح العتيق الطراز على طاولة صغيرة كنت قد حجزتها بطريقة لا داعي لها، بواسطة الهاتف، ورحت أتفحص قائمة الطعام. كان ثمة في كأس زهرتا سحلبية كنت قد اشتريتهما لصديقتي الجديدة. وتوجب عليّ أن أنتظر فترة لا بأس بها، لكني كنت واثقاً من أنها ستأتي، ولم أعد مهتاجاً. ثم جاءت. توقفتْ برهة في غرفة الملابس واكتفت بإلقاء نظرة منتبهة، وأقرب إلى المزاح من عينيها الرماديتين الصافيتين. حرصتُ، مرتاباً، على أن أتابع كيفية تصرف النادل معها. لا، لا شيء حميمياً، لا رفع للكلفة. كان متسماً بالاحترام بشكل موسوس. ومع ذلك كان يعرف كل منهما الآخر. ونادته بإميل.

عندما قدمت لها زهرتي السحلبية، ضحكت بسرور:

«هذه لفتة عذبة منك يا هاري. أراك أردت أن تقدم إليَّ هدية، أليس كذلك، ولم تكن واثقاً تماماً ماذا تنتقي. لم تكن واثقاً تماماً إن كنت تحسن التصرف بتقديم هدية إليّ. فربما أشعر بالإهانة، وهكذا استقر اختيارك على زهرتي السحلبية، وعلى الرغم من أنهما بمجرد زهرتين فهما عزيزتين عليّ كفاية. وأنا اشكرك جزيل الشكر. وبالمناسبة سأقول لك منذ الآن أني لن أقبل منك هدايا. صحيح أني أعيش على نفقة الرجال، لكني لن أفعل ذلك معك. ولكن كم تغيرت! ما كان أحد ليعرفك. في ذاك اليوم بدوت وكأنك كنت قد أُنزلت عن مشنقة، وها أنت الآن عدت رجلاً بمعنى الكلمة. والآن ـ هل نفذت أوامري؟».

«أي أوامر؟».

«كيف أمكنك أن تنسى! أعني، هل تعلمت رقصة الفوكس ـ تروت؟ لقد قلت إنه لا شيء أحب على نفسك من تنفيذ أوامري. أتذكر؟».

«قلت هذا فعلاً، وسألتزم به. أنا جاد».

«ومع ذلك لم تتعلم الرقص بعد؟».

«أيمكن أن أتعلم ذلك بسرعة كبيرة ـ في غضون يوم أو يومين؟».

«طبعاً. يمكنك أن تتعلم رقصة الفوكس ـ تروت في غضون ساعة من الزمن. ورقصة البوسطن في ساعتين. والتانغو تتطلب أكثر من ذلك، ولكنك لا تحتاج إلى هذه».

«ولكن الآن أريد حتماً أن أعرف اسمك».

نظرت إليّ برهة بدون أن تتكلم.

«ربما تستطيع أن تخمّنه. سيسعدني كثيراً لو فعلت. تمالك نفسك والقِ عليّ نظرة شاملة. ألم يخطر ببالك قط أن وجهي يشبه أحياناً وجه صبي؟ الآن، مثلاً».

نعم، الآن وأنا أنظر إلى وجهها بإمعان، كان عليّ أن أعترف أنها كانت على حق. إن لها وجه صبي. وبعد برهة من الزمن رأيت شيئاً في وجهها ذكرني بفترة فتوتي وبصديقي في ذاك العهد. كان اسمه هرمن. وخيل إليّ لحظة أنها قد تلبّست صورة هرمن هذا.

قلت مذهولاً: «لو كنت صبياً لقلت إن اسمك هو هرمن».

قالت عابثة: «من يدري، لعلي صبي وأنا ببساطة في ثياب امرأة».

«اسمك هرمينة؟».

أومأت إيجاباً، مشرقة الوجه، مبتهجة لصحة تخميني. في تلك اللحظة أحضر النادل الطعام وباشرنا الأكل. كانت سعيدة كطفلة ومن بين الأشياء التي كانت تسرني وتفتنني فيها، كان أجملها وأشدها تمايزاً

تنقّلها السريع من حالة الجدية الأشد رصانة إلى المرح المثير للضحك، وكل هذا بدون أن تسبب لنفسها أدنى قدر من العنف، وبالسهولة التي تصدر عن طفل موهوب. وفي ذلك الحين، كانت مرحة وتمازحني حول رقصة الفوكس ـ تروت، وتدوس على قدمي من تحت الطاولة، وتطري وجبة الطعام بحماس، معلّقة على العناية التي أوليتها ارتداء ملابسي، على الرغم من أنها أيضاً كان لديها العديد من الانتقادات على مظهري.

خلال ذلك سألتها: «كيف نجحت في أن تظهري بمظهر صبي وجعلتني أخمّن اسمك؟».

«أوه، لقد فعلت كل ذلك بنفسك. ألا تكشف لك ثقافتك أن السبب في أني مصدر سرور لك، وأعني لك الكثير يعود إلى أني أشبه بمرآة تعكس صورتك، لأني أملك شيئاً يجد صدى عندك ويفهمك. علينا جميعاً، جدياً، أن نكون مرايا تعكس كل منا للآخر وصدى وجواباً كل منا للآخر، لكن أمثالك من البوم هم من الحالات الخاصة. ولدى أقل استفزاز يستسلمون لأشد الحماقات غرابة بحيث يعجزون عن رؤية أي شيء أو استشفاف أي قبس من عيون بقية الناس وعندئذ يبدو لهم أن لا شي على ما يرام. ومن ثم عندما يعثر أحد هؤلاء البوم أخيراً على وجه يبادله النظر وتصدر عنه لمحة فهم وقرابة ـ عندئذ، طبعاً، يُسرّ».

هتفتُ مذهولاً: «ليس هناك شيء لا تعرفينه، يا هرمينه. إن الأمر كما تقولين تماماً. ومع ذلك فأنتِ تختلفين كل الاختلاف عني. بل إنك على طرف نقيض مني. وتملكين كل ما أفتقر إليه».

قالت باقتضاب: «هذا ما تراه أنت، وهو لصالحك».

هنا انتشرت غمامة من الجدية القاتمة على وجهها. إنه بحق بمثابة المرآة السحرية بالنسبة إليّ. فجأة، أصبح وجهها ينم عن الجدية،

والمأساة، ولا قرارة له كعيني قناع خاويتين. وببطء، وكأن الكلمات تنسحب منها سحباً، قالت:

«تذكّر، لا تنس ما قلته لي. لقد قلت لي أن آمرك، وإنه يسرك أن تطيع أوامري. فلا تنس ذلك. واعلم، يا صغيري هاري ـ كما أن هناك شيئاً عندي يلقى صدى لديك ويمنحك الثقة في النفس، كذلك الحال معي. وفي ذاك اليوم عندما رأيتك تدخل مرتع "النسر الأسود" وأنت مرهق وخارج عن طورك ولا تبدو أنك تمتّ إلى هذا العالم بصلة، قلت في نفسي على الفور: هذا الرجل سوف يمتثل لأوامري. إن كل ما يريده هو أن أصدر إليه الأوامر. وهذا ما أنوي أن أفعله. ولهذا تحدثت معك وعقدنا صداقة».

كانت تتكلم بجدية صارمة استجابة لدافع عميق كامن في قرارة روحها، حتى أني كرهت أن أحثها. بل حاولت أن أهدّئ من روعها. فهزت رأسها وهي عابسة وتابعت بسيماء مهيمنة وصوت بارد: «أكرر أن عليك أن تفي بوعدك، يا صغيري. فإذا لم تفعل ستندم. سوف تتلقى أوامر عديدة مني وسوف تنفذها. وهي أوامر جميلة ومقبولة وسيسعدك أن تطيعها. وفي نهاية المطاف سوف تنفذ آخر أوامري أيضاً، يا هاري».

قلت شبه مستسلم: «سأفعل. وماذا سيكون آخر أوامرك؟».

كنت قد خمنته لتوي يعلم الله لماذا.

ارتعشت وكأنه هبَّة برد عابرة تغلغلت فيها وبدت كأنها تستيقظ تدريجياً من غشيتها. عيناها لم تزيحا نظرتهما عني. وفجأة أضحت حتى أشد شؤماً.

«لو كنت حكيمة، فلا يجدر بي أن أخبرك. لكني لست حكيمة، يا هاري، ليس هذه المرة. بل سأكون على العكس. فانصت إلى ما سأقول الآن. سوف تسمعه وتعود فتنساه. سوف تضحك منه، وسوف تبكي

عليه. فانتبه! سألعب معك لعبة مقابل الحياة والموت، أيها الأخ الصغير، وقبل أن نباشر اللعب سوف أضع أوراقي على الطاولة».

كم كانت جميلة، مثالية، عندما قالت ذلك! وسبح في عينيها، بهدوء وصفاء، حزن المعرفة. عيناها تينك بدتا وكأنهما عانتا كل ما يمكن تصوره من آلام وأذعنتا لها. وتحركت شفتاها بصعوبة وهي تتكلم وكأن عائقاً يعيقهما، وكأن صقيعاً جمَّد وجهها، ولكن بين شفتيها عند زاويتي فمها حيث ظهر طرف لسانها في فترات نادرة، تبدى تعبير حسِّي عابث عذب وشبقٌ جسدي عارم ناقضَ تعبير وجهها ونبرة صوتها. وتدلَّت خصلة شعر فوق امتداد جبينها الأملس، ومن هذه الزاوية من جبينها التي انهمرت منها خصلة الشعر، كانت سمتها الصبيانية تتجمع بين حين وآخر كنسمة حياة وترمي سحراً خنثوياً. ورحت أنصت بقلق مشتاق ولكن كأني منبهر وفقط شبه واعٍ.

وواصلت كلامها: «إنك معجب بي للسبب الذي ذكرته سابقاً، لأني اخترقت عزلتك. لقد انتشلتك من فم بوابات الجحيم ونبّهتك إلى حياة جديدة. لكني أريد منك أكثر من ذلك ــ أكثر بكثير. أريدك أن تعشقني. لا، لا تقاطعني. دعني أتكلم، أنت شديد الاعجاب بي. هذا واضح لي. وأنت ممتن لي. لكنك لا تعشقني. إنني أنوي أن أجعلك تعشقني، وهذا جزء من عملي. إنني أرتزق من قدرتي على جعل الرجال يقعون صرعى حبي. ولكن انتبه، أنا لا أفعل ذلك لأني أجدك جذاباً بشكل استثنائي. فأنا لا أكنُّ أي قدر من الحب لك كما هو حالك معي. لكني أحتاج إليك كما أنت بحاجة إليّ. أنت تحتاج إليّ الآن، وفي هذه اللحظة، لأنك إنسان يائس. إنك تحتضر لأنك لا تجد من يدفعك إلى الماء ويعيد إليك الحياة. وأنت تحتاجني لكي أعلمك أن ترقص وتضحك وتعيش. أما أنا فأحتاجك، ليس هذا اليوم ـ ولكن لاحقاً، لأمر

غاية في الأهمية، وأيضاً في الجمال. وعندما ستعشقني سوف أوجه إليك آخر أوامري وسوف تنفذه، وسيكون ذلك لصالحنا نحن الاثنين».

رفعت إحدى زهرتي السحلبية ذات اللونين البني والأرجواني والعروق الخضراء قليلاً في الكأس ثم مالت وحدقت برهة إلى الزهرة.

«لن تجد الأمر سهلاً، لكنك ستقوم به. سوف تنفذ أمري و- تقتلني. انتهينا - لا أسئلة».

عندما انتهت كانت عيناها ماتزالان مركزتين على زهرة السحلبية وتراخت قسمات وجهها، فقدت توترها كبرعم زهرة ينشر بتلاته. وعلى الفور ارتسمت ابتسامة فاتنة على شفتيها بينما ظلت عيناها الصبيانيتان ثابتتين وكالمسحورتين. ثم انتفض رأسها مهتزاً مع خصلتها الصبيانية، وتناولت رشفة ماء، ولما أدركت فجأة أننا جالسان على مائدة طعام انكبت من جديد على الأكل بشهية مفتوحة وتلذّذ.

كنت قد سمعت بلاغها الغريب بوضوح بحذافيره. بل إني خمنت أمرها الأخير حتى قبل أن تنطق به ولم يلامسني الرعب. وبدا كل ما قالته مقنعاً لي وكأنه حكم بالإعدام. وقبلته بدون إبداء اعتراض. ولكن على الرغم من الجدية المخيفة التي صبغت كلامها، لم أحمله كله على أنه حقيقي وجدّي تماماً. ففي حين أن جزءاً من روحي تشربت كلماتها وآمنت بها، فإن جزءاً آخر خفف من حماسي بإيماءة منه ولاحظت أن هرمينه أيضاً، على الرغم من كل ما تتمتع به من حكمة وصحة وثقة بالنفس، لها أوهامها وحالات ضعفها. وما أن لفظت آخر كلماتها حتى اكتسى المشهد برمته فسحة من الزيف واللاجدوى.

مع ذلك، لم يكن في مقدوري أن أعود إلى الوقائع والاحتمالات بالخفة نفسها التي لجأت إليها هرمينه.

سألتها، ومازالت في حالة شبه حلم: «إذن فعليّ أن أقتلك ذات يوم؟». فأخذت تضحك، وتنكبُّ بنهم على التهام وجبتها من لحم الطيور وبتلذّذ ضافٍ.

أومأت بخفة إيجاباً: «طبعاً. كفانا من هذا. إنه وقت الأكل. هاري، كن ملاكاً ومُر لي بمزيد من السلطة. ألست جائعاً؟ يبدو لي إنه مازال أمامك أن تتعلم كل الأمور التي تحدث فطرياً لبقية الناس، حتى الاستمتاع بالأكل، اسمع إذن، يا صغيري، يجب أن أبلغك أن هذا احتفال البط، وعندما تزيل اللحم الغض عن العظم، فهذه متعة ما بعدها متعة وعليك أن تكون تواقاً وسعيداً من أعماق قلبك ومبتهجاً كعاشق يساعد حبيبته على خلع سترتها للمرة الأولى. ألا تفهم هذا؟ أوه، يا لك من غشيم! أمستعد أنت؟ سأعطيك قطعة أزيلها عن العظمة. فافتح فمك. أوه، ما أصعب العمل معك! ها هو ينقّل نظره في أرجاء المكان خشية أن يراه أحدهم وهو يتناول لقمة من شوكتي. لا تخف، أيها الابن المبذّر، لن أسبّب لك فضيحة. إن من لا يستطيع أن ينال نصيبه من المتعة إلا بعد أن يحصل على الاذن من بقية الناس لهو إنسان مسكين».

أخذ المشهد الذي كان قد جرى قبلاً يغدو لا واقعياً أكثر فأكثر. وأخذت قدرتي تقلُّ باضطراد على تصديق أن هاتين العينين هما العينان نفسهما اللتان كانت قبل هنيهات قليلة مجمدتين داخل هاجس مرعب. أما الآن فأصبحت هرمينه مثل الحياة ذاتها، اللحظة تتلو الأخرى ولا يمكن التكهن المسبق بأي منها. الآن هي تأكل، والبطة والسلطة، والكعكة والمشروب هي الأشياء الهامة، وكلما تغيرت ألوان الطعام بدأ فصل جديد. ولكن على الرغم من عبثها في تمثيل دور الطفلة إلا أنها كانت تعرف ما في مخيلتي معرفة تامة، وعلى الرغم من أنها جعلت مني من فورها تلميذاً لها في لعبة العيش في كل لحظة عابرة، إلا أنها بدت

تعرف عن الحياة أكثر مما يعرفه أحكم الحكماء. فقد تكون أرقى حكمة أو أحط جهالة. ومن المؤكد على أي حال أن الحياة تقف عاجزة تماماً أمام موهبة العيش بشكل كامل في الحاضر، وموهبة الحرص الجميل المتلهف على كل زهرة تنبت على جانب الطريق والنور الذي يعزف على كل لحظة عابرة. فهل كان متوقعاً مني أن أصدق أن هذه الطفلة السعيدة بشهيتها المفتوحة وما يبدو من خبرتها في اختيار المآكل والمشارب هي في الوقت نفسه ضحية رؤى هستيرية وترغب في الموت؟ أم هي امرأة تقدّر الأمور بتدبُّر، باردة المشاعر، وتنوي متعمدة أن تجعل مني عشيقها وعبدها؟ لم أستطع أن أصدق هذا. لا، إن استسلامها للحظة الحاضرة غاية في البساطة والكمال حتى إن الأطياف العابرة والإثارة حتى أعمق أعماق الروح تراودها بالقدر نفسه كما كل نبضةٍ سارةٍ وتعيشها، مثلها، حتى الثمالة.

على الرغم من أني لم أقابل هرمينه للمرة الثانية إلا في ذلك اليوم، إلا أنها كانت تعرف كل شيء عني وبدا لي أني عاجز تماماً عن إخفاء أي سر عنها. لعلها لا تدرك كل شيء عن حياتي الروحية، لعلها لا تشايعني في صلتي بالموسيقى، أو بغوته، أو بنوفاليس أو ببودلير. هذا أيضاً، كان عرضة للتساؤل. لعله كبقية الأشياء لا يشكل أي مشكلة لها. وعلى أية حال، ماذا تبقّى من حياتي الروحية؟ ألم يتبدد كل هذا وفقد معناه؟ أما عن الباقي، عن مشاكلي واهتماماتي الأكثر خصوصية، فلا شك عندي في إنها ستفهمها جميعاً. وقريباً جداً سأتحدث معها عن ذئب السهوب، وعن الأطروحة وعن كل الأمور الأخرى، على الرغم من أنه حتى ذلك الحين لم يكن موجوداً إلا بالنسبة إليَّ وحدي ولم أذكره قط لأي كائن حي. والحق، إني لم أقو على مقاومة إغراء البدء على الفور.

قلت: «هرمينه، لقد حدث أمر خارق لي قبل أيام. لقد أعطاني رجل مجهول كتيباً، من النوع الذي يباع في المعارض، وقد عثرت داخله على قصة حياتي كاملة، وكل شيء عني. أمر مذهل، ألا تظنين؟».

سألتني بخفة: «وما هو عنوانه؟».

«"أطروحة حول ذئب السهوب"!».

«أوه، عبارة "ذئب السهوب" رائعة! وأنت ذئب سهوب؟ أهذا ما تقصد؟».

«نعم، أنا كذلك. أنا أحد أولئك الذين نصفهم ذئب ونصفهم بشر، أو على الأقل هذا ما أظنني».

لم تعط جواباً. ووجهت نحوي عينين ثاقبتين، ثم نظرت إلى يديَّ، وتلبّس وجهها برهة تعبيراً عميق الجدية ومشؤوم الانفعال، كالذي كان عليه قبل بضع دقائق. وشعرت مخمّناً أفكارها أنها كانت تتساءل إن كنت ذئباً إلى حد يمنعني من تنفيذ آخر أوامرها.

قالت وقد استعادت صفاءها: «وهذه، طبعاً، فكرة من بنات خيالك، أو هي فكرة شعرية، إذا شئت. ولكن فيها شيئاً متميزاً. أنت لست ذئباً اليوم، ولكن في ذاك اليوم عندما دخلت وكأنك هابط من القمر كان فيك بحق شيء بهيمي. وكان ذاك بالذات ما لفت نظري عندئذ».

سكتت فجأة وكأن فكرة مفاجئة أدهشتها.

«ما أسخف كلمات مثل حيوان وحيوان مفترس. لا يجدر التحدث عن الحيوانات بهذا الأسلوب. قد تكون فظيعة أحياناً، لكنها على صواب أكثر من الإنسان بكثير».

«ماذا تقصدين بـ ـ على صواب؟».

«حسن، أنظر إلى حيوان ما، إلى قطة، أو كلب، أو طائر، أو إلى أحد الحيوانات الجميلة الضخمة الموجودة في حديقة الحيوان، إلى أسد الكوغر أو الزرافة. إن الناظر لا يسعه إلا أن يرى أنها على صواب. إنها لا تصاب بأي حرج. ودائماً تعرف ماذا تفعل، وكيف تحسن التصرف. وهي لا ترغب في أن تلفت انتباهك. ولا تمثّل. إنها طبيعية، كالحجارة، أو الزهور، أو النجوم المنتشرة في السماء. ألا توافقني؟».

وافقتها.

تابعت قائلة: «إن الحيوانات في العادة حزينة. وعندما يكون إنسان ما حزيناً ـ لا أقصد هنا لأنه يعاني من ألم في ضرسه أو لأنه خسر بعض المال، وإنما لأنه، أحياناً، يرى أحوال الحياة وتقلباتها، فيصاب بالحزن والاكتئاب ـ فإنه دائماً يصبح أشبه قليلاً بالحيوان. وعندئذ لا يبدو فقط حزيناً، بل اشد صواباً وجمالاً من المعتاد. هذا هو واقع الحال، وهكذا بدوت، يا ذئب السهوب، عندما وقع بصري عليك للمرة الأولى».

«حسن، يا هرمينه، ما رأيك بهذا الكتاب بما يحتويه من وصفٍ لي؟».

«أوه، لا أستطيع أن أمارس التفكير طوال الوقت. سوف نتحدث في الأمر لاحقاً. يمكنك أن تعطينيه لأقرأه ذات يوم. أوه، لا، إذا كان لا بد أن أعود إلى القراءة، فاعطني أحد الكتب التي ألّفتها بنفسك».

طلبت قهوة وبدت شاردة وذاهلة بعض الوقت. ثم فجأة أشرقت وكأنها عثرت على حل لتأملاتها.

هتفت، مبتهجة: «هاللو، وجدتها!».

«وجدت ماذا؟».

«الفوكس ـ تروت. كنت أفكر فيها طوال الأمسية. الآن قل لي، هل لديك غرفة نستطيع أن نرقص نحن الإثنين معاً فيها أحياناً؟ لا يهم إذا كانت صغيرة، ولكن يجب أن لا يكون هناك أحد في الطابق السفلي

لكي لا يصعد ويثور علينا إذا ما اهتز السقف قليلاً. حسن، رائع، يمكنك أن تتعلم الرقص في بيتك».

قلت مفزوعاً: «نعم، هذا أفضل بكثير, ولكن أعتقد أنه يلزمنا موسيقى».

«طبعاً يلزمنا. يجب أن نبتاع شيئاً منها. وهي لن تكلفنا قدر ما تكلف مجموعة من الدروس. سوف توفر ثمن هذه لأني سأعطيها لك بنفسي. وبهذه الطريقة نحصل على الموسيقى عندما نشاء وفي النهاية نحضر أيضاً غرامافوناً».

«غرامافون؟».

«طبعاً. يمكنك أن تشتري واحداً صغيراً وبضع أسطوانات من الموسيقى الراقصة ـ».

هتفتُ: «رائع. وإذا نجحت في تعليمي الرقص، سيصبح الغرامافون ملكك الخاص كمكافأة لجهودك. اتفقنا؟».

نفذتُ الأمر بحذافيره، ولكن بدون حماس. لم أستطع أن أتصور وجود الجهاز البغيض في غرفة مكتبي بين كتبي، ولم أكن أيضاً متلائماً مع فكرة الرقص. وقلت في نفسي فلأجرب الأمر بعض الوقت مع إني كنت مقتنعاً بأني عجوز جداً وأبعد ما أكون عن المرونة ولن أتعلم قط. وبدا لي الانكباب على الأمر برمته بقوة وحماس كما اقترحتْ إجراءً مفاجئاً جداً ومتصلباً. وبوصفي خبيراً قديماً ونيِّقاً في الموسيقى، فقد شعرت بنفوري يزداد من الغرامافون، وموسيقى الجاز والموسيقى الراقصة الحديثة. وكان يفوق طاقتي أن يطلب مني أن أُدخِلَ الأنغام الراقصة التي تمثل آخر صرعات تحرر أميركا إلى معتزلي حيث ألتجئ مع نوفاليس وجان بول وأضطر إلى أن أرقص لهما. ولكن مَنْ طلب مني هذا ليس شخصاً عادياً. إنه هرمينه، ولها أن تأمر، وعليَّ أن أمتثل. وطبعاً امتثلت.

تقابلنا في مقهى في بعد ظهر اليوم التالي. كانت هرمينه قد وصلت قبلي، وكانت تشرب شاياً، وأشارت وهي تبتسم إلى اسمي الذي عثرت عليه مكتوباً في إحدى الصحف الشوفينية الرجعية التي تصدر في منطقتي، والتي كانت تروِّج فيها، من وقت لآخر، إشارات مهينة جداً موجهة ضدي. فأثناء احتدام الحرب كنت أناهضها، وبعد انتهائها رحت بين وقت وآخر أستشير السكينة والصبر والإنسانية ونقداً بدأ في الوطن؛ وقاومت الشوفينية القومية التي كان صوتها يغدو في كل يوم أكثر غلواً، وجنوناً وانغلاقاً. إذن، ها هنا كان هجوم آخر من هذا النوع، كُتِبَ بشكل رديء، هو من ناحيةٍ موجَّه من الناشر نفسه، ومن ناحيةٍ أخرى مسروق من مقالات من النوع نفسه وردت في صحف لها توجهاته نفسها. ومن المعروف أنه لا أحد يتفوق على أولئك المدافعين عن الأفكار البالية في سوء الكتابة. ولا أحد يبزّه في قلة الكياسة والحرص الذي يمليه عليه الضمير في الترويج لبضاعته. وكانت هرمينه قد قرأت المقالة، وفهمت منها أن هاري هاللر هو حشرة مؤذية ورجل يتبرأ من أرض وطنه، وأن من البديهي أنه لا خير يرجى لهذا البلد مادام يتم التسامح مع مثل هؤلاء الأشخاص ومثل هذه الأفكار ومادامت عقول الشبان تتحول إلى الأفكار الإنسانية العاطفية بدل أن تتوجه إلى الانتقام بقوة السلاح من العدو التقليدي.

سألتني هرمينه، مشيرة إلى اسمي: «أهذا أنت؟ يبدو أنك نجحت في تكوين بعض الأعداء لك. ألا يزعجك هذا؟».

قلت: «لا، لا يزعجني. لقد اعتدت عليه منذ زمن بعيد. كنت في أوقات متفرقة قد عمدتُ إلى القول إنه يجدر بكل أمة، بل وكل إنسان، بدل أن يهدهد نفسه وينام في أحضان الشعارات السياسية حول الشعور بالذنب نحو الحرب، أن يتساءل إلى أي حد تساهم أخطاؤه وإهماله

وتوجهاته الشريرة في ارتكاب ذنب انـدلاع الحرب وكافـة بلايـا العـالم الأخرى، وأنه في هذا تكمـن الوسيلة الوحيـدة الممكنـة لتجنـب انـدلاع الحرب التالية. وهم لا يسامحونني على ذلك، لأنهم هـم أنفسـهم، طبعـاً، القيصر، والجنرالات، وأقطاب التجارة، والسياسيون، والصحـف، أبريـاء كل البراءة. وليس لدى أي منهم أقل مـا يمكـن أن يلـوم نفسـه عليـه. لا أحد منهم مذنب بـأي شـيء. ويكـاد يصـدق المـرء أن كـل شـيء علـى أحسن ما يرام، على الرغم من وجود بضعة ملايين من الرجال مطمورين تحت التراب.

وألفتُ انتباهكِ، يا هرمينه، إلى أنه وإنْ لم تعد مثـل هـذه المقـالات التعسفية قادرة على إزعاجي، إلا أنها مع ذلك كثيراً ما تحزنني. إن ثلثي أبناء بلدي الذين يقرأون هذا النوع من الصحف، ويقرأون اشياء مكتوبة بهذه النبرة في كـل صبـاح وكـل مسـاء، يتعرضـون في كـل يـوم لإثـارة المشاعر، وللتـأنيب، وللـترغيب، وتُسـرق منهـم راحـة بـالهم وأفضـل مـا لديهم من مشاعر، والهدف النهائي من كل ذلك ومغزاه هو إشـعال نـار الحرب من جديد، الحرب التالية التي لا تـني تقـترب بـاضطراد، وسـوف تكون أشد نشراً للرعب بكثير من الحرب الأخيرة. كل هذا واضح تمامـاً وبسـيط. إن أي إنسـان في مقـدوره أن يفهمـه، ويتوصـل إلى النتيجـة نفسها، بعد برهة تفكّر. ولكن لا أحد يرغب في ذلك. لا أحـد يريـد أن يتجنب الحرب التالية، لا أحد يرغب في أن يوفر على نفسه وعلى أولاده المحرقة القادمة إذا كان هذا هو الثمـن. واضـح أنْ لا أحـد يتوقـف قليـلاً ويفكـر، أن يحاسـب نفسـه هنيهـة ويسـأل عـن دوره في فوضـى العـالم، وضعفه. ومع ذلك، لا شـيء يوقفهـا، إن الحـرب التاليـة تُسـتَحث بكـل حماسة على يد الآلاف المؤلّفة ويوماً بعد يـوم. ومنـذ أدركـت هـذا وأنـا مشلول، وصلت إلى حافة اليأس. لم يبق لدي وطن ولا مُثُـل عليـا، فهـي

لا تعني أكثر من زخارف أخرى للسادة المقبلين على المذبحة التالية. لا معنى للتفكير أو لقول أو لكتابة أي شيء له منحى إنساني، أو لإزعاج الرأس بأفكار خيِّرة، لأن مقابل كل إثنين يفعلان ذلك، هناك آلاف من الصحف، والدوريات والخطب، واللقاءات العلنية والسرية التي تجعل من نقيضه مسعاها اليومي وتنجح فيه أيضاً».

كانت هرمينه قد أنصتت إلى ذلك بانتباه.

الآن قد جاء دورها لتقول: «نعم، معك حق تماماً في هذه النقطة، لا شك في أن حرباً أخرى قادمة. ولا حاجة إلى قراءة الصحف لمعرفة هذا. ولا شك في أنه يمكن أن يسبب الحزن، لكن ذلك لا يفيد. إن الوضع نفسه عندما يحزن الإنسان لدى تفكيره في أنه سيموت لا محالة ذات يوم، على رغم كل الجهود التي يبذلها لمنع ذلك. إن الحرب على الموت، يا عزيزي هاري، دائماً شيء جميل، ونبيل ورائع وعظيم، وكذا، تالياً، الحرب على الحرب. إلا أنها أيضاً ودائماً حرب يائسة ودونكيخوتية».

هتفتُ بإخلاص: «لعل هذا صحيح، ولكن حقائق كهذه ــ أي القول إننا جميعاً سنموت عاجلاً لذا فالأمر سيان ــ تجعل الحياة برمتها تافهة وحمقاء. فهل علينا أن نتخلى عن كل شيء وننكر الروح كلها وكل الجهود المبذولة وكل ما هو إنساني ونترك المجال للطموح وللمال أن يسود إلى الأبد. بينما نجلس نحن ننتظر إيقاف إطلاق النار التالي ونحن نشرب كأساً من البيرة؟».

رائعة النظرة التي رمتني بها هرمينه عندئذ، نظرة ملؤها السرور، والسخرية واللؤم، والفهم والاتفاق معي، وكانت في الوقت نفس نظرة غاية في الرصانة، والحكمة، والجدية المبهمة.

قالت بصوت عطوف تماماً: «لن تفعل هذا، وحياتك لن تكون تافهة وراكدة حتى مع علمك إن حربك لن يُكتب لها النصر. إن الأشد تفاهة بكثير، يا هاري، أن تحارب لنصرة الخير والمثل الأعلى وأن تعرف طوال الوقت أنك ستبلغهما حتماً. فهل يمكن بلوغ المثل الأعلى؟ هل نعيش لكي نمحو الموت؟ لا ـ نحن نعيش لكي نخشاه وأيضاً أن نحبه، وفقط إكراماً للموت يتوهج فينا قبس الحياة ويسطع ساعة من الزمن بين حين وآخر. ما أنت إلا طفل يا هاري. والآن إفعل ما أمرتك به وهيا. أمامنا الكثير من العمل لنقوم به هذا اليوم. لا نيَّة لديّ لأستزيد من إزعاج نفسي اليوم حول الحرب أو حتى الصحف. وأنت؟».

أوه، لا، لم تكن لدي رغبة.

غادرنا معاً ـ كانت تلك أول مرة نسير فيها معاً في البلدة ـ إلى محل بيع الموسيقى وتفرجنا على أجهزة الغرامافون. قلّبناها وأنصتنا إلى طريقة عملها، وعندما وجدنا ما اعتبرناه مناسباً وجميلاً ورخيصاً أبديت رغبتي في شرائه. لكن هرمينه لم تكن تحبِّذ عقد مثل تلك الصفقات السريعة. فجرَّتني إلى الخلف وكان علي أن أنطلق معها سعياً وراء محل آخر حيث هناك، أيضاً، تفرجنا وأنصتنا إلى أجهزة غرامافون من كل شكل وحجم، من الأغلى ثمناً إلى الأرخص، قبل أن نتفق أخيراً على أن نعود إلى المحل الأول ونشتري الجهاز الذي فكّرنا فيه أول الأمر.

قلت: «أعتقد أنه كان من الأبسط لو أننا أشتريناه فوراً».

«أتظن؟ وعندئذ كنا ربما رأينا غداً الجهاز نفسه في واجهة أحد المحلات بسعر يقل بمقدار عشرين فرنكاً. ثم إن القيام بالشراء عمل ممتع والأمر الممتع يجب أن يطول أمده. لازال أمامك الكثير لتتعلمه».

لجأنا إلى حمَّال لنقل المشتريات إلى المنزل.

قامت هرمينه بمعاينة غرفتي بعناية. فأثنت على المدفأة والصوفا، وجربت الكراسي، والتقطت بعض الكتب، وتوقفت مطولاً أمام صورة إريكا الفوتوغرافية، وكنا قد وضعنا الغرامافون على دولاب ذي أدراج بين أكوام من الكتب. ومن ثم بدأ تعليمي. أدارت هرمينه موسيقى رقصة الفوكس ـ تروت، وبعد أن بيَّنت لي الخطوات الأولى، بدأت تقودني من يدي. ورحت أتبع الخطوات معها راضخاً، مرتطماً بالكراسي، مستمعاً إلى تعليماتها دون أن أتوصل إلى فهمها، وأطأ على أصابع قدميها، وأتصرف بطريقة خرقاء وإن كنت أبذل أقصى جهدي. وبعد انتهاء الرقصة الثانية ارتمت على الصوفا وكانت تضحك كطفلة.

«أوه! ما أشد جمودك! فقط انطلق وكأنك تسير. لا حاجة إلى أن تجهد نفسك. أعتقد أنك اهتجت كثيراً، أليس كذلك؟ لا، فلنرتح خمس دقائق! ألا ترى أن الرقص سهل تماماً كالتفكير، عندما تتعلمه، بل إنه أسهل بكثير في تعلمه. ها أنت الآن قد بتَّ تفهم لماذا يرفض الناس أن يعتادوا على التفكير ويفضلون أن ينعتوا هاري هاللر بالخائن لبلده وينتظروا بهدوء مجيء الحرب التالية».

رحلت بعد مضي ساعة، وهي تؤكد لي أن الأمر سيتحسن في المرة التالية. كنت أختلف معها في هذه النقطة، فقد أصبت بخيبة أمل كبيرة لحماقتي وخراقتي. ولم أر أني قد تعلّمت أي شيء مهما كان ولم أصدق أن الوضع سيتحسن في المرة القادمة. لا، يجب إدخال خواص معينة إلى الرقص أفتقدها أنا، كالمرح، والبراءة، والطيش، والمرونة. في الواقع هذا ما ظننته دائماً.

مع ذلك، في المرة التي تلت تحسن الوضع فعلاً. بل إنني قد تسليت. وفي نهاية الدرس أعلنت هرمينه أنني الآن قد أصبحت بارعاً في رقصة الفوكس ـ تروت. ولكن عندما أردفت قائلة، إن علي أن أراقصها في

اليوم التالي في أحد المطاعم، أصبت بالذعر ورفضت الفكرة بعنف. فذكرتني بهدوء بقسمي في أن أطيع ورتّبت لقاءً لتناول الشاي في اليوم التالي في فندق بالانسس.

في أمسية ذاك اليوم جلست في غرفتي وحاولت أن أقرأ، لكني فشلت. كنت مملوءً بالخوف من الغد. لقد كانت فكرة رهيبة جداً أن أرتاد أنا، الكهل، الحييّ، الحساس، النزق، إحدى صحارى الجاز العصرية، إلى The dansant[1]، والفكرة الأكثر رهبة بكثير كانت أن أتصور أني هناك راقصاً، مع إني لم أكن أعرف شيئاً عن الرقص. وأعترف بأني ضحكت من نفسي وشعرت بالخجل منها عندما أدرت الجهاز،وأنا وحدي في غرفتي الهادئة المخصصة للدراسة، ورحت أؤدي خطوات رقصتي بخفة وبقدمين ترتديان جوربين.

كانت هناك فرقة موسيقية صغيرة تعزف كل يومين في فندق بالانسس حيث يقدَّم الشاي والويسكي. وقمت بمحاولة رشوة هرمينه، فوضعت الكعك أمامها واقترحت طلب زجاجة من النبيذ الجيد، لكنها لم تلن.

«أنت لست موجوداً هنا اليوم للتسلي. إنه درس الرقص».

اضطررت إلى الرقص معها مرتين أو ثلاثاً، وخلال فترة من الراحة قدَّمتني إلى عازف ساكسفون، وهو شاب أسمر وسيم من أصل أسباني أو جنوب أميركي، يُحسن، كما قالت، العزف على كل الآلات الموسيقية ويتحدث بكل لغات العالم. وقد اتضح أن هذا السنيور على معرفة تامة بهرمينه، وعلى علاقة متينة معها. وكان يضع أمامه آلتي ساكسفون بحجمين مختلفين يعزف عليهما بالتناوب، بينما تتفحص عيناه السوداوان اللامعتان الراقصين وهو مشرق بالسرور. ودهشت إذ وجدتني أشعر بما

---

[1] حفلة شاي راقصة. ـ المترجم.

يشبه الغيرة من هذا الموسيقي اللطيف والفاتن، ليس غيرة عاشق، إذ كان من المستبعد تماماً وجود أي علاقة حب بين هرمينه وبيني، وإنما غيرة أرهف من صداقتهما؛ فقد اعتبرت أنه لا يستحق كل ذاك الاهتمام، وحتى التوقير، اللذين كانت تميزه بهما بوضوح. وقلت في نفسي غاضباً، يبدو أني سأقابل بعض الأشخاص الغريبي الأطوار. ثم جاء من يطلب هرمينه إلى الرقص. وبقيت وحدي أشرب الشاي وأنصت إلى الموسيقى، موسيقى من النوع الذي لم أعرف قط حتى ذلك اليوم كيف أتحمله. وقلت في نفسي، يا إلهي، الآن سيتم إدخالي لأتآلف مع هذا العالم المؤلف من المتبطلين والباحثين عن المتعة، عالم غريب تماماً عني، وأكنّ له كل البغض، وكنت حتى هذا اليوم دائماً أحرص على تجنبه، وأمقته كل المقت، عالم مخملي مقولب من طاولات رخامية السطح، وموسيقى جاز، ومومسات، وباعة جوالين! ورحت وأنا حزين أبتلع الشاي وأحدق إلى الحشد ذي الأناقة المزرية. وقابلت ناظري فتاتان جميلتان، كلتاهما تجيد الرقص. ورحت أتابع تنقلاتهما بإعجاب وحسد. يا لخطواتهما الواثقة، المرحة، الجميلة، والمرنة!.

سرعان ما عادت هرمينه إلى الظهور. لم تكن راضية عني. فعنّفتني وقالت إنني لست موجوداً هناك لكي أتلبَّس تلك السحنة وأجلس متكاسلاً على طاولة الشاي. فتمالك نفسك، من فضلك، وهيا إلى الرقص. ماذا، ألا أعرفُ أحداً؟ لا يهم. ألا توجد، إذن، أي فتاة تلاقي قبولاً لدي؟.

أشرت إلى إحدى الفتاتين، والأكثر جاذبية، وتصادف أن كانت في تلك الأثناء واقفة بالقرب منا. بدت فاتنة بثوبها المخملي الجميل، وشعرها الأشقر الغزير والقصير وذراعيها الأنثويين المستديرين، وأصرت هرمينه على أن أتقدم منها وأطلب مراقصتها. فانكمشت يأساً.

قلت بنبرة بؤس: «حقيقة، لا استطيع. طبعاً كنت فعلتُ لو أنني شاب ووسيم، أما عجوز أحمق متيبس مثلي لا يستطيع أن يرقص حتى مقابل حياته - سوف تضحك مني!».

رمتني هرمينه بنظرة احتقار.

«أما أن أضحك أنا منك فلا يهم، طبعاً. أي جبان أنت! إن كل إنسان يجازف بأن يكون عرضة للضحك منه عندما يخاطب فتاة. هذا الأمر دائماً يتسم بالمجازفة. جازف، إذن، يا هاري، فإذا وقع الأسوأ تقبَّل أن تتعرض للضحك منك إلى آخر مدى. وإلا فقل السلام على تصديقي لطاعتك...».

كانت فظة. فنهضت واقفاً بحركة آلية وتقدمت من الشابة الجميلة حالما بدأت الموسيقى تصدح من جديد.

قالت، وهي تقيّمني بنظرها بعينيها الصافيتين: «في الحقيقة، أنا مرتبطة مع أحدهم لهذه الرقصة، ولكن بما إنه يبدو أن شريكي منهمك في الشرب على البار هناك، فتعال».

أحطتها بذراعي وأدينا الخطوات الأولى، وأنا لا أزال مذهولاً لأنها لم تصرفني. وسرعان ما قدَّرتْ وضعي وتولَّت القيادة. كانت ترقص بشكل رائع وانسجمت مع إيقاع خطواتها. ونسيت في ذلك الحين كل القواعد التي كنت قد تعلمتها بصبر ورحت أنساب ببساطة. وأحسست بوركيّ شريكتي المشدودين، وبركبتيها المطواعتين، والسريعتي الحركة، وبعد أن تأملت وجهها الغض المتورد اعترفت لها بأن تلك كانت أول مرة في حياتي كلها أرقص فيها حقاً. فابتسمتْ مشجِّعة، وأجابت على تحديقي المفتون وكلماتي المطرية بمطاوعة رائعة، ليس بالكلمات، وإنما بالحركات التي زادت فتنتها الرقيقة من تواصلنا وبشكل مبهج. أمسكت يدي اليمنى رسغها بقوة وتبعت كل حركة قامت بها قدماها وذراعاها

وكتفاها بسعادة متلهفة. وما أدهشني أنني لم أدس، ولا مرة واحدة على قدميها، وعندما سكتت الموسيقى، ظل كلانا واقفاً حيث كنا ورحنا نصفق إلى أن بدأ عزف الرقصة نفسها من جديد، وعندئذ، وبكل حماس العاشق رحت أؤدي بتكريس الطقس مرة أخرى.

بعد أن انتهت الرقصة بسرعة كبيرة، اختفت شريكتي الجميلة، ذات الثوب المخملي، وإذا بي فجأة أرى هرمينه واقفة بالقرب مني. لقد كانت تراقبنا.

ضحكت وقالت مستحسنة: «والآن، أرأيت؟ هل اكتشفت أن سيقان النساء ليست قوائم طاولات؟ حسن، برافو! ها أنت قد صرت تحسن رقص الفوكس ـ تروت، فشكراً لله. غداً سننتقل إلى رقصة بوسطن، وفي غضون ثلاثة أسابيع ستقام حفلة تنكرية في الغلوب رومز».

كنا قد اتخذنا مجلسنا خلال الاستراحة عندما جاء الشاب الفاتن هر بابلو وجلس بجانب هرمينه، بعد أن أومأ بحركة ودية. وبدا على علاقة حميمة معها. أما أنا، يجب أن أعترف بأني لم أسرّ بأي حال من الأحوال بوجود السيد أثناء تلك المقابلة. لقد كان وسيماً، لا أنكر، في الوجه والشكل العام، لكني لم أستطع أن أكتشف فيه أي مميزات أخرى. حتى إنجازاته اللغوية لم يكن لديه الكثير منها ـ إلى درجة أنه، في الحقيقة، لم يكن يتفوه إلا بكلمات مثل أرجوك، وشكراً، في الواقع، وبالأحرى ومرحباً. وكان بدون شك يتقنها بلغات شتى. لا، لم يقل شيئاً هذا السنيور بابلو، ولا بد أنه يفكر كثيراً، هذا الكابيليرو[1] الساحر. إن عمله هو أن يعزف على الساكسفون في فرقة جاز وقد بدا أنه يكرس نفسه لهذا العمل بكل الحب والاندفاع. وكان أثناء عزف الموسيقى كثيراً ما

---

[1] سيد إسباني. ـ المترجم.

يصفق بيديه فجأة، أو يسمح لنفسه بأن يعبر بأساليب أخرى عن الحماس، كأن يغني بصوت عال قائلاً: «أوه، أوه، أوه، ها، ها، هاللو». إلا أنه خلافاً لهذا كان يقتصر على كونه وسيماً، يسلي النساء، أو أن يضع ياقات وربطات عنق من آخر الصرعات ويلبس عدداً كبيراً من الخواتم في أصابعه. وكان أسلوبه في تسليتنا يتألف من الجلوس إلى جانبنا، والابتسام لنا، والنظر إلى ساعة يده، ولفّ السجائر ـ وكان بها خبيراً.

ولم تكن عيناه الكروليتان[1] الجميلتان والسوداوان، وخصلات شعره السوداء لا تخفي أي رومانس، أو مشاكل، أو أفكار. وعند تدقيق النظر فيه، لا يبدو شبه إله الحب هذا، الأجنبي والوسيم أكثر من شاب راضٍ عن نفسه بل ومدلل وصاحب سلوك سائغ. وتحدثت معه عن آلته الموسيقية، وعن التلوين اللحني في موسيقى الجاز، ولا بد أنه وجد أنه يواجه شخصاً يتصف باستمتاع خبير بكل ما يتعلق بالموسيقى. لكنه لم يبد أي استجابة. وبينما شرعت، إطراءً له، أو بالأحرى، لهرمينه، في تبرير موسيقى الجاز على طريقة الموسيقي العارف، اكتفى هو بالابتسام لي ولجهودي المبذولة بود. ربما لم تكن لديه أدنى فكرة عن وجود أي موسيقى أخرى غير موسيقى الجاز أو عما إذا كان هناك أي موسيقى قبلها. ولا شك في أنه كان شخصاً حلو المعشر، ومهذباً، وعيناه الكبيرتان الخاويتان كانتا تبتسمان بسحر ضاف. ولكن لم يبد أنه كان بينه وبيني أي قاسم مشترك. ربما لم يكن أي شيء مما كان يعتبره هاماً ومقدساً كذلك بالنسبة إليَّ. كنا ننحدر من طرفي نقيض من العالم ونتحدث بلغتين لا تمتّ كلمتان فيهما بأي صلة قربى. (إلا أن هرمينه أخبرتني، لاحقاً، شيئاً مذهلاً. قالت لي إن بابلو، بعد حديث دار عني،

---

[1] الكريولي: هو الشخص الذي تمتزج في عروقه دماء أوروبية وزنجية. ـ المترجم.

قد قـال إن عليهـا أن تعـاملني برقـة شـديدة، لأنـي إنسـان تعيـس جـداً. وعندما سألته عما دعاه إلى الخروج بهذه النتيجة، قال: «إنسان مسكين، مسكين. انظري إلى عينيه. إنه لا يعرف كيف يضحك»).

بعـد أن اسـتأذن الشـاب ذو العينـين السـوداوين بـالرحيل وعـادت الموسيقى تصدح من جديد، نهضت هرمينه واقفـة. «الآن في وسعك أن تشاركني رقصة أخرى. أم إنه لم تعد لديك رغبة في الرقص؟».

الآن بـتّ معهـا أيضـاً أرقـص بسـهولة أكـبر بطريقـة أكـثر حريـة، وحيوية، وإن ليس أكثر مرحاً أو خجلاً مما فعلـت مـع الأخـرى. كـانت هرمينه تترك لي قياد الأمر، وتتكيف بيسـر وخفـة كورقـة زهـرة، ومعهـا أيضاً بت أتعرف على كل تلك المباهج التي كـانت تـارة تقـترب وطـوراً تفر مبتعدة. هي أيضاً كانت الآن تنشر عطر المرأة والحب، ورقصها أيضاً كان يغني بحنان حميم أغنية الجنس الجميلة، والفاتنة. ومع ذلك، لم أستطع أن أستجيب لكل هذا بدفء وحريـة. لم أستطع أن أنسـى نفسـي تمامـاً وأستسلم. لقد كانت علاقة هرمينه بي شديدة الحميميـة. كـانت رفيقـتي وأختي ـ كادت تكـون قرينـي في شـبهها ليـس فقـط بـي، وإنمـا بهرمـن، صديق فتوتي، المتحمِّس، الشاعر، الذي كان يشاركني بحرارة متقدة كـل مساعيَّ العقلية وأفكاري المتطرفة.

قالت عندما تحدثت عـن هـذا: «أعـرف، أعـرف كـل هـذا معرفـة جيدة. ومع ذلك، سوف أجعلك تعشقني، ولكن لا داعي للعجلة. فنحن أولاً، وقبل أي شيء رفيقان، إثنان يـأملان في أن يصبحـا صديقـين، لأن كلاً منا أقرَّ بوجود الآخر. وفي الوقت الحاضر سيتعلم كل منا من الآخـر وسنتسلى معاً. أنا أريك مسرحي الصغير، وأعلّمك كيف ترقـص وتنـال قدراً من المتعة وتتصرف بحماقة، وأنت تكشـف لي عـن أفكـارك وطرفـاً من كل ما تعرف».

«أخشى أن لا شيء عندي أكشف عنه، يا هرمينه. وما تعرفينه يفوق ما أعرفه بكثير. أنت أروع شخص عرفته ـ وامرأة. ولكن هل أعني لك أي شيء؟ ألا أثير فيك الملل؟».

سدّدتْ نظرة مكفهرة إلى الأرض.

«هذا ما لا أحب أن أسمعه منك. فكر في تلك الأمسية حين أتيت وأنت محطم يأساً ووحشة، لتلتقي بي وتغدو رفيقي. لماذا، في رأيك، تفهَّمتك وفهمتك؟».

«لماذا، يا هرمينه؟ قولي لي!».

«لأن حالي من حالك وأنا وحيدة مثلك تماماً، ولأني كارهة للحياة والناس ولنفسي، مثلك ولا قدرة لي على احتمالهم. ثمة دائماً ثلة من مثل هؤلاء الذين يطلبون ذروة الحياة، ومع ذلك يعجزون عن أن يتفهموا حماقتها وفظاظتها».

هتفت بذهول عميق: «رائعة، رائعة! إنني أفهمك، يا رفيقتي. لا أحد يفهمك أفضل مني. ومع ذلك فأنتِ لغز. أنت ضليعة خبيرة في الحياة. إنك تكنّين تبجيلاً رائعاً لدقائقها ومتعها. أنت فنانة عظيمة في الحياة. كيف يمكنك أن تعاني وأنت بين يدي الحياة؟ كيف لليأس أن ينالك؟».

«أنا لا أيأس. أما بالنسبة للمعاناة ـ أوه، نعم، إنني أعرف كل شيء عنها! إنك مندهش لأني تعيسة في حين أني أرقص وأبدو شديدة الثقة بنفسي فيما يتعلق بأمور الحياة السطحية. وأنا، يا صديقي، مندهشة، لأن الحياة تصيبك بالخيبة في حين أنك تتآلف مع أعمق الأشياء وأجملها، مع الروح، والفن، والفكر! لهذا ترانا تجاذبنا ونشعر بالتآخي. سوف أعلّمك كيف ترقص وتلعب وتبتسم، وتبقى مع ذلك تعيساً. وأنت ستعلمني أن أفكر وأكتسب المعرفة وأن أبقى مع ذلك تعيسة. أتعلم أننا نحن الإثنان من أطفال الشيطان؟».

«نعم، نحن كذلك. الشيطان هو الروح، ونحن طفلاه التعيسان. لقد سقطنا في أحضان الطبيعة وظللنا معلقين في الفضاء. وهذا يذكرني بشيء. في أطروحة ذئب السهوب، التي أخبرتك عنها، ثمة شيء يفيد بأنه فقط يتخيل أن له روحاً واحدة، أو روحين، وأنه مؤلّف من شخص واحد أو شخصين. وتقول إن كل كائن بشري يتكون من عشرة أرواح، أو ألف، أو آلاف الأرواح».

هتفت هرمينه: «هذا الكلام يعجبني كثيراً. ففي حالتك، مثلاً، الجانب الروحي منك متطور تطوراً عالياً جداً، وهكذا فأنت متخلف في كل مهارات العيش الصغيرة. إن هاري، المفكر، عمره مئة عام، أما هاري، الراقص، فلا يكاد عمره يبلغ نصف يوم. وهو مَنْ نرغب في إخراجه إلى حيز الوجود، وكل إخوته الصغار الذين هم صغار وحمقى ومقرَّبون مثله تماماً».

رمقتني، وهي تبتسم، ثم سألتْ برقة وبصوت مغاير:

«وكيف وجدت ماريا؟».

«ماريا؟ من هي؟».

«الفتاة التي رقصت معها. إنها فتاة لطيفة، لطيفة جداً. لقد كنت متيماً بها قليلاً، كما لاحظت».

«تعرفينها، إذن؟».

«أوه، نعم، كل منا تعرف الأخرى جيداً. أكنت إذن مولعاً بها كثيراً؟».

«لقد أعجبتني كثيراً، وأسعدني أن تنهمك في تعليمي الرقص».

«وكأن تلك هي القصة كلها! يجب أن تضاجعها قليلاً يا هاري. إنها فائقة الجمال وراقصة ماهرة، وأنت تحبها فعلاً، أنا متأكدة. سوف تنجح في مسعاك معها. أنا واثقة».

«صدقيني، ليس هذا مطْمحي».

«هنا أنت تكذب قليلاً. طبعاً أنا أعرف أنك مرتبط. ثمة فتاة في مكان ما تقابلها مرة أو مرتين في السنة لكي تتشاجر معها. لا شك في أنه رائع منك أن ترغب في أن تكون مخلصاً لصديقتك الجديرة بالاحترام هذه، ولكن يجب أن تسمح لي بأن لا أنظر إلى هذا بكثير من الجدية. أعتقد أنك تتعامل مع الحب بقدر هائل من الجدية. وهذا شأنك. في إمكانك أن تعشق قدر ما تشاء بطريقتك المثالية فهذا لا يهمني. إن كل ما يهمني هو أنه يجدر بك أن تتعلم المزيد من المهارات الصغيرة في الحياة وعن جوانبها الأكثر إشراقاً. في هذا المجال أنا معلمتك، وتأكد من أني سأفيدك أكثر مما يفعل حبك المثالي! لقد حان الوقت لكي تضاجع من جديد فتاة جميلة، يا ذئب السهوب».

هتفت متعذباً: «هرمينه، فقط أنظري إليَّ، أنا عجوز!».

«بل أنت صبي صغير. كنت أكسل من أن تتعلم الرقص إلى أن كاد يفوت الأوان، وبالطريقة نفسها كنت أكسل من أن تتعلم كيف تحب. أما عن الحب المثالي والمأساوي فلا شك عندي في أنك، في هذا، تستطيع أن تحرز تقدماً باهراً ـ ولك كل الشرف. والآن سوف تتعلم قليلاً أن تحب بالطريقة الإنسانية العادية. لقد خطونا خطوة البداية. وقريباً ستصبح مؤهلاً للذهاب إلى حفلة عامة، ولكن عليك أولاً أن تتعلم رقصة بوسطن، وسوف نباشر بذلك غداً. سأوافيك في الثالثة. بالمناسبة، ما رأيك في الموسيقى؟».

«أحببتها كثيراً».

«حسن، ها قد تقدمنا خطوة أخرى. لقد كنت حتى الآن لا تتحمل كل هذه الموسيقى الراقصة وموسيقى الجاز. كنت تراها غاية في السطحية، والعبث. وها أنت قد رأيت أنه لا حاجة إلى أن تتناولها بجدية

ويمكنها مع ذلـك أن تكـون ممتعـة جـداً وبهيجـة. وبالمناسبة، إن الفرقـة الموسيقية كلها لا تستطيع أن تستغني عن بابلو. إنه يقودها ويبث الحماس فيها».



مثلما كان الغرامافون يلوث الجو الفني والعقلي لغرفة مكتبي ومثلمـا كانت الرقصات الأميركيـة تندفـع كأشـخاص غربـاء ومشـاغبين، نعـم، وكمخربين، مقتحمين حديقــتي الموسيقية، الـتي أوليتهـا عنـايتي الفائقـة، كذلك، أيضاً، اقتحمت مؤثـراتٌ جديـدة ورهيبـة ومفسـدة، ومـن كـل الاتجاهات، حياتي التي كانت، حتى ذلك الحين، شـديدة وضـوح المعـالم ومنعزلة إلى أقصى حد. لقـد كـانت أطروحـة ذئـب السـهوب، وهـاري أيضاً، مُحقّين في اعتقادهما في الألف روح. ففـي كـل يـوم تقفـز أرواح جديدة لتتخذ مكانها إلى جانب جمهرة من الأرواح القديمة، وهـي تضـج بمطالبها وتثير الفوضى، والآن صرت أرى بجلاء وكأنمـا أنظـر إلى صـورة أي وهمٍ كانت شخصيتي السابقة تعيش فيه. لقد كانت حفنـة القـدرات والاهتمامات التي حدث أن كنت منيعاً بها تستحوذ على كل اهتمـامي، وقد رسمت لنفسي صورة بوصفي شـخصاً لم يكـن في الواقـع أكـثر مـن اختصاصيّ راقٍ ومثقفٍ في الشعر، والموسيقى والفلسفة، وهكذا عشـت، تاركاً كل ما تبقّى مني ليغدو عماءً من الإمكانيات، والغرائـز والدوافـع، وجدت أنها تشكل عائقاً وأطلقت عليها اسم ذئب السهوب.

في تلك الأثناء وجدت، على الرغم من شفائي مـن الوهـم، انحـلال الشخصية هذا ليس بأي حال مغامرة ممتعة أو مسلية. على العكس، لقـد كان كثيراً ما يسبب لي الألم المفـرط، وكثـيراً مـا كـان لا يكـاد يحتمـل. غالباً ما كان هدير الغرامافون يبدو لأذنيّ شيطانياً بحق وسط محيـطٍ كـل شيء فيه مدوزن على مقام موسيقي مختلـف كـل الاختـلاف. وكـم مـن

مرة، وأنا أؤدي رقصةَ الخطوةِ في مطعمٍ فخمٍ بين باحثين عن المتعة وخليعين متأنقين، كنت أشعر أني خائن لكل ما كان يجدر بي أن أحيطه بكل مظاهر التقديس. ولو أن هرمينه تركتني مدة أسبوع واحد وحدي لفررت من فوري بعيداً عن هذه المتاجرة المضجرة والمضحكة، مع عالم المتعة. إلا أن هرمينه، كانت دائماً متواجدة. وعلى الرغم من أني لم أكن أقابلها في كل يوم، إلا أني، مع ذلك، كنت على الدوام، عُرْضة لمراقبتها؛ ترشدني، تحرسني وتنصحني - وإضافة إلى ذلك، قرأتْ كل أفكاري المجنونة، عن التمرد والهروب مرتسمة على وجهي، وابتسمت منها.

مع التدمير المتزايد لكل ما كنت قد أسميته شخصيتي، بدأت أفهم، أيضاً، لماذا كنت أنطوي على كل ذاك الرعب الهائل من الموت على رغم كل يأسي. وبدأت أدرك أن هذا الرعب الوضيع الذي أظهرته في وجه الموت كان جزءاً من وجودي القديم المبتذل الكاذب. إن المغفور له هاري هاللر، الكاتب الموهوب، تلميذ موتسارت، وغوته، مؤلف مقالات حول ميتافيزياء الفن، وحول العبقرية والمأساة والإنسانية، الناسك السوداوي في صومعة تكتنفها الكتب، قد أخذ يتكرَّس شيئاً فشيئاً للنقد الذاتي وكان دائماً يتضح أنه دون المستوى المطلوب. ومن المؤكد أن هاري هاللر الموهوب والمثير للاهتمام هذا كان يبشر بالعقل وبالإنسانية ويناهض بربرية الحرب، إلا أنه لم يفسح لهم المجال ليوقفوه على الجدار ويطلقوا عليه الرصاص، بما إن تلك كانت النتيجة المنطقية التي كان يمكن أن تفضي إليها طريقته في التفكير. لقد كان قد عثر على وسيلة ما للتكيف، وسيلة كانت، طبعاً، ظاهرياً محترمة ونبيلة، إلا أنها مع ذلك كانت تعرَّض للشبهة ولا أكثر. وزيادة على ذلك كان يناهض سلطة رأس المال ومع ذلك كان يحتفظ في مصرفه بسندات صناعية وينفق من فوائدها بدون أي وازع من ضمير. وهكذا انتهى كل شيء.

وطبعاً كان هاري هالِّلر قد تلبَّس كأحسن ما يكون لبوس المثالي والمزدري للعالم، والناسك السوداوي، والنبي والمتذمر. لكنه في أعماقه كان بورجوازياً يعترض على أسلوب حياة كحياة هرمينه ويغضب أشد الغضب من نفسه بسبب الليالي التي يهدرها في مطعم والنقود التي يبددها هناك. وكان يشعر بالذنب. وبدل أن يتوق إلى الحرية والكمال، إذا به يتوق، على العكس، وبكل جدية إلى أن يعود إلى تلك الأوقات السعيدة حين كان عبثه العقلي هو تسليته وكان يجلب له سمعة. وبالطريقة نفسها تاق قراء الصحف أولئك - الذين كان يحتقرهم ويزدريهم - إلى العودة إلى الزمن المثالي السابق للحرب، لأن ذلك كان مريحاً أكثر بكثير من تلقي درس من أولئك الذين عاصروه، أوه، كم أثار هذا الشيطان هاري هالِّلر اشمئزازي! ومع ذلك تعلقت به، أو بالأحرى بالقناع الذي يمثله، والذي كان قد أخذ يسقط، تعلقتُ بعبثه بالروحاني، برعبه البورجوازي من الفوضوي والعَرَضي (وإلى هذا، أيضاً، ينتمي الموت) وأجريت مقارنة مزدرية وحاسدة بين هاري الجديد - الهاوي ارتياد صالات الرقص الرعديد قليلاً والمثير للسخرية - وذاك القديم الذي كان قد اكتشف منذ ذلك الحين في صورته الشخصية المثالية والكاذبة كل تلك المميزات المشؤومة التي أزعجته في تلك الأمسية أيما إزعاج، في صورة غوته عند البروفيسور. وهو نفسه، هاري هالِّلر القديم، كان يمثل بالضبط النسخة البورجوازية من غوته، بطلاً روحياً تشع تحديقته المجلَّلة بالنبل بطلاوة فكر وإنسانية رفيعين، حتى كاد نبل فكره يطغى عليه! يا له من شيطان! الآنَ أخيراً، أصبحت هذه الصورة الرائعة في حاجة ماسَّة إلى ترميم! لقد كان هاري هالِّلر المثالي قد تفكك بشكل يبعث على الأسى! أصبح أشبه بصاحب مقام رفيع وقد وجد نفسه فجأة بين ثلة من اللصوص - وبنطاله رث ممزق - وربما كان برهن على وعيه لو أنه جرب أن يؤدي الدور الذي

أسندته إليه أسماله بدل أن يضجرهم بتلبُّسه مظهراً محترماً ومواصلة ادِّعائه المنتحب لسمعته الضائعة.

كنت دائماً أجدني بصحبة بابلو، الموسيقي، وكان لا بد لي أن أعيد النظر في تقديري له حتى ولو فقط بسبب إعجاب هرمينه الشديد به وتلهفها إلى صحبته. وكان بابلو قد ترك لدي انطباعاً بأنه نكرة، جميل، متأنق صغير، وكان فارغاً بشكل ما في ذلك، وسعيداً كطفل خال من الهموم، متعته أن يسيل لعابه في بوقه اللعبة ويظل هادئاً عندما يتلقى الاطراء والشوكولاة. إلا أن بابلو لم يكن مهتماً بآرائي. كان لا مبالياً بها كما بنظرياتي الموسيقية. كان ينصت بكياسة ودود، ويبتسم كعهده دائماً، إلا أنه مع ذلك كان يحجم عن الادلاء بأي جواب. ومن ناحية أخرى، على الرغم من ذلك، بدا لي أني قد أثرت اهتمامه. كان واضحاً أنه قد حجب نفسه لإرضائي وليظهر لي نيته الطيبة، وحين أبديت ذات مرة شيئاً من النزق، بل حتى المشاكسة، في إحدى تلك المحاولات العقيمة لإقامة حوار، ألقى إلى وجهي نظرة مضطربة وحزينة، ثم تناول يدي اليسرى وراح يمسد عليها ثم قدم لي نتفة من صندوق سعوطه الذهبي الصغير، قائلاً إنها ستفيدني. فنظرت إلى هرمينه مستفهماً. فأومأت برأسها محبذة فأخذت النتفة. والتأثير الفوري كان أن رأسي أصبح أكثر صفاءً وأصبحت أكثر ابتهاجاً. لا ريب في أن المسحوق كان يحتوي على كوكائين. وأخبرتني هرمينه إن لدى بابلو الكثير من تلك المخدرات، وإنه يؤمنها من خلال قنوات سرية. وكان بين حين وآخر يوزع منها على أصدقائه وكان معلماً في مزجها ووصفها. وكان يستخدم المخدرات لتسكين الألم، ولاستجلاب النوم، ولاستحضار الأحلام الجميلة، والمزاج المنتعش وثورة الحب.

ذات يوم قابلته في الشارع بالقرب من رصيف الميناء فانعطف على الفور ليصحبني. وفي هذه المرة نجحت أخيراً في جعله يتكلم.

قلت له بينما كان يعبث بعصا المشي خاصته الفضية والعاجية النحيلة: «هر بابلو، أنت صديق لهرمينه ولهذا تثير اهتمامي. لكني لا أستطيع أن أقول إنك تشجع على إقامة علاقة معك. لقد حاولت مراراً أن أتحدث معك عن الموسيقى. كان يهمني أن أطلع عن أفكارك وآرائك. وأعرف ما إذا كانت تتعارض وآرائي أم لا، لكنك ترفّعت حتى عن إعطائي أدنى جواب».

ابتسم لي أعذب ابتسامة وفي هذه المرة أعطاني جواباً.

قال لي باتزان:«في الواقع، إنـي لا أرى أي داع للتحدث عن الموسيقى. إني لا أتكلم عن الموسيقى أبداً. إذن أي جواب كنت تتوقع مني على ملاحظاتك الشديدة البراعة والصحة؟ لقد كنت محقاً تماماً في كل ما قلت. أما أنا فموسيقي. ولست بروفيسوراً، ولا أصدق أن، فيما يتعلق بالموسيقى، هناك أدنى أهمية لكون المرء محقاً. الموسيقى لا تعتمد على كون المرء محقاً، أو على تمتّعه بذوق حسن وثقافة وما إلى ذلك».

«هذا صحيح. إذن علام تعتمد؟».

«على صنع الموسيقى، هر هاللر، على صنع الموسيقى أيضاً وبأكبر قدر ممكن وبكل ما في وسعه من كثافة، هـذا هو المهم، مسيو. وعلى الرغم من أني أحمل في ذاكرتي الأعمال الكاملة لباخ وهايدن ويمكنني أن أقول في حقهما أحذب الكلام، إلا أن ذلك ما كان ليضيف إليهما أي شيء. ولكن عندما أضم المبسم بين شفتيّ وأعزف لحناً راقصاً حيوياً، سواء أكان اللحن جيداً أم رديئاً، فإني أمنح الناس المتعة. إنه يسري في سيقانهم وفي دمائهم. وهذا وحده هو المهم. أنظر إلى الوجوه في إحدى صالات الرقص لحظة انطلاق الموسيقى بعد فترة توقف مطولة، كيف

تتألق العيون، وتنتفض السيقان وتبدأ الوجوه بالضحك. لهذا بالذات وُجدت الموسيقى».

«هذا رائع هر بابلو. لكن الموسيقى الحسّية ليست وحدها في الساحة. هناك أيضاً الموسيقى الروحية. فإلى جانب الموسيقى التي تروج في الوقت الحاضر، هناك الموسيقى الخالدة التي تبقى في البال حتى عندما لا تُعزف. إذ يمكن أن يحدث للإنسان، وهو مستلق وحده في السرير، أن يتذكر لحناً من أوبرا "الناي السحري" أو من "آلام القديس متّى"، وعندئذ تسري الموسيقى بدون وجود، مَنْ ينفتح في ناي أو يمرِّر قوساً على كمان».

«لا شك في ذلك، هر هاللر. ولحنا "توق" و"فالنسيا"[1]، أيضاً يستعيد ذكراهما في كل ليلة العديد من الحالمين المتوحدين. حتى أبأس طابعة على الآلة الكاتبة وهي في غرفة مكتبها تحمل في ذاكرتها آخر صرعات ألحان الرقص وتضرب مفاتيح الحروف على إيقاعها. أنت على حق. إنني لا أضنُّ على كل أولئك المتوحدين موسيقاهم الخرساء، سواء أكانت "توق" أو "الناي السحري" أو "فالنسيا". ولكن من أين يحصلون على موسيقاهم الموحشة والخرساء؟ إنهم يحصلون عليها منا، نحن الموسيقيين. يجب أولاً أن تُعزف وتسمع، وأن تتغلغل في دمائهم، قبل أن يتمكن أي إنسان وهو في بيته وداخل غرفته من أن يتذكرها ويحلم بها».

قلت ببرود: «أسلّم بهذا، ولكن لا يجوز أن نضع موسيقى موتسارت وآخر صرعات الفوكس ـ تروت في ميزان واحد. ليس صحيحاً أنه سيان إن عزفت للناس موسيقى عُلوية وسرمدية أم شيئاً رخيصاً من هذا اليوم سيُنسى غداً».

---

[1] مقطوعتان من موسيقى الجاز.

عندما لاحظ بابلو من نبرة صوتي أني أزداد حماسة، عمد إلى الفور إلى رسم أشد التعابير وداً على وجهه، وبعد أن لمس ذراعي مداعباً، تكلم بصوت ناعم نعومة لا تصدق:

«نعم، يا سيدي العزيز، لعلك محق تماماً فيما قلته عن المستويات. لا اعتراض لدي على أن تضع موتسارت وهايدن ومقطوعة "فالنسيا" في المستويات التي تريد. فكله عندي سواء. إذ ليس من شأني أن أقرر مسألة الترتيب. فلن يسألني أحد أبداً عنها. ربما ستظل موسيقى موتسارت تُعزف حتى بعد مئة سنة، وفي غضون سنتين ستنسى مقطوعة "فالنسيا" ـ أعتقد أن في إمكاننا أن ندع الأمر بين يدي الله. إن الله طيب ومستقبلنا كله مرهون بين يديه. وكذلك كل لحن فالس وفوكس ـ تروت. ولا شك في انه سيفعل ما يشاء. أما نحن الموسيقيون فيجب أن نؤدي أدوارنا وفقاً لما تمليه علينا واجباتنا ومواهبنا. علينا أن نعزف في الواقع ما هو مطلوب. ويجب أن نؤديه أيضاً بأقصى ما في وسعنا من جمال ومقدرة على التعبير».

تنهدت واستسلمت. فلا مجال لبزّ الرجل.

في كثير من الأحيان كان القديم والجديد، الألم والمتعة، الخوف والفرح يمتزجون بشكل غريب. فتارة أجدني في النعيم، وطوراً في الجحيم، وغالباً ما أكون فيهما معاً دفعة واحدة. ويعيش هاري القديم والجديد في لحظة صراع مرير، وفي أخرى في سلام. وكم من مرة بدا وكأن هاري القديم قد مات وانتهى أمره، مات واندثر، ومن ثم إذا به فجأة يظهر من جديد، يصدر أوامره ويمارس طغيانه ويبدي معرفته الأفضل بكل شيء، إلى أن ينكمش هاري الشاب الجديد الصغير صامتاً من فرط إحساسه بالخجل ويسمح له بمحاصرته. وفي مرات أخرى كان الشاب هاري يقبض على القديم من نحره ويشد بكل ما أوتي من قوة.

ويتعالى الكثير من الأنين، ويدور الكثير من صـراع المـوت، والكثـير مـن التفكير باللجوء إلى حد الموسى.

إلا أنه غالباً ما كان الألم والسـعادة يتلاطمـان علـيّ دفعـة واحـدة. إحدى تلك المرات كانت عندما ولجت إلى غرفة نومي ذات ليلة، وذلـك بعد أيام قليلة من ظهوري الأول كراقـص في مكـان عـام، وكـم أذهلـني وبث فيّ فزعاً، ورعباً، وانبهاراً، إلى حـد يعصـى علـى الوصـف أن أجـد ماريا الجميلة مستلقية على سريري.

من بـين كـل المفاجـآت الـتي أعدتهـا هرمينـه لي كـانت تلـك هـي الأقوى، إذ إني لم أشك لحظة واحدة في أنها هي الـتي أرسـلت عصفـور الجنة ذاك. وكالعادة، لم أكن مع هرمينـه في تلـك الأمسـية. وكنـت قـد حضرت حفلة موسيقية مخصصة للموسيقى الكنسـية القديمـة، أقيمـت في الكاتدرائية، كانت نزهة جميلة، ولـو كئيبـة، في حيـاتي الماضيـة وحقـول فترة شبابي، وتخوم حياتي المثاليـة. وتحـت قبـة الكنيسـة القوطيـة الطـراز السامقة التي كانت قناطرها المعقودة تميد بحياة مخيفة وسط عبث الأضـواء المتنـاثرة، استـمعت إلى مقطوعـات لبوكستهوده[1]، وبـاخِلْبِلْ، وبـاخ، وهايدن. ومرة أخرى سرت في الدرب القديمـة الحبيبـة. سمعـت الصـوت الرائع لمغني يؤدي لحناً لباخ استمتعت بصحبته في الأيام الخـوالي عندمـا كنـا أصدقـاء في مناسبات موسيقية تبقـى للذكـرى. لقـد أحيت أنغـام الموسيقى القديمة بجلالهـا وقداسـتها الأزليـين كـل فتنـة الشـباب وحمـاسـة الممجدين. جلست على شـرفة الخـورس العاليـة، حزينـاً وشـارد الذهـن. ضيفاً مدة ساعة على هذا العالم النبيل المبارك الـذي كـان ذات يـوم بيتـاً

---

(1) ديتريش بوكستهوده (1637-1707): مؤلف موسيقي وعازف أرغن دانماركي. أثر على باخ وهاندل. ـ المترجم.

لي. وأثناء غناء فاصل ثنائي لهايدن ترقرقت فجـأة الدمـوع في عيـني. و لم أنتظر حتى نهاية الحفلة. وتخلَّيت عن فكرة مقابلة المغني ثانيـة (كـم مـن أمسـية قضيتهـا ذات يـوم مـع الفنـانين بعـد انتهـاء مثـل هـذه الحفـلات الموسيقية) وتسـللت خارجـاً مـن الكاتدرائيـة، ورحـت أقطـع الشـوارع الضيقة المظلمة بخطى متعبة، وكنـت أرى هنـا وهنـاك خلـف واجهـات المطاعم فرق جاز تعزف أنغام الحياة التي كنت مقبلاً على الانخراط فيهـا. آه، أي متاهة بليدة من الأخطاء جعلتُ من حياتي!.

فكـرت طويـلاً، خـلال سـيري في تلـك الليلـة، في فحـوى علاقـتي بالموسـيقى، وعرفـت، و لم تكـن المـرة الأولى، في هـــذه العلاقـة الفاتنـة والمشؤومة قدر الروح الألمانية برمتهـا. إن الـروح الألمانيـة تهيمـن عليهـا السيطرة الأمومية، الدنيوية، والانجـذاب إلى الطبيعـة، يتبـدَّى ذلـك علـى شكل سيطرة الموسيقى إلى درجة لم يعرفها أي شـعب آخـر. إننـا معشـر المفكرين، بدل أن نكـافح هـذا الاتجـاه كرجـال ونقـدم ولاء الطاعـة إلى الروح، الـ "اللوغوس"[1]، الـ "الكلمة"، ونكسب سماعاً لهـا، ترانـا جميعـاً نحلم بخطابٍ بدون كلام يعبر عما يعصى على التعبير ويخلـع شـكلاً علـى ما لا شكل له. بدل أن يؤدي المفكر الألماني هذا الدور بكل ما في وسعه من صدق وإخلاص، ظل باستمرار يتمرد على الكلمة وعلى العقل وراح يتملـق الموسيقى. وهكـذا أخـذت الـروح الألمانيـة تسـرف في صخـــب الموسيقى، وإبداعات الصوت الرائعة، وجماليات الشـعور والمـزاج الـتي لم يُبذل أي مجهود حثيث لإعادتها إلى أرض الواقع. وتركـتْ الجـزء الأكـبر من مواهبها العملية ليناله الخراب. لا أحد منا نحن المفكـرون متـآلف مـع الواقع. نحن غرباء عنه ومعادون له. ولهذا كان الدور الذي لعبـه المفكـر،

[1] اللوغوس: في الفلسفة، هو العقل، أو العقل الكلّي. ـ المترجم.

حتى في واقعنا الألماني الخاص، في تاريخنا وسياستنا ورأينا العام، يدعو إلى منتهى الرثاء. ولطالما تفكّرت في كل هذا، بشكل لم يخلُ أحياناً من توق جارف للإنكباب ولو مرة على عمل شيء حقيقي، لأكون فعالاً جدياً وبحس بالمسؤولية، بدل انشغالي على الدوام فقط بالجماليات وبالأبحاث الفكرية والفنية. إلا أن الأمر كان دائماً ينتهي بالإذعان، بالإستسلام للقدر. لقد كان أساطين الصناعة ورؤوسها الكبيرة على حق كامل. إننا معشر المفكرين لا نفع فينا. نحن ثلة تافهة، لا مسؤولة، من الثرثارين الموهوبين. لا يعني لنا الواقع أي شيء. وعدت إلى الموسى، وأنا ألعن.

هكذا، عدت أخيراً إلى البيت، وأنا مترع بالأفكار وبترجيع الموسيقى، وقلبي مثقل جداً بالحزن وقد ضاع إلى الأبد الشوق اليائس إلى الحياة والواقع والمعنى وما إلى ذلك، ورحت أرتقي درجي، وأضأت النور في غرفة جلوسي، وحاولت عبثاً أن أقرأ، فكرت في الموعد الذي اضطرني إلى أن أشرب الويسكي، وأرقص في بار سيسل في الأمسية التي تلت، فكرت بخبث وبمرارة ليس فقط في نفسي، وإنما أيضاً في هرمينه. لعلها إنسانة طيبة تنطوي على أفضل وأرق النوايا، ولعلها إنسانة رائعة، ولكن كانت أحسنت فعلاً لو أنها تركتني أفنى بدلاً من أن تجرني إلى قلب دوامة الأعمال الطائشة هذه حين لن أكون أبداً أكثر من شخص غريب وحيث فسد أفضل ما عندي وانحطّ.

وهكذا أطفأت النور وانتقلت إلى غرفة نومي وأخذت وأنا حزين أخلع ملابسي، ثم فوجئت برائحة غريبة. فقد شممت عبقاً خفيفاً لرائحة عطر، وتلفت فيما حولي فرأيت ماريا الجميلة مستلقية على سريري، تبتسم مع شيء من الذهول، وعينين زرقاوين كبيرتين.

قلت: «ماريا!». وكان أول ما دار في خلدي أن صاحبة البيت سوف تنذرني بالإخلاء حالما تعرف بالأمر.

قالت بنعومة: «لقد جئت. أأنت غاضب مني؟».

«لا، لا. أرى أن هرمينه قد أعطتك المفتاح. أليس كذلك؟».

«أوه، أنت غاضب. سأرحل».

«لا، يا ماريا الجميلة، إبقي! كل ما في الأمر أني، في هذه الليلة بالذات، حزين جداً. لا طاقة لي هذا المساء على المرح. ربما أتحسن من جديد غداً».

كنت مائلاً فوقها فضمّت رأسي بيديها القويتين الكبيرتين، وجرته إلى أسفل نحوها وقبلتني قبلة طويلة. ثم جلست على السرير إلى جانبها، وأمسكت بيديها وطلبت منها أن تتكلم بصوت منخفض لكي لا يسمعها أحد، ورحت أملي نظري في وجهها المستدير والممتلئ والجميل المستلقي بشكل شديد الغرابة والروعة على وسادتي كزهرة كبيرة. شدت يدي ببطء إلى شفتيها ووضعتها من تحت ثيابها على ثديها الدافئ والخفاق بانتظام.

قالت: «لا حاجة بك إلى أن تكون مرحاً. لقد أخبرتني هرمينه أن لديك مشاكل. إن أي إنسان يمكن أن يتفهم هذا. قل لي إذن، أما أزال مصدر سعادة لك؟ في ذاك اليوم، عندما كنا نرقص، كنت هائماً بي حباً».

قبّلتُ عينيها، وفمها وعنقها وثدييها. وكنت قبل برهة أفكر في هرمينه بمرارة وعتاب. والآن ها أنا أضم هديتها بين يدي وأنا ممتن. لم تسبب مداعبات ماريا أي أذى للموسيقى الرائعة التي كنت قد سمعتها في تلك الأمسية. لقد كانت كفؤاً لها، ولإنجازها. وببطء رحت أزيل ملابسها عن جسدها الجميل إلى أن وصلت قبلاتي حتى قدميها. وعندما استلقيت إلى جانبها بادلني وجهها ـ الزهرة ابتسامة عارفة بكل شيء ووافرة.

خلال تلك الليلة، وأنا بجوار ماريا لم يردني الكثير من النوم، لكن نومي كان عميقاً وترين عليه السكينة كإغفاء طفل. وبين فترات النوم

كنت أجرع من شبابها الدافئ الجميل وأنصتُّ، ونحن نتبادل الحديث بخفوت، إلى عدد من الحكايا العجيبة عن حياتها وحياة هرمينه ولم أكن قد عرفت الكثير عن ذاك الجانب من الحياة. ولم أكن في سنوات سابقة قد قابلت، اللهم إلا في عالم المسرح، أحياناً، أساليب حياة مشابهة ـ نساءً وأيضاً رجالاً عاشوا نصف حياتهم من أجل الفن ونصفها الآخر في المتعة. والآن، ولأول مرة، ألقيت نظرة خاطفة إلى هذا النوع من الحياة، الاستثنائية معاً لبراءتها الفريدة، وفسادها الفريد. مثل أولائي الفتيات وهن في الغالب منحدرات من أصول فقيرة، إلا أنهن أشد ذكاءً وجمالاً من أن يسخِّرن كامل حياتهن لأسلوب في كسب لقمة العيش، شحيح الأجر وخال من المتعة، يعشن جميعاً تارة من القيام بأعمال مؤقتة، وتارة أخرى من فتنتهن وبيع أجسادهن. وبين حين وآخر، يعملن، مدة شهر أو إثنين، ككاتبات على الآلة الكاتبة، وأحياناً يكنَّ خليلات لرجال أثرياء مجربين، ويتلقين مبالغ صغيرة وهدايا، وأحياناً يلبسن الفرو، ويركبن السيارات، وينزلن في فنادق فارهة، وفي مرات أخرى يأوين في علّيات، وعلى الرغم من أن عرضاً جيداً لطلب أيديهن قد يغريهن، تحت ظروف معينة، بالزواج، إلا أنهن لسن على الإطلاق متلهفات لذلك. وكثيرات منهن لا يأبهن بالحب ويهبن أنفسهن على مضض شديد، ولكن مقابل مال وبأعلى سعر. وثمة أخريات، وماريا إحداهن، كنّ موهوبات موهبة خارقة في الحب، ولا يستطعن الاستغناء عنه، وأغلبهن أيضاً متمرسات في المضاجعة مع كلا الجنسين. إنهن يعشن للحب فقط، وإلى جانب زبائنهن المعتادين والمريحين كن يقمن أيضاً علاقات جنسية أخرى. إن تلك الفراشات، العاملات المجدّات، الخاليات من الهم والغم، الذكيات والطائشات، يعشن حياة هي في وقت واحد بسيطة و raffiné (راقية)، مستقلات، لا يشتريهن كل راغب، ويجدن قيمتهن في الحظ

الحسن والظرف الجيد، يعشقن الحياة ومع ذلك فأي بورجوازي يتشبث بها أكثر منهن، ودائماً مستعدات للحاق بأمير خيالي إلى قلعته، دائماً متيقنات، وإن كن نادراً ما يعين ذلك، من أن نهاية صعبة ومحزنة تنتظرهن.

خلال تلك الليلة الأولى الرائعة والأيام التي تلت علمتني ماريا الكثير. علّمتني لهو الإحساس الفاتن ومباهجها، لكنها، أيضاً، منحتني فهماً جديداً، وبصيرة جديدة، وحباً جديداً. لقد كان عالم الرقص، ومرابع المتعة، ودور السينما، والبارات وردهات الفنادق الذي وجدت، أنا الناسك وعاشق الجمال الفني، أنه يتسم بمسحة من التفاهة، والتحريم، والانحطاط، كان بالنسبة إلى ماريا، وهرمينه ورفاقهما، عالماً نقياً وطفولياً. فهو لا بالجيد ولا بالسيء، لا هو محبوب ولا مكروه. في هذا العالم كانت حياتهن القصيرة والنهمة تزهر وتتلاشى. فيه يشعرن بالإلفة، ويعرفن كل سراديبه. كن يحببن شرب الشمبانيا أو تناول صنف مميز من الطعام في أحد الفنادق كما قد يحب أي منا مؤلفاً موسيقياً أو شاعراً، وكن يسرفن في أبداء الحماسة نفسها والطرب والانفعال العاطفي حيال آخر صرعات الرقص أو أغنية جاز متخمة بالعاطفية يؤديها مغني جاز بقدر ما يبديه أي منا حيال نيتشه أو هامسن[1]. حدثتني ماريا عن عازف الساكسفون الوسيم بابلو، وأتت على ذكر أغنية أميركية، كان يغنيها لهم في وقت ما، وكانت تتكلم عنها بإعجاب جامح حتى إن تأثري وإثارتي بذلك كانا أكثر بكثير مما تُحدثه لدي نشوة أي حديث لشخص على قدر عال من الثقافة حول متع فنية من أندرها وأشدها تميزاً. كنت مستعداً لأن أتعاطف معها بحماس، مهما كانت الأغنية. لقد أحدثت

---

[1] كنوت هامسن (1859-1952): روائي وكاتب مسرحي وشاعر نرويجي. - المترجم.

كلمات ماريا المتوهجة ووجهها الطافح بالانفعال واللهفة تصدعات كبيرة في مفاهيمي الجمالية. ولا شك في أنه كان هناك "جمال". واحدٌ أحد، صغير ومنتقى، بدا لي أنه مع موتسارت على رأس القائمة، فوق كل نقاش أو ريب، ولكن إلى أي حد؟ ألم نكن جميعاً، نحن خبراء الفن والنقاد، في شبابنا نُستنفذ في حب الأعمال الفنية والفنانين الذين بتنا اليوم ننظر إليهم بعين الشك والرعب؟ أليس هذا ما حدث مع "ليست" و"فاغنر" وأيضاً مع "بيتهوفن"، بالنسبة للكثيرين منا؟ أليس تفتّح مشاعر ماريا الطفولية في كلامها عن الأغنية الأميركية هي تجربة فنية لا تقل نقاءً وجمالاً وترقى فوق أي شك عن ابتهاج أي فطحل أكاديمي بـ "تريستان"، أو نشوة قائد أوركسترا بالسيمفونية التاسعة؟ ثم ألا يتوافق هذا بشكل مذهل وآراء الهر بابلو ويثبت أنه على حق؟.

ماريا أيضاً بدت أنها تحب بابلو الجميل حباً جماً.

قلت: «لا شك في أنه شاب جميل. إنه يعجبني أنا أيضاً كثيراً. ولكن، أخبريني يا ماريا، كيف يمكنك أن تولعي بي أنا أيضاً العجوز الممل، الذي لا يتمتع بشكل حسن، بل إن بعض شعره قد شاب، ولا يحسن العزف على الساكسفون، ولا يغني أياً من أغاني الحب الإنكليزية؟».

قالت تؤنبني: «لا تقل مثل هذا الكلام الفظيع. إنه أمر طبيعي تماماً. أنت أيضاً تعجبني. ثم أنك تتمتع بصفة جميلة تُحبّبك إليّ وتميّزك. وما كنت لأقبلك لو كنت مختلفاً. يجب أن لا يتحدث الإنسان عن مثل هذه الأمور، ويطلب تعليلاً لها. إسمع، عندما تقبّل عنقي وأذني، أشعر أني اسعدك، وإنك تحبني. إن لك أسلوباً في التقبيل يجعلك تبدو وكأنك حييّ، ويقول لي: «أنت تسعدينه وهو شاكر لك لأنك جميلة». وهذا يمنحني متعة عظيمة لا تقدَّر. إلا أني أيضاً عندما أكون مع رجل آخر فإن

ما يعجبني فيه يكون العكس تماماً، أي لأنه يقبِّلني وكأنه يحتقرني ويقدم لي معروفاً».

من جديد استغرقنا في النوم ومن جديد استيقظت لأجد ذراعي ما تزال تطوقها، زهرتي الجميلة، الجميلة.

الغريب في الأمر أن هذه الزهرة الجميلة ظلت مع ذلك الزهرة التي أهدتنيها هرمينة. وظلت هرمينه تقف أمامها وتخفيها وراء قناع. ومن ثم فجأة دخل التفكير في إريكا على الخط ـ حبيبتي الغاضبة، النائية، صديقتي المسكينة. إنها لم تكن تقل جمالاً عن ماريا، وإن لم تكن تبزها في تفتحها، وكانت أكثر تقيُّداً، وليست غنية الموهبة في فنون المضاجعة الصغيرة. تمثّلتْ أمام عيني برهة من الزمن، بجلاء وبإيلام، محبوبة ومتغلغلة عميقاً في قدري، ومن ثم غابت من جديد في غياهب النسيان، دون أن تخلّف كبير ندم.

وهكذا نهضت صور كثيرة من حياتي في جمال الليل الرقيق، ومثلت أمامي، أنا الذي طال عيشي في فراغ مقفر بلا صور. والآن، وبلمسة سحرية من إله الحب، انبجس مَعِينها وتدفقت غزيرة. وتوقف قلبي عن الوجيب بضع لحظات متواصلة ما بين البهجة والحزن ليكتشف مدى غنى معرض حياتي، وازدحام روح ذئب السهوب البائس بنجوم وبروج سرمدية لا تطال. وتبدت طفولتي وأمي وسط تجلٍ شفاف كومضة نائية تنطلق عبر الجبال إلى قلب السماء التي لا يسبر غورها؛ وترجّع هدير ترتيل صداقاتي، بدءاً من الخارق، صنو الروح هرمن، جلياً كنفير أبواق؛ وطافت صور نساء كثيرات مارة بي تفوح عبيراً علوياً كأزهار بحرية مبللة فوق سطح الماء، نساء أحببتهن، اشتهيتهن، غنيتهن، نادراً ما كسبت حبهن ونادراً ما جاهدت لكسبه. زوجتي أيضاً ظهرت. لقد كنت قد عشت معها سنوات عديدة وقد علمتني الصحبة، والكفاح

والتكيّف. وعلى الرغم من كل مثالب حياتنا، ظلت ثقتي بها كما هي لم تمس وحتى آخر يوم عندما ثارت عليّ وتخلت عني بلا سابق إنذار، مريض الفكر والجسد كما كنت. والآن، وأنا أستعيد الذكرى، أرى كم كان حبي وثقتي عميقين حتى يصيبني ظهورها بجرح بليغ يدوم الحياة كلها.

كل هذه الصور - وما كان أكثرها، بأسماء وبدونها - عادت إليّ. نهضت نضرة وجديدة من قلب ليلة الحب هذه، ومرة أخرى عرفت، ما كنت قد نسيته في خضم بؤسي، أنها تمثل هاجس حياتي وكل قيمتها، هذه التجارب، الخالدة الباقية كالنجوم، وإن نُسيت، فلن تمحى. تسلسلها يحكي قصة حياتي، ونورها المتلألئ كالنجوم هو قيمة كياني السرمدية. لقد كانت حياتي قد أضحت مللاً. كانت تجول داخل متاهة من التعاسة تفضي إلى النكران والعدم، أضحت مريرة المذاق بفعل ملح البشر جميعاً، إلا أنها ادّخرت لي ثروة، ثروة جديرة بأن أفخر بها. كانت على الرغم من كل بؤسها حياة فخمة. وبغض النظر عن الدرب الصغيرة المؤدية إلى الموت، وما تثيره من رثاء، فإن جوهر حياتي كان نبيلاً. كان لها هدف وسمة مميزة ولا تتجه نحو التوافه، بل صوب النجوم.

ومر الوقت وحدث الكثير، وتغير الكثير. ولا أكاد أذكر أي شيء مما وقع في تلك الليلة، ومما قلناه وفعلناه ونحن هائمان في رقة الحب الغامرة، ومن اليقظة المنتعشة من نومِ إرهاقِ الحب العميق. ولكن في تلك الليلة، ولأول مرة منذ أن أعاد سقوطي المفاجئ إليّ تألق حياتي الصارم وجعلني أرى الحظ مرة أخرى، على أنه القدر وأن أرى أطلال كياني كشظايا القدسيّ، عادت روحي تتنفس من جديد، وتفتحت عيناي. وكنت أحياناً أشعر مع توهجٍ أنه يكفيني أن ألملم صوري المهشمة وأبني حياتي كهاري هاللر وكذئب السهوب لتغدو صورةمتكاملة، لكي

أُدخِل ذاتي إلى عالم الخيال وأغدو خالداً. أليس هذا، إذن، الهدف الذي وُضِع لكي يُحرز كل كائن بشري تقدمه؟.

في الصباح، وبعد أن تناولنا طعام الإفطار معاً، كان عليّ أن أهرِّب ماريا من المنزل. وفي وقت لاحق من ذاك اليوم نفسه استأجرت غرفة صغيرة في حي مجاور خصصناها فقط للقائاتنا.

ثم ظهرت هرمينه، أستاذتي في الرقص، الملتزمة بواجباتها، وكان لا بد لي أن أتعلم رقصة البوسطن. كانت حازمة ومتصلبة وترفض أن تحلّني حتى من درس واحد، فقد قررتْ أن أحضر حفلة الأزياء التنكرية بمصاحبتها. وكانت قد طلبت مني نقوداً لتشتري زياً لها، لكنها رفضت أن تخبرني أي شيء عنه. وكان ما يزال محرماً عليّ أن أقوم بزيارتها، أو حتى أن أعرف مكان سكناها.

هذه المرة، قبل موعد الحفلة التنكرية بثلاثة أسابيع، كان كل شيء رائعاً بشكل خارق. فقد بدت ماريا وكأنها أول امرأة أحببتها حقاً في حياتي. ولطالما كنت أطلب في النساء اللواتي عشقتهن اتصافهن بالذكاء وبالثقافة، بدون أن ألاحظ أنه حتى أشد النساء ذكاءً وأيضاً، نسبياً، ثقافة، لم تكن تستجيب قط للوغوس عندي، بل كانت على العكس تناقضه باستمرار. وأخذت معي مشاكلي وأفكاري وأنا بصحبة النساء وكان يمكن أن يبدو لي من رابع المستحيلات أن أعشق فتاة يصعب القول إنها قد قرأت كتاباً في حياتها ولا تعرف القراءة، ولا يمكنها أن تعيّن الفرق بين موسيقى تشايكوفسكي وموسيقى بيتهوفن. ماريا لم تكن قد حصّلت أي ثقافة. ومشاكلها كلها كانت تنشأ مباشرة من الحواس. لقد كان فنها كله والمهمة التي تولت القيام بها برمتها يكمنان في استخلاص أقصى بهجة من الحواس التي وُهبت لها، من جسدها المميز، ولون بشرتها، وشعرها، وصوتها، وجلدها، ومزاجها الخاص،

وفي استغلال كل استعداد، كل انعطافة وخط وأرقّ تكوين من جسدها لتعثر من خلالها على مدركات مستجيبة عند عشاقها، ولكي تستحضر فيهم استمتاعاً سريع الإجابة. وكانت أول رقصة حيية رقصتها معها قد دلتني على كل هذا. لقد أدركت عبير وسحر وحساسية فائقة ومهذبة بعناية وفُتنتُ بهما. ومما لا شك فيه، أيضاً، أنه ليس من قبيل المصادفة أن هرمينه العارفة بكل شيء، قد قدمتني إلى ماريا. لقد كان يفوح منها عبير الصيف والورود ومغزاهما الخاص.

لم يكن قدري أن أكون عشيق ماريا الوحيد، ولا حتى حظها المفضل. لقد كنت أحدهم. فغالباً لم يكن يتوفر لديها وقت لتخصصه لي. وغالباً كان مجرد ساعة عند الظهيرة، ونادراً ما أمضينا ليلة معاً. ولم تأخذ مني نقود. هرمينه هي التي قررت ذلك. بيد أنها كانت تسعد بالهدايا. فإذا أهديتها، مثلاً، جزداناً صغيراً جديداً من الجلد الأحمر المصقول أضع داخله قطعتين أو ثلاثاً من الذهب. والحقيقة هي أنها كانت تضحك مني بسبب الجزدان الأحمر. فهو فاتن، لكنه صفقة مربحة، ولم يعد على الموضة. وفي مثل تلك المسائل، ولم أكن عندئذ قد تعلمت بشأنها الكثير، إلا بقدر ما تعلمت لغة الأسكيمو، لقد تعلمت أموراً كثيرة من ماريا. وتعلمت قبل أي شيء أن تلك الألعوبات لم تكن مجرد تفاهات لا جدوى منها ابتكرها مصنّعون وتجار بهدف الربح، بل كانت، على العكس، تشكل عالماً صغيراً، بل كبيراً، موثوقاً وجميلاً، متعدد الجوانب، يحتوي أشياء كثيرة جداً، وليس لها جميعاً إلا هدف واحد ووحيد هو خدمة الحب، وتهذيب الأحاسيس وإضفاء الحياة على العالم المميت المحيط بنا، تقديمه بطريقة مبهرة باستخدام أدوات جديدة للحب من البودرة والعطر إلى حذاء للرقص، من الخاتم إلى صندوق للسجائر، من أسوارة إلى شنطة يد. وهذه الشنطة لم تكن شنطة،

والجزدان ليس جزداناً، والزهور ليس زهوراً، والمروحة ليس مروحة. كلها مواد بلاستيكية مصنوعة من الحب، والسحر والبهجة. كل منها كان رسولاً، مهرِّباً، سلاحاً، صيحة حرب.

لطالما كنت أتساءل من هو حبيب ماريا حقاً. أعتقد أنها كانت تحب الشاب بابلو عازف الساكسفون، بعينيه السوداوين الكئيبتين، ويديه الطويلتين، البيضاوين، المميزتين والحزينتين. وكان بابلو يبدو لي عاشقاً بليداً، مدللاً، وسلبياً، غير أن ماريا أكدت لي أنه على الرغم من أنه قد استغرق منها بث الإثارة فيه طويلاً إلا أنه أصبح بعدئذ أشد اتقاداً واندفاعاً ورجولة من أي مصارع محترف أو معلم ركوب خيل.

بهذه الطريقة توصلت إلى الإطّلاع على أسرار عديدة لهذا الشخص أو ذاك، لعازفي الجاز، والممثلين والكثير من النساء والفتيات والرجال في حلقتنا. رأيت ما تحت التحالفات والعداءات المختلفة، وانخرطت بينهم تدريجياً (على الرغم من كوني غريباً تماماً عن ذاك العالم) وأصبحت موضع ثقتهم. تعلمت الكثير أيضاً عن هرمينه. غير أني كنت أكثر ما أشاهد الهر بابلو، الذي تعشقه ماريا. وأحياناً كانت هي أيضاً تتزود من مخدراته السرية، وكانت دائماً تدبّر هذه المتع لي أيضاً، وكان بابلو دائماً يبدي تلهفه لتقديم الخدمات لي. وذات مرة قال لي بدون مقدمات: «أنت تعيس جداً. وهذا أمر سيء. على المرء أن لا يكون كذلك. إنك تثير شفقتي. جرِّب أن تدخن غليوناً معتدلاً من الآفيون». وأخذ رأيي في هذا الشخص المرح، الذكي، الطفولي، وفي الوقت نفسه، العويص يتغير بالتدريج. أصبحنا صديقين، وكنت كثيراً ما أقبل بعضاً من علاجاته الناجعة. وكان ينظر إلى علاقتي بماريا بشيء من الخفة. وذات مرة أخذ يسلينا ونحن في غرفته الكائنة في الطابق الأعلى لفندق في الضواحي. ولم يكن عنده غير كرسي واحد، فاضطررنا ماريا وأنا أن نجلس على

السرير. وقدم لنا مشروباً من ثلاث زجاجات صغيرة، وكان عبارة عن جرعة ذات مذاق غامض ورائع. وعندئذ عندما دخلت في مزاج رائق جداً، اقترح، وعيناه تبرقان، أن نقيم احتفالاً جنسياً صاخباً نحن الثلاثة. فرفضت على الفور. لقد كان مثل ذاك الأمر شيئاً لا يصدق. إلا أني اختلست نظرة خاطفة إلى ماريا لأرى كيف ستتقبله، وعلى الرغم من أنها سارعت إلى دعم رفضي إلا أني لمحت وميضاً في عينيها، ولاحظت أن الرفض قد كلفها بعض الندم. وأصيب بابلو بخيبة أمل لكن رفضي لم يسبب له الألم. قال: «من المؤسف أن هاري يغالي في أفكاره الأخلاقية. لا حيلة لنا في هذا. ومع ذلك كان سيكون أمراً غاية في الجمال، غاية في الجمال! ولكن عندي فكرة أخرى». وأعطى كلاً منا قليلاً من الآفيون لندخنه، وجلسنا نحن الثلاثة بسكون وعيوننا مفتوحة ورحنا نعايش مشاهد نستحضرها بأنفسنا. وكانت ماريا ترتعش من فرط الابتهاج. وبعد الانتهاء شعرت أني متوعك قليلاً، فمددني بابلو على السرير وأعطاني قطرات من عقار معين، وبينما كنت مستلقياً مغمض العينين، شعرت بأنفاس عابرة لقبلة على كل جفن. وتقبّلت القبلة وكأني كنت معتقداً أنها صادرة عن ماريا. لكني كنت أعرف حق المعرفة أنها صدرت عنه.

ذات أمسية بدر عنه ما سبب لي دهشة أعظم. فقد جاءني إلى غرفتي وأخبرني أنه يحتاج إلى عشرين فرنكاً فهل لي أن أقرضه إياها؟ وعرض عليّ مقابل ذلك أن أقضي الليلة مع ماريا بدلاً عنه.

قلت، وقد صعقت إلى أقصى حد: «بابلو، أنت لا تدري ما تقول، إن المقايضة بامرأة بيننا كأسوأ أنواع الانحطاط. سأفترض أني لم اسمع عرضك يا بابلو».

نظر إليّ باشتياق: «إذن أنت ترفض، يـا هـر هـاري. عظيـم جـداً. أنت دائماً تصعِّب الأمور على نفسك. لا تضاجع ماريا هذه الليلـة إذا لم تكن ترغب في ذلك. ولكن أعطني النقود في كلا الحالين وسوف أعيدها إليك. إني بحاجة ماسة إليها».

«لأي غرض؟».

«مـن أجـل أوغسـطينو، عـازف الكمـان الثـاني، أنـت تعرفـه. إنـه مريض منذ أسبوع وليس معه من يعنى أمره. إنه لا يملـك قرشـاً واحـداً، ولا أنا في الوقت الحاضر».

مـن قبيـل الفضـول وأيضـاً جزئيـاً عقابـاً لنفسـي، ذهبـت لعيـادة أوغسطينو. وأخذ معه حليباً ودواءً لأجله في علّيته، وكانت مكاناً بائساً. فأعدّ له سريره وهوّى له الغرفة ووضع لـه كمـادات محترفـة علـى رأسـه المحموم. وكل هذا بسرعة ورفق وحرفيَّة بارعة. وفي الأمسية نفسها رأيته يعزف حتى الفجر في "سيتي بار".

غالباً ما كنت أتحدث مطولاً وبالتفصيل مع هرمينه عن ماريـا، عـن يديها وكتفيها ووركيها وطريقتها في الضحك، والتقبيل والرقص.

في إحدى المرات سألتني هرمينه، تصف لي طريقة خاصـة في العبـث باللسـان عنـد التقبيـل: «هـل أرتـك هـذا؟». فسـألتها أن تريـني عمليـاً بنفسها، لكنها رفضت بجدية كاملة. «سيحدث هـذا لاحقـاً. لم أصبـح عشيقتك بعد».

سألتها كيف تعرفت على أسـاليب ماريـا في التقبيـل وعلـى أسـرار عديدة أيضاً لا يمكن أن يعرفها إلا عشاقها.

هتفت: «أوه، نحن صديقتان، قبـل كـل شـيء. أتظـن أن كـلاً منـا تخفي أسرارها عن الأخرى؟ يجب أن أعترف أن لديك فتـاة جميلـة. إنهـا أفضل الجميع».

«ولكني واثق يا هرمينه من أن كلاً منكما تخفي بعض الأسرار عن الأخرى، أم أنك أخبرتها بكل ما تعرفينه عني؟»؟

«لا، هذه مسألة أخرى. إنها أمور هي لن تفهمها. ماريا رائعة. وأنت محظوظ. ولكن بيني وبينك هناك أمور لا تعرف أي شيء عنها. طبعاً أنا أخبرتها أشياء كثيرة عنك، أكثر مما كنت ستحب أن تخبرها به في ذلك الوقت. كان لا بد أن أكسبها لصالحك، كما تعلم. ولكن، لا ماريا ولا أي إنسان آخر سيتوصل أبداً إلى فهمك كما أفهمك أنا. بيد أني عرفت شيئاً عنك منها، فقد أخبرتني بكل ما تعرفه عنك. إنني أعرفك تقريباً كما لو أننا نتضاجع دائماً.

حين اجتمعت بماريا من جديد، كم استغربت وأغلق علي فهم ما عرفته عن أنها ضمت هرمينه بين ذراعيها بقدر ما ضمتني، وأنها تحسست، وقبّلت، وتذوقت واختبرت أعضاءها وشعرها وبشرتها تماماً كما فعلت معي. وتمثّلت أمامي علاقات جديدة، مواربة، ومعقدة، إمكانيات جديدة في الحب والحياة، وتذكرت الأرواح الألف الواردة في أطروحة ذئب السهوب.



خلال فترة وجيزة امتدت بين وقت بدء تعرّفي إلى ماريا وحفلات الأزياء التنكرية عشت سعادة غامرة، ومع ذلك لم اشعر قط أن هذا يمثل تحرري وبلوغي ذروة السعادة. ولكن أدركت بجلاء أن كل ذلك هو فترة تمهيد وإعداد، أن كل شيء يتجه بقوة إلى الأمام، وأن جوهر المسالة قادم على الطريق.

عندئذ كنت قد أصبحت ماهراً في الرقص حتى صرت أشعر أنني كفؤاً للعب دوري في الحفلة حديث المجتمع. وكانت هرمينه تخفي سراً. فحرصت كل الحرص على أن لا تطلعني على شكل زيّها. قالت إنني

سوف أتعرف عليها سريعاً، وإذا ما فشلت في ذلك فستساعدني، أما قبل ذلك فلن أعرف أي شيء. ولم يكن لديها أي فضول لتعرف خططي بشأن الزي التنكري. وقررت أن لا أرتدي أي زي من الأزياء. وعندما طلبتُ من ماريا أن تكون رفيقتي إلى الحفلة قالت مبررة أنها واعدت فارساً من القرون الوسطى، وحجزت البطاقات أيضاً، ورأيت وقد أصابني بعض من خيبة الأمل أن عليّ أن أحضر الحفلة وحدي. لقد كانت حفلة الأزياء التنكرية في البلدة، وتنظمها سنوياً جمعية الفنانين في "غلوب رومز".

خلال تلك الأيام لم أكن أرى هرمينه، ولكن قبل موعد الاحتفال بيوم قامت بزيارة قصيرة لي. جاءت لتأخذ بطاقتها، التي كنت قد حصلت عليها لأجلها، وجلست معي بهدوء برهة في غرفتي. وانخرطنا في حديث كان استثنائياً جداً حتى إنه ترك لدي انطباعاً عميقاً.

قالت: «في الحقيقة إنك تحرز تقدماً ممتازاً. الرقص يناسبك. إن من لم يرك خلال الأسابيع الأربعة الأخيرة لن يتعرف عليك».

وافقتها قائلاً: «نعم، إن الأمور لم تسر سيراً حسناً هكذا معي منذ سنين. وكله من صنع يديك يا هرمينه».

«أوه، أليس هو إذن من صنع الجميلة ماريا؟».

«لا، إنها هدية منك ككل شيء آخر، إنها رائعة».

«إنها بالضبط الفتاة التي تحتاجها، يا ذئب السهوب - جميلة، غضة، مرحة، وخبيرة في فنون الحب، ويتعذر نيلها في كل يوم. ولو لم تكن مضطراً إلى أن تتقاسمها مع آخرين، لو لم تكن هي دائماً مجرد ضيف عابر، لكان الأمر مختلفاً».

نعم كان لا بد لي أن اسلم بهذا أيضاً.

«وعليه، هل يمكن أن تعتبر بحق أنك الآن قد حصلت على كل ما ترغب؟».

«لا، يا هرمينه. ليس الأمر بهذا الشكل. إن ما حصلت عليه رائع الجمال ومفعم بالبهجة، هو متعة عظيمة، وسلوى عظيمة. إنني بحق سعيد».

«حسن إذن، ماذا تريد أكثر من هذا؟».

«أنا فعلاً أرغب في المزيد. إني غير قانع بمجرد كوني سعيداً. لم أخلق لهذا. وهو ليس قدري. إن قدري هو أن أكون عكس ذلك».

«يعني أن تكون تعيساً؟ في الواقع، لقد نلت هذا وأكثرت منه، في ذاك الوقت حين لم تقو على العودة إلى المنزل بسبب موسى الحلاقة».

«لا، يا هرمينه، بل هو شيء آخر. أوافقك على أنني في ذاك الوقت كنت تعيساً جداً. لكنها كانت تعاسة حمقاء لا طائل من ورائها».

«لماذا؟».

«لأنه ما كان يجب أن أخشى الموت عندما رغبت فيه. إن التعاسة التي أحتاجها وأصبو إليها مختلفة. إنها من النوع الذي سيجعلني أضطرم لهفة وأموت تحرقاً. تلك هي التعاسة أو السعادة التي أنتظرها».

«فهمتك. هنا نحن متشابهان. ولكن ما اعتراضك على السعادة التي وجدتها الآن عند ماريا؟ لم لست راضياً؟».

«لا اعتراض لي عليها. أوه، لا، إني أحبها. وشاكر لها. إنها جميلة كنهار مشمس في صيف رطب. لكني أشك في أنها ستدوم. وهذه السعادة أيضاً لا طائل لها من ورائها. هي تمنح الرضا، لكن الرضا لا يغذيني. وهي تهدهد ذئب السهوب كي يستغرق في النوم حتى يتخمه، لكنها ليست سعادة جديرة بأن أموت من أجلها».

«إذن من الضروري أن تموت، يا ذئب السهوب؟».

«أعتقد ذلك، نعم. إن سعادتي تملؤني بالرضا ولا زال في إمكاني أن أتحملها مدة طويلة. ولكن أحياناً عندما تترك لي السعادة برهة فراغ لكي أنظر فيما حولي وأتوق إلى أمور مختلفة، فإن ذاك التوق لا يتجه نحو الاحتفاظ بهذه السعادة إلى الأبد، وإنما نحو المعاناة من جديد، ولكن بشكل أكثر جمالاً وأقل قسوة من ذي قبل. أتوق إلى المعاناة التي تعدّني للموت وتجعلني راغباً فيه».

نظرت هرمينه برقة إلى عينيّ بتلك النظرة المبهمة التي يمكنها بفجاءة كبيرة أن تحتل وجهها. يا لتينك العينين الجميلتين! ثم قالت، وهي تنتقي كلماتها كلمة فكلمة، وتنسّقها معاً، وتتكلم ببطء، وبصوت منخفض جداً حتى كان من المتعب سماعها:

«اليوم أود أن أقول لك شيئاً، شيء أعرفه منذ مدة طويلة، وأنت أيضاً تعرفه، ولكن لعلك لم تصارح به نفسك. وسأخبرك الآن ما الذي أعرفه عنك وعني وعن مصيرنا. لقد كنت يا هاري فناناً ومفكراً، رجلاً ملؤه الفرح والإيمان، ودائماً تسعى وراء ما هو عظيم وخالد، ولا يرضيك التافه والحقير. ولكن كلما أيقظتك الحياة أكثر وأعادتك إلى نفسك، عَظُمتْ حاجتك وازداد عمق آلامك وخوفك ويأسك التي استولت عليك، حتى أغرقتك. وكل ما عرفته في يوم من الأيام وأحبَبْته ووقّرته بوصفه جميلاً ومقدساً، كل إيمانك ذات يوم بالبشرية وبقدرنا الأمثل، لم تكن له أي فائدة وفقد قيمته وتهشّم شذراً. إن إيمانك لم يعد يجد هواءً يتنفسه، والاختناق طريقة قاسية للموت. أليس صحيحاً، يا هاري؟ هل هذا هو مصيرك؟».

أومأت موافقاً مراراً وتكراراً.

«إنك تحمل صورة للحياة في داخلك، صورة إيمان، وتحدٍ، وكنت مستعداً لإنجاز المآثر وللآلام وللتضحيات، ومن ثم أدركت شيئاً فشيئاً

أن العالم لم يعد يطلب منك المآثر أو التضحيات، مهما كانت، وأن الحياة ليست قصيدة تحكي عن البطولة وتحتوي أدواراً بطولية تؤدى، وما إلى ذلك، وإنما غرفة مريحة يرضى فيها الناس تماماً بالأكل والشرب، ورشف القهوة، والحياكة، ولعب الورق وسماع الموسيقى من المذياع. وكل من يرغب فيما هو أكثر من ذلك، ويحمله داخله ـ كالبطولي والجميل، وتبجيل الشعراء العظام أو القديسين ـ هو أحمق ودون كيخوته. عظيم. وهذا بالضبط ما حصل معي، يا صديقي. لقد كنت فتاة موهوبة. خلقتُ لأعيش على أعلى مستوى، لأتوقع دوراً عظيماً. كان يمكن أن أكون زوجة ملك، أو عشيقة رجل ثوري، أو أخت عبقري، أو أم شهيد. أما الحياة فلم تسمح لي إلا بهذا، أن أكون مومساً ذات ذوق رفيع جداً، وحتى هذا كان وضعاً صعباً جداً. هكذا جرت الأمور معي. في الفترة الأولى ما كان لشيء أن يعزيني وبقيت ردحاً طويلاً أضع اللوم على نفسي. قلت في نفسي، لا بد أن تستقيم الحياة معي في نهاية المطاف، فإذا هزأت الحياة من أحلامي، هكذا رحت أقول، فإن أحلامي هي الحمقاء والعنيدة. لكن ذلك لم يفدني بشيء. وبما أني أمتلك عينين وأذنين وأتمتع أيضاً بقدر من الفضول، رحت ألقي نظرة متفحصة إلى هذه التي تسمّى الحياة وإلى جيراني ومعارفي، إلى خمسين أو نحو ذلك منهم وإلى مصائرهم، ومن ثم رأيتك. وأدركت أن أحلامي كانت على حق ألف مرة ومرة، تماماً كأحلامك. لقد كانت الحياة والواقع هما المخطئان. كان صحيحاً قليلاً أن امرأة مثلي لا خيار لها غير أن تتقدم في السن وهي فقيرة تعيش حياة لا طعم لها أمام آلة كاتبة تتلقى راتباً من جامع ثروة، أو أن تتزوج رجلاً طمعاً في ماله، أو أن تغدو عاملة كادحة، أما بالنسبة إلى رجل مثلك فلا خيار أمامه إلا أن يُقحَم داخل عزلته وبأسه ويلتمس العون من موسى حلاقة. لعل مشكلتي

كانت أكثر أمومّية وأخلاقيـة ومشـكلتك كـانت روحيـة أكـثر ـ لكـن الاتجاه هو نفسه. أتظن أني لا أفهم رعبك من رقصة الفوكس ـ تـروت، وبغضك للحياة ولصالات الرقص، ومقتك لموسيقى الجاز وبقية الأشياء؟ إنني أفهمها كل الفهم، وكرهك للسياسـة أيضاً، وقنوطـك مـن الـثرثرة والتصرفات الشاذة وغـير المسؤولة للأحـزاب وللصحافة، ويأسـك مـن الحرب، تلك التي انتهت وتلك الـتي ستنشب، ومـن كـل مـا يفكـر فيـه الناس هـذه الأيـام. ويقرأونـه وينشـؤونه، ومـن الموسيقى الـتي يعزفـون، والاحتفالات التي يقيمون، والثقافة التي ينشرون. أنت على حق، يا ذئب السهوب، على حق ألف مرة ومرة، ومـع ذلـك فيجـب أن تفنـى. إنـك شديد النهم إلى هـذا العـالم المعـاصر البسيط، والمتمهـل، والـذي يرضـى بسهولة. وأنت من أصحاب الأبعاد المتعددة والكثيرة جداً. ومـن يرغـب في أن يعيش حياته اليوم ويستمتع بها يجب أن لا يكون مثلي ومثلك. من يطلب الموسيقى بدل الضجيج والفرح بدل المتعة، والروح بدل الذهـب، والعمل الخلاق بـدل العمـل التجـاري، والشـغف بـدل الحماقـة، لا يجـد مأوى له في عالمنا التافه هذا».

أطرقت واستغرقت في التأمل.

هتفتُ برقة: «هرمينه، يا أختاه، ما أصفى بصيرتك! ومـع ذلـك علّمتني رقصة الفوكس ـ تروت! ولكن ماذا تعنـين بقولـك إن أمثالنـا من أصحاب الأبعاد المتعددة لا يستطيعون أن يعيشوا هنا؟ وما سـبب ذلك؟ أهو فقط حال أيامنا هذه، أم أن الأمر كان كذلك دائماً؟».

«لا أدري. إكراماً للعالم سأفترض إنه فقط حال زماننـا هـذا ـ إنـه مرض، إنها محنة مؤقتة. إن قادتنا يبذلون أقصى جهودهم، وبنجاح، لكي يوجدوا أسباب قيام الحرب التاليـة، في حين أن بقيتنـا، في تلـك الأثنـاء، يرقصون الفوكس ـ تروت، ويكسبون المال ويأكلون الحلوى ـ في زمـن

كهذا لا بد للعالم من أن يظهر بمظهر مخز فلنأمل في أن أزماناً أخرى كانت أفضل حالاً. ولكن هذا لن يفيدنا الآن. ولعل الوضع كان هكذا دائماً».

«كان دائماً كما هو الآن؟ عالم مخصص دائماً للسياسيين، والاستغلاليين، للنُدل وللباحثين عن المتعة، دون أن يجد فيه الرجال نسمة هواء؟».

«في الواقع لا أدري. لا أحد يدري. على أي حال، الأمر سواء. لكنني الآن أفكر في أثيرك الذي حدثتني عنه أحياناً، وقرأت لي، أيضاً، بعضاً من رسائله، في موتسارت. كيف كان الوضع في أيامه؟ من كان يمسك بزمام الأمور في زمنه ويحكم الجماهير ويوجه السلوك العام وكان له وزنه؟ أكان موتسارت أم التجار، أموتسارت أم الإنسان العادي؟ وكيف مات ودفن؟ أقصد أنه ربما كان الحال هو نفسه دائماً وسيظل كذلك دائماً، وأن ما يسمى بالتاريخ في المدرسة، وكل ما نتعلمه عن ظهر قلب هناك عن الأبطال والعباقرة والمآثر العظيمة والمشاعر الراقية، ما هو إلا خداع لفّقه أساتذة المدارس لأسباب تثقيفية لشغل وقت الأطفال على مدى عدد من السنين. هكذا كان الحال دائماً وهكذا سيظل دائماً. إن الزمن والعالم، المال والسلطة، تخص الصغار من الناس والسطحيين. أما الباقون، الرجال الحقيقيون فلا ينتمون إلى أي شيء. إلا إلى الموت».

«ولا شيء آخر؟».

«نعم، إلى الأبدية».

«تقصدين الاسم، وشهرته بين الأجيال الطالعة؟».

«لا، يا ذئب السهوب، ليس بالشهرة. هل لها أي قيمة؟ أتعتقد أن كل الرجال الحقيقيين كانوا مشهورين ومعروفين لدى الأجيال اللاحقة؟».

«لا، طبعاً لا».

«إذن ليست الشهرة. الشهرة لا توجد بهذا المعنى إلا بقصد التثقيف، إنها مادة تخص أساتذة المدارس. لا، ليس الشهرة. إنها ما أسميه أنا الأبدية. الورعون يسمونها مملكة الله. إنني أقول لنفسي: إننا نحن الذين نعاني في طرح الأسئلة ولنا أبعاد عديدة لا يمكننا أن نجد أية وسيلة للعيش إذا لم يتوفر لنا هواء آخر نتنفسه بعيداً عن هواء هذا العالم، إذا لم تكن هناك أبدية خلف الزمان، وهذه هي مملكة الحقيقة. وموسيقى موتسارت تنتمي إلى هناك وأيضاً شِعر أصحابك الشعراء العظام. القديسون أيضاً ينتمون إلى هناك، الذين صنعوا العجائب وعانوا عذاب الشهادة وكانوا قدوة للناس. لكن صورة كل عمل حقيقي، وقوة كل شعور حقيقي، ينتميان إلى الأبدية بالقدر نفسه، على الرغم من أنه لا أحد يعرف هذا أو يراه أو يسجِّله أو يسلِّمه للأجيال القادمة. ففي الأبدية لا توجد أجيال طالعة».

«معك حق».

تابعتْ تقول بصوت متأمل: «إن الورعين قبل كل شيء يعرفون أكثر من غيرهم عن هذا. ولهذا السبب يُنَصَّب القديسون وما يسمى بطائفة القديسين. والقديسون يُقصد بهم الرجال الحقيقيون، الأخوة الصغار للمخلِّص. ونحن نسير باتجاههم على امتداد حياتنا، ومن خلال كل عمل طيب نقوم به، وعبر كل فكرة جريئة، وكل علاقة حب. وطائفة القديسين كان الرسامون في الأزمان المبكرة قد وضعوها وسط سماء ذهبية، ساطعة، جميلة يسودها السلام، وهي ليست إلا ما عنيته قبل هنيهة عندما سميتها الأبدية، إنها المملكة القائمة على الجانب الآخر من الزمن والمرئيات. وإلى هناك ننتمي نحن. هناك بيتنا. ولأجله تكافح قلوبنا. ولهذا، يا ذئب السهوب، نتوق إلى الموت. هناك ستقابل من

جديد أصحابك غوته ونوفاليس وموتسارت، وأقابل أنا قديسيّ الأحباء، كريستوفر، وفيليب النيري[1] وكلهم. هناك الكثير من القديسين الذين كانوا خطاة. حتى الخطيئة يمكن أن تكون سبيلاً إلى القداسة، والإثم والشر. سوف تضحك مني، لكني كثيراً ما أفكر في أنه حتى صديقي بابلو يمكن أن يكون قديساً متخفياً. آه، يا هاري، علينا أن نتعثر في الكثير من القذارة والخداع قبل أن نصل إلى بيتنا. وليس معنا من يقود خطانا. إن مرشدنا الوحيد هو شعورنا بالحنين إلى الوطن».

مع الكلمات الأخيرة كان صوتها قد عاد ينخفض من جديد ومن ثم ساد صمت السكينة في الغرفة. كانت الشمس تغرب، أضاءت الأحرف المذهبة المطبوعة على أغلفة كتبي. ضممتُ رأس هرمينه بين يديّ وقبّلت جبينها وملتُ بخدي على خدها وكأنها أختي، وبقينا هكذا برهة. وهكذا تمنيت أن أبقى ولم أرغب في الخروج في ذاك اليوم. لكن ماريا كانت قد وعدتني بلقائها في تلك الليلة السابقة ليوم الحفلة الكبرى.

لكن وأنا في طريقي للانضمام إلى ماريا كنت أفكر، ليس فيها، وإنما فيما قالته هرمينه. وخُيل إلي أنه ربما ليس من بنات أفكارها بل أفكاري أنا. لقد قرأتها كمستبصر. استنشقتها ثم زفرتها، بحيث أصبح لها شكلها الخاص وعادت إليّ وكأنها جديدة. كنت بشكل خاص شاكراً لها فكرة الأبدية في ذاك الوقت بالذات. لقد كنت بحاجة إليها، فبدونها ما كنت لأستطيع أن أعيش ولا أن أموت. في ذاك اليوم أعادت صديقتي هذه التي علمتني الرقص إليّ المعنى المقدس للماوراء، اللازمن، لعالمٍ له قيمة سرمدية، وجوهره عُلوي.

---

[1] فيليب النيري (1515-1595): كاهن إيطالي. ـ المترجم.

كان لا بد لي أن أستعيد ذكرى حلمي بغوته ورؤياي عن المتعالي العجوز عندما ضحك بطريقة وحشية جداً ومارس مزاحه عليّ بأسلوب الخالدين. ولأول مرة فهمت ضحك غوته، ضحك الخالدين. لقد كان ضحكاً بلا موضوع، كان خفةً وصفاءً بسيطين. وذاك هو ما يتبقى بعدما يجتاز رجلٌ حقٌ كل آلام البشر، وشرورهم، وأخطائهم، وانفعالاتهم، وسوء فهمهم ويصل إلى الأبدية وإلى عالم المدى. والأبدية ما هي إلا خلاص الزمن، عودته إلى البراءة، إن صح التعبير، وتحوله من جديد إلى مدى.

ذهبت لملاقاة ماريا في المكان الذي اعتدنا أن نتناول فيه العشاء. غير أنها لم تكن قد وصلت بعد، كانت أفكاري ما تزال تستعيد الحديث الذي دار بيني وبين هرمينه، لقد بدت كل تلك الأفكار التي نشأت بيني وبينها حميمية جداً ومعروفة، صيغت من ميثولوجيا وتخيلات تخصّني أنا بكاملها. الخالدون، الذين يعيشون حياتهم في مدى لا زمني، مغمورين بالبهجة، متجددين وهائمين في أبدية صافية كالأثير، والسطوع النجمي الهادئ والصفاء المشع لهذا العالم البعيد عن الأرض - كيف تأتّى لكل هذا أن يكون معروفاً بحميمية شديدة؟ وبينما كنت أتأمل، تواردت إلى ذهني مقاطع من موسيقى موتسارت[1]، ومن مؤلف باخ "عازف البيانو المعتدل المزاج" وخيل إلي أنه تتغلغل في هذه المقاطع الموسيقية إشعاعات من ذاك السطوع النجمي الهادئ وارتعاش صفاء الأثير هذا. نعم، كانت موجودة فيها. كان في هذه الموسيقى شعور أشبه بزمن متجمد في المدى، وفوقه ارتعش صفاء لا ينتهي وفوق إنساني، وترجّع ضحك علوي، سرمدي. نعم، وكم كان غوته العجوز الذي تراءى لي في أحلامي

---

(1) Cassations: مقطوعات أوركسترالية خفيفة.

ماسياً هذا الجو! وفجأة سمعت ترجيع الضحكة المبهمة يصبح من حولي سمعت الخالدين يضحكون. فلبثت مكباً مسلوب اللب. وتحسست، وأنا مسلوب، داخل جيب صدرتي بحثاً عن قلم رصاص، وأثناء بحثي عن ورقة رأيت بطاقة إعلان النبيذ موضوعة على الطاولة. فقلبتها وكتبت على الظهر. كتبت أبياتاً شعرية ثم نسيت أمرها إلى أن كان يوم اكتشفت وجودها في جيبي. وكانت ما يلي:

الخالدون

يتصاعد إلينا من وديان الأرض

مطلقاً باستمرار اصطخاب الحياة المحموم،

وفيض الثراء، وحنق النُدرة،

دخان وجبات الموت على شفير المشنقة،

نهم لا يشبع، شبق تشنجي،

أيدي قتلة، أيدي مرابين، أيدي مصلّين،

الحشد الإنساني يزفر أنفاساً كريهة،

يجرف الخوف والشهوة، دم سائل، دم دافئ،

يتنفس بركة وهياجات همجية،

يأكل نفسه ثم يتقيأ ما يأكله،

يصنع حرباً وفناً جميلاً،

يزين بجنون أحمق،

منازل فاجرة تتلظى باللهب،

خلال سوق المعرض الصبياني

متلاطماً يتجه إلى خرابه

في وهج درب المتعة،

يغوص حين يواريه الثرى ثانية،

أما نحن المرتفعون فوقكم باقون أبداً
في نجم الأثير ثلجاً شفافاً
لا نعرف نهاراً ولا ليلاً ولا تقطيع الزمن،
لا نبلى ولا نشيخ ولا جنس لنا،
كل آثامكم وآلامكم رعب ذاتي،
جرائمكم ومتعكم الداعرة،
ليست إلا فرجة بالنسبة إلينا
كالشموس التي تدور
جاعلة أطول يوم يدوم أبداً.
نتلصص على حياتكم المسعورة،
ومن ثم نروّح عن أنفسنا
بالنجوم التي تفر بانتظام.
أنفاسنا شتاء في نظرنا
تتملق تنين السماء،
وجودنا الأبدي بارد وثابت
ضحكنا الأبدي بارد وساطع كالنجم.

ثم جاءت ماريا. وبعد جلسة عشاء بهيجة رافقتها إلى غرفتها الصغيرة. وفي تلك الأمسية كانت أكثر جمالاً، ودفئاً وحميمية منها في أي وقت آخر. والحب الذي منحتنيه كان من الرقة حتى إني شعرت أنه الانغماس الأكمل، قلت: «ماريا، إنك اليوم معجزة كإلاهة. لا تقتلينا نحن الإثنين، فغداً هو يوم الحفلة. من هو فارسك غداً؟ أخشى كثيراً أن يكون من الجان يحملك ويطير بك فأفقدك إلى الأبد. إن حبك هذه الليلة جدير بعاشقين مخلصين بينهما وداع أخير».

قربت شفتيها من أذني وهمست:

«لا تقل هذا، يا هاري. إن أي وقت يمكن أن يكون آخر لقاء. إذا أخذتك هرمينه، فلن تعود إليَّ أبداً. وقد تأخذك غداً».

لم أكن دهري قد خبرت شعوراً خاصاً بتلك الأيام، ذاك التبدل الغريب، المر ـ الحلو، في المزاج، أقوى مما فعلت في تلك الليلة السابقة ليوم الاحتفال. إن ما مررت به عندئذ كان سعادة. كان جمال ماريا واستسلامها طوع أمري. وكذا السعادة الحسية المرهفة والعذبة لاستنشاق وتذوق مئة متعة من الحواس التي كنت بالكاد بدأت أتعرف إليها وأنا رجل كهل. لقد كنت أتمرغ في نشوة عذبة كما في بحيرة رقراقة. ومع ذلك فلم أكن إلا في صَدَفَة. وفي داخلها، كان كل شيء ذا مغزى ومشحوناً بالقدر، وبينما كنت منهمكاً، وأنا متيم، وواهن، بأشياء الحب اللذيذة والعذبة والصغيرة وغائباً بوضوح وأنا خالي البال في عناق السعادة، كنت طوال الوقت واعياً في قرارة قلبي كيف أن قدري يعدو مسرعاً بجنون، يعدو كما في سباق كحصان مذعور، متجهاً رأساً نحو الهاوية السحيقة، يستحثه الرعب والاشتياق نحو اكتمال الموت. وكما كنت قبل زمن قصير قد كافحت، بخوف وحياء، العبث الممتع للحب الحسي المحض وشعرت برعب من جمال ماريا الذي عرض نفسه عليّ ضاحكاً، كذلك عندئذ شعرت برعب من الموت، إلا أنه رعب كان واعياً لتبدُّله الوشيك إلى استسلام وانعتاق.

حتى عندما كنا غارقين في صمت حبنا وانهماكنا العميق فيه، وكل منا يشعر بانتمائه أكثر إلى الآخر، فإن روحي ألقت تحية الوداع على ماريا، واستأذنت بالرحيل عن كل ما كانت تعنيه إلي. وكنت قد تعلمت منها، مرة أخرى قبل النهاية، أن أقتصر كطفل على لهو الحياة السطحي، أن أسعى وراء المرح العابر، وأن أكون معاً طفلاً وحيواناً في براءة الجنس ـ وهي حالة لم أعرفها (في مرحلة مبكرة من حياتي) إلا

نادراً وكحالة استثنائية. فقد كانت حياة الحواس والجنس دائماً تقريباً مصحوبة بشعور مرير بالذنب، بمذاق حلو ولكن مرعب لفاكهة محرمة تجعل الإنسان الروحي يأخذ حذره. والآن، ها هما هرمينه وماريا قد أدخلتاني هذه الجنة وهي عذراء، وحللتُ فيها ضيفاً شكوراً. ولكن قريباً سيحين الوقت للتقدم. وكانت الحياة في هذه الجنة لذيذة جداً ودافئة جداً. وكان قدري أن أقوم بمحاولة أخرى للحصول على تاج الحياة عن طريق تكفير شعورها الدائم بالذنب. أما الحياة السهلة، الحب السهل، والموت السهل ـ فلم أقبلها.

فهمت مما قالته الفتاتان لي أنه بالنسبة إلى الحفلة التي كانت ستقام في اليوم التالي، أو فيما يتعلق بها، فثمة مباهج وتهتكات غير عادية ستجري. لعلها الذروة، ولعل ارتياب ماريا له ما يبرره. ولعل تلك الليلة كانت هي الأخيرة التي نقضيها نحن الثلاثة معاً ولعل صباح اليوم التالي سيجلب معه فهماً جديداً للقدر. لقد كنت أضطرم بالاشتياق، ومقطوع الأنفاس من فرط الرعب، وتشبثت بعنف بماريا، والتهب في داخلي آخر تفجّر للرغبة دفعني إلى الركض في أرجاء جنتها، وتناولت قضمة أخرى من ثمرة شجرة الجنة الحلوة المذاق.

عوّضت نهاراً من النوم ما خسرته ليلاً. وبعد أن استحممت عدت إلى المنزل وأنا معدم من التعب. أعتمت غرفة نومي وبينما كنت أخلع ملابسي عثرت مصادفة على الأبيات الشعرية في جيبي، لكني عدت فنسيتها، ونحيتها جانباً للتو. ونسيت أمر ماريا وهرمينه وحفلة الأزياء التنكرية واستغرقت في النوم على مدار الساعة. ولم أتذكر إلا بعد أن استيقظت من النوم في المساء وكنت أحلق ذقني أن الحفلة ستبدأ في غضون ساعة وأن عليّ أن أعثر على قميص رسمي. ورحت أتهيأ وأنا بمزاج رائق جداً وخرجت لأتناول طعام العشاء.

كانت تلك أول حفلة أزياء تنكرية أشترك فيها. صحيح أنني في السابق كنت أحضر بين حين وآخر احتفالات مشابهة بل إنني أحياناً كنت أجدها مسلية جداً، لكني لم أرقص قط. كنت فقط متفرجاً. أما عن الحماس الذي كان الآخرون يتحدثون به ويعبرون عن ابتهاجهم بها على مسمع مني، فكنت دائماً أجد ذلك أمراً غريباً. وها قد حان دوري أنا أيضاً لأجد هذه المناسبة مفعمة بالإثارة المسلية والمؤلمة. ولما لم يكن لدي شريكة أصحبها، قررت أن لا أذهب إلا في وقت متأخر. بهذا، أيضاً، كانت هرمينه قد نصحتني.

مؤخراً كنت نادراً ما أرتاد حانة "الخوذة الفولاذية"، ملاذي السابق، حيث كان المحبطون من الرجال يقضون أمسياتهم، غارقين في نبيذهم ومنهمكين في عيش حياة العزاب. وهي لا تناسب الحياة التي عشتها من ذلك الحين. لكني في تلك الأمسية وجدتني دون أن أدري أتوجه إليها. وبمزاج يتراوح ما بين الفرح والخوف فرضه القدر والفراق عليّ عندئذ، أصاب كل المحطات على امتداد رحلة حياتي الطويلة، ومواضع التأمل فيها مرة أخرى قبس من ألم وجمال صادر عن أحداث من الماضي، وكذا أيضاً أصاب الحانة الصغيرة، المعبأة بالدخان، التي لم أعتبر كأحد زبائنها إلا منذ عهد قريب وشجعني المخدر البدائي الذي تحتويه زجاجة من نبيذها المحلي مؤخراً على قضاء ليلة أخرى في سريري الموحش وعلى احتمال الحياة يوماً آخر. وكنت قد تذوقت منذ ذلك الحين أنواعاً أخرى ومنبهات أقوى فعالية، ورشفت سموماً أحلى مذاقاً. وولجت الحانة القديمة وأنا أرسم ابتسامة على وجهي. فرحبت صاحبة المحل بي، وكذا فعل، بإيماءة من الرأس، جمعُ الرواد الصامتين. ثم أُوصي لي لحم دجاج مشوي وسرعان ما وضع أمامي. وتلألأ مشروب إلزاسر الرائق في الكأس الزجاجي القروي السميك. وكان للطاولات الخشبية

البيضاء النظيفة والكسوة الخشبية الصفراء العتيقة مظهر ودّي. وأثناء تناولي للطعام والشراب انتابني ذاك الشعور بالتغير والتهدم وباحتفالات الوداع، ذاك الشعور الداخلي اللذيذ والمؤلم بكوني جزءاً حياً في كل مشاهد حياة مبكرة وأشيائها، والتي لم تكن بعد قد فارقتها، وحان وقت فراقها. الإنسان المعاصر يسمّي هذا نزعة عاطفية. لقد فقد حب الأشياء غير الحسية. إنه لا يحب حتى أشد الأشياء قداسة إليه، سيارته، وإنما يأمل على الدوام في أن يبادلها في أقرب فرصة ممكنة بطراز أكثر حداثة. هذا الإنسان المعاصر يتمتع بطاقة وقدرة. هو صحيح الجسم، هادئ ومتّقد النشاط ـ إنه نمط ممتاز، وخلال الحرب القادمة سوف يكون معجزة في الفعالية. ولكن كل ذلك لم يكن يثير اهتمامي. فلم أكن إنساناً معاصراً، ولا حتى عتيق الطراز. لقد كنت قد أفلتُّ من الزمن كله، وانطلقت في طريقي الخاصة، واتخذت الموت رفيقي والموت قراري. ولم يكن لدي أي اعتراض على المشاعر العاطفية. كان يسعدني ويشعرني بالامتنان أن أعثر على أثر لأي شيء يشبه الإحساس متخلف في قلبي المحترق. وهكذا تركت العنان لذكرياتي عن الحانة العتيقة وارتباطي بالكراسي الخشبية الصلبة وبرائحة الدخان والنبيذ وجو الضرورة والحاجة والدفء والألفة التي جرفها المكان إليّ. ثمة جمال في لحظات الوداع ورقة في قلب نبرتها. لقد كان المقعد القاسي عزيزاً عليّ، وكذا كان الكأس الزجاجي القروي والمذاق الطيب البارد لمشروب إلزاسر وشعوري بالمودة نحو كل ما يحتويه ذاك المكان، ووجوه الشاربين المنحنية والحالمة، أولئك المحبطين. الذين كنت أخاً لهم منذ أمد بعيد. كل هذا كان نزعة عاطفية بورجوازية، ملطفة بلمسة خفيفة من رومانسية الحانات العتيقة الطراز، رومانسية منحدرة من عهد فتوتي عندما كان ارتياد الحانات وشرب النبيذ وتدخين السيجار ما تزال من المحرمات ـ أقول كل هذا كان غريباً ورائعاً. ولكن

لم يبرز أمامي ذئب سهوب، مكشراً عن أنيابه ليمزق نزعتي العاطفية إرباً. وجلست هناك في سلام على وهج الماضي الذي كان غروبه ما يزال يلقي أثراً واهياً من وهجه.

دخل بائع جوال فاشتريت منه حفنة من الكستناء المشوية. ثم دخلت سيدة عجوز تحمل أزهاراً فاشتريت باقة من البنفسج وقدمتها إلى صاحبة المحل. و لم أدرك مرة ثانية أني أرتدي بزتي المسائية إلا عندما أوشكت أن أدفع قيمة الفاتورة، وفتشت عبثاً عن جيب المعطف الذي اعتدت أن ألبسه. إنها حفلة الأزياء التنكرية. وهرمينه!.

مهما يكن، كان الوقت مايزال مبكراً. و لم أتمكن من إقناع نفسي بالتوجه إلى "غلوب رومز" مباشرة. وشعرت أيضاً ـ كما كنت قد شعرت في حالة كل المسرات التي صادفتها مؤخراً ـ بمجموعة كاملة من المعوقات والمفارقات. و لم يكن لدي أي ميل إلى الدخول إلى الأماكن الكبيرة والمزدحمة والكثيرة الضجيج. وكان يتملكني حياء تلميذ مدرسة من الجو الغريب وعالم اللهو والرقص.

بينما كنت أتابع تجوالي مررت بدار للسينما بأضوائها المبهرة، وملصقاتها الضخمة الملونة. ومشيت بضع خطوات في طريقي، ومن ثم استدرت ثانية وولجت. هناك كان في استطاعتي أن أجلس بهدوء وارتياح وسط العتمة وحتى الساعة الحادية عشرة. وتبعت المرافق مع مصباح الجيب، وأنا أتعثر بين الستائر إلى الصالة المظلمة، وعثرت على مقعد وفجأة وجدتني وسط العهد القديم. وكان الفيلم هو أحد تلك الأفلام التي لا تبغي اسمياً الربح المادي. فقد أنفق عليها بسخاء في التكاليف والمحسِّنات من أجل قضية أنبل وأكثر قداسة، وعند الظهيرة يُجلب حتى أولاد المدارس لمشاهدتها مع أساتذة الديانة. وكان هذا يحكي قصة موسى بني إسرائيل في مصر، وقد استُخدم حشدٌ هائل من

الرجال، والجياد، والجمال، والقصور، وكل أبهة الفراعنة ومحن اليهود في الصحراء. شاهدتُ موسى بهيئة مسرحية فخيمة، يجوب أرجاء الصحراء على رأس مجموعة من اليهود، بعينيه السوداوين المتقدتين وممسكاً بعصا طويلة وخطوة واسعة كخطى فوتان[1]. شاهدته وهو يصلي لله عند شاطئ البحر الأحمر، وشاهدت البحر الأحمر وهو يُشَق ويفسح ممراً فسيحاً، درباً عميقاً يمر بين جبال متراكمة من المياه (وكانت صفوف التصديق التي يعدّها رجال الدين لمشاهدة هذا الفيلم الديني تناقش مطولاً. كيف تمكن معدو الفيلم من فعل ذلك). وشاهدت النبي وشعبه المذعور يعبرون إلى الطرف الآخر، ومن خلفهم شاهدت عربات فرعون الحربية تلوح على البعد، والمصريين يتوقفون ويجفلون عند حافة البحر، ومن ثم، عندما غامروا بالتقدم بإقدام، شاهدت المياه المتشامخة كالجبال تنغلق فوق رأس الفرعون بكل روعةِ زخارفهِ الذهبيةِ وفوق كل عرباته وكل رجاله، متذكراً، وأنا أشاهده، الأغنية الثنائية الرائعة التي وضع موسيقاها الموسيقي هاندل لصوتين من طبقة القرار والتي تحكي بشكل فاتن هذه الحادثة. ثم شاهدت موسى يرتقي جبل سيناء، وهو بطل متجهم وسط برية صخرية متجهمة. وتابعت المشهد لأرى يهوه يوحي إليه، وسط العاصفة والرعد والبرق بالوصايا العشر، في حين أن شعبه الباطل يقيم العجل الذهبي عند سفح الجبل وينخرط في احتفالات معربدة نوعاً ما. وبدا لي غريباً وأمراً لا يصدق أن أتابع مشاهدة كل هذا، أن أرى الكتاب المقدس بكل ما يحتويه من أبطال وعجائب، ومصدر هبوط أول اشتباه علينا ونحن أطفال بوجود عالم آخر غير هذا، يُقدَّم بأجرٍ إلى جمهور ممتن يجلس بهدوء ويأكل المؤونة التي جلبها معه من البيت. إنه

---

[1] فوتان: في الأساطير الجرمانية، هو رب الأرباب.

بالفعل فيلم صغير جميل، منتقى بالمصادفة من التصفية الكبرى لكامل ثقافة هذه الأيام! يا إلهي، كم كان من الأفضل لليهود ولكل إنسان آخر، ناهيك عن المصريين، لو أننا بدل أن نتتهي إلى هذا المأزق فنينا في تلك الأيام وللتو من موت عنيف ولائق، بدل هذا الادعاء بالموت البطيء الذي نمر به في هذه الأيام. نعم، وحق الله!.

لم تخفّف مشاعري التي أثارها لدي الفيلم السينمائي بأي حال ضغوطاتي السرية وخوفي غير المعلن إزاء حفلة الأزياء التنكرية. بل على العكس، لقد تضخمت إلى أبعاد مزعجة وكان لا بد لي أن أنتفض وأفكر في هرمينه قبل أن أتمكن من التوجه إلى "غلوب رومز" وأتجرأ على الدخول. كان الوقت متأخراً، والحفلة قد وصلت إلى أوجها منذ وقت طويل. وعلى الفور وقبل حتى أن أخلع ثيابي الزائدة وجدتني عالقاً، وأنا الحيي والرزين، وسط دوامة الحشد المقنّع. راحوا يخاطبونني برفع الكلفة. نادتني الفتيات للحضور إلى قاعات شرب الشمبانيا. وصفعني المهرجون بتحبّب على ظهري، وكنت أُعَامَل من كل جانب كصديق حميم. ولم أتجاوب قط مع كل ذلك، وإنما شققت طريقي خلال الغرف المزدحمة قاصداً غرفة الملابس، وبعد أن حصلت على بطاقتي الخاصة بغرفة الملابس، وضعتها في جيبي بعناية فائقة، معتقداً أني قد أحتاج إليها قبل مرور وقت طويل بعد أن أملّ الهدير.

كان كل جزء من البناء الضخم مكرساً للاحتفالات. فكان الرقص جارياً في كل غرفة وفي الطابق التحتي أيضاً، والأروقة، والدرج كانت مملوءة عن آخرها بالأقنعة والرقص والموسيقا والضحك والجلبة. وشعرت بانقباض في قلبي فتسللت خلال الحشد، منتقلاً من فرقة السود الموسيقية إلى فرقة القرويين، ومن القاعة الرئيسية الكبيرة المضاءة بأنوار براقة إلى الممرات ومنها إلى الدرج، ثم البارات، فالموائد المفتوحة، وصالونات

شرب الشمبانيا. وكانت الجدران مغطاة في معظمها بلوحات بهيجة وصارخة رسمها أحدث الفنانين. كان العالم كله مجتمعاً هناك. فنانون، صحافيون، أساتذة جامعات، رجال أعمال، وطبعاً كل طالب متعة في البلد. وفي إحدى الفرق الموسيقية كان بابلو جالساً، ينفخ بحماس في فم الآلة الموسيقية المنحني. وحالما رآني هتف عالياً يحييني. ورحت أتلاطم وسط الحشد إلى هنا وهناك وإلى أن وجدتني أتنقل من غرفة إلى أخرى، صاعداً درجاً هنا وهابطاً آخر هناك. وكان رواق في الطابق التحتي مزدحماً بالفنانين وكأنه خشبة مسرح جهنمية تمثل عليها بعنف عصبة من الشياطين. وبعد قليل، أخذت أبحث عن هرمينه أو ماريا وجاهدت مراراً وتكراراً لأصل إلى الصالة الرئيسية، ولكن كنت إما أضيِّع طريقي أو أجابه السيل العارم.

بحلول منتصف الليل لم أكن قد عثرت على أي منهما، وعلى الرغم من أني لم أرقص إلا إني كنت أشعر بالحر وبالدوار. فارتميت على أقرب كرسي بين مجموعة من الغرباء تماماً عليّ وطلبت بعض النبيذ وتوصلت إلى نتيجة مفادها أن الإنضمام إلى مثل هذه الاحتفالات الفظة لا تليق برجل كهل مثلي. ورحت أشرب ما في كأسي وأنا أحدق إلى أذرع النساء وظهورهن العارية، وراقبت الحشد ذا الأشكال المقنعة بشكل عجيب تتداح مارة بي ورفضت بصمت عروض فتيات أبدين رغبتهن في الجلوس على ركبتي أو في أن أرقص معهن. ونعتتني إحداهن بـ "متذمر عجوز". وكانت على حق. ثم قررت أن أرفع من روحي المعنوية بشرب النبيذ، ولكن حتى النبيذ تآمر ضدي، ولم أتمكن من جرع كأس أخرى. ومن ثم أخذ يستولي عليّ إحساس بأن ذئب السهوب واقف خلفي ولسانه مدلّى. لا شيء سرَّني. لقد لجأت إلى المكان الخطأ. إني حتماً قدمت تحدوني أفضل النوايا، لكن هذا المكان لم يكن المناسب لي لأمرح

فيه، وكل فوران السرور ذاك، والضحك والحماقات التي رأيتها في كل ناحية، بدت لي متكلفة وسخيفة.

وطفح الكيل، وعند قرابة الساعة الواحدة اتخذت طريقي، وقد تولاني الغضب وخيبة الأمل، متجهاً إلى غرفة الملابس، لكي أرتدي معطفي من جديد وأخرج. وكان ذلك استسلاماً وارتداداً إلى ذئبيتي، وما كانت هرمينه لتسامحني. ولكن لم يكن أمامي حل آخر. كنت، وأنا أشق طريقي خلال الحشد إلى غرفة الملابس، ما أزال أبحث بنظري بعناية فلعلي ألتقي بإحدى صديقيَّ، ولكن عبثاً. ثم وجدتني واقفاً عند طاولة الخادم، فمد يده لي بتهذيب طالباً الرقم. فتحسست جيب صدرتي ــ لم أعثر على الرقم! يا للشيطان، هذا ما كان ينقصني! إنني أثناء تجوالي اليائس خلال الغرف وأثناء جلوسي مع نبيذي الذي لا طعم له كثيراً ما كنت أتحسس داخل جيبي، وأقاوم قراري بالرحيل، وكنت دائماً أعثر على الإيصال المسطح المستدير في مكانه. والآن ها هو قد ضاع. إن كل شيء كان يعاندني.

ثم تناهى إليّ صوت حاد من شيطان ضئيل الحجم ملون بالأحمر والأصفر واقف بقربي: «أأضعت رقمك؟ هاك، يا رفيقي، خذ رقمي»، ومد يده إليّ دون أن يزيد كلمة أخرى. وبينما كنت أتناوله منه بحركة آلية وأقلّبه بين أصابعي إذا بالمخلوق الضئيل الخفيف يختفي بسرعة.

بيد إني عندما تفحصت الفيش الكرتوني بحثاً عن رقم، لم أر عليه أي رقم. وبدل ذلك كانت هناك كتابة عجلى بخط يد دقيق. فطلبت من الخادم أن ينتظر وذهبت إلى أقرب مصدر ضوء لأقرأه. فوجدت هناك كتابة مخربشة لا تكاد تكون مقروءة بأحرف صغيرة جنونية:

هذا المساء في المسرح السحري

للمجانين فقط

ثمن الدخول ـ عقلك
الدخول ليس للجميع
هرمينه موجودة في الجحيم

كما تستيقظ دمية ترك محرِّكُها خيطها برهة على حياةٍ جديدةٍ بعد أن شلّها الموت والغيبوبة فترة وجيزة وتعود لتلعب دورها المفعم بالحياة، كذلك فعلتُ أنا عندما اهتز هذا الخيط السحري خلالي بمرونة الشباب وتلهُّفهِ عندما غصت في الجلبة التي كنت قد انسحبت منها لتوي بفتورِ سنواتِ الكهولةِ وضجرها. ولا أعرف قط خاطئاً أبدى من السرعة في الالتحاق بالجحيم كما فعلت. وقبل قليل كان حذائي الجلدي المصقول يسبب لي الحك، والهواء ذو الرائحة القوية يثير اشمئزازي، والحرارة ترهقني. أما الآن فرحتُ وكأنما بقدمين مجنحتين أرقص برشاقة رقصة "الخطوة الواحدة" خلال كل غرفة في طريقي إلى الجحيم. كان الهواء نفسه مفعماً بالسحر. وغمرني الدفء وساقني قدماً، وكذا فعلتْ الموسيقى الصاخبة، والألوان المسكرة، والعطر المنبعث من أكتاف النساء، وجلبةُ مئةِ لسان، والضحك، وإيقاع الرقص، والنظرات الخاطفة من كل العيون المملوءة حيوية. ارتمت فتاة ترقص رقصة إسبانية بين ذراعي وقالت: «أرقص معي!»، فقلت" «لا أستطيع، أنا متوجه إلى الجحيم. ولكن يسعدني أن أقبِّلك». فتلاقت الشفتان الحمراوان المقنعتان مع شفتي فعرفت من القبلة أنها ماريا. فضممتها بقوة بين ذراعيّ وتفتحت شفتاها المكتنزتان كوردة في شهر حزيران. وعندئذ كنا نرقص، ولا تزال شفاهنا متضامّة. ومررنا ببابلو ونحن نرقص. كان يميل كعاشق فوق آلته الموسيقية الآنّة بنعومة. فعانقتنا تينك العينان الحيوانيتان الجميلتان بتوقدهما شبه الشارد. ولكن قبل أن نبتعد مسافة عشرين خطوة سكتت الموسيقى فجأة وحرَّرتُ ماريا آسفاً.

قلت وقد أسكرني دفؤها: «كنت أحب أن أرقص معك ثانية. تعالي رافقيني خطوة أو خطوتين يا ماريا. إني عاشق لذراعك الجميلة. دعيني أملكها مدة أطول! ولكن، في الواقع، لقد استدعتني هرمينه. إنها في الجحيم».

«هذا ما حسبته. الوداع، يا هاري، لن أنساك أبداً». وغادرتني ـ غادرتني بكل معنى الكلمة. نعم، إن الخريف، القدر، هو الذي يهبُ وردة الصيف العطرَ الأكمل والأينع.

تابعت طريقي خلال الأروقة الطويلة، المملوءة بالعناقات الرقيقة، وهبطت الدرج إلى الجحيم. وهناك، على جدران سوداء فاحمة كانت تسطع أضواء مبهرجة خبيثة، وكانت فرقة موسيقية من الشياطين تعزف عزفاً محموماً. وعلى مقعد بلا ظهر عند البار جلس شاب صغير غض يضع قناعاً ويرتدي ملابس سهرة تفحَّصني بنظرة خاطفة وساخرة. وضغطتني دوامة من الراقصين إلى الجدار ـ كان نحو عشرين زوجاً يرقصون في تلك المساحة المحصورة بالذات ـ ورحت أستعرض كل النسوة اللواتي في حالة ترقب متلهِّف. وكانت الغالبية ما تزال تضع الأقنعة وكانوا يبتسمون لي، ولكن لم أجد أثراً لهرمينه. ورماني الشاب الوسيم الجالس على المقعد العالي بنظرة ساخرة. وقلت في نفسي، عندما تسكت الموسيقى في المرة التالية سوف تأتي وتستدعيني. وانتهت الرقصة ولم يأت أحد.

تقدمت من البار المحشور في إحدى زوايا الغرفة الصغيرة والواطئة، واتخذت مجلساً بجوار الشاب وطلبت كأساً من الويسكي. وبينما كنت أشربه رأيت جانب وجهه. كان يتصف بسحر مألوف، كصورة من أيام زمان، ثمينة حتى التراب الذي تراكم عليها من الماضي. آه، لمعت الذكرى في ذهني. إنه هرمن، صديق شبابي.

تلعثمتُ قائلاً: «هرمن!».

ابتسمت. قالت: «هاري؟ أعثرت عليّ؟».

لقد كانت هرمينه، متخفية بطريقة تصفيف شعرها وبقليل من الصباغ. وأضفت الياقة الأنيقة مظهراً شاذاً على شحوب وجهها الذي ينم عن ذكاء، والكُمّان الأسودان الواسعان لسترتها الرسمية وطرفا الكمّين الأبيضين جعلا يديها تبدوان صغيرتين بشكل غريب، والبنطال الأسود الطويل أضفى أناقة غريبة على قدميها المنتعلين الجورب الحريري الأبيض والأسود.

«أهذا هو الزي، يا هرمينه، الذي تنوين أن توقعيني بواسطته في حبك؟».

قالت: «حتى الآن كنت أكتفي بإدارة رؤوس السيدات. أما الآن فقد جاء دورك. فلنشرب، أولاً كأساً من الشمبانيا».

وفعلنا، ونحن جالسان على مقعدينا العاليين، بينما الرقص دائر من حولنا على الوقع الحيوي والمحموم للآلات. وسرعان ما وجدتني غارقاً في حب هرمينه، حتى بدون أن يبدو أنها تبذل أدنى جهد لتحقيق ذلك. وبما أنها كانت ترتدي ملابس فتى، فلم أتمكن من أن أرقص معها، ولا أن اسمح لنفسي بأن أتقدم بأي عرض رقيق، وعلى الرغم من أنها بدت وهي في تخفّيها الذّكَري باردة وغير واضحة الجنس، إلا أن نظراتها وكلامها وإيماءاتها سربلتني بكل ما فيها من فتنة أنثوية. وبدون أن أقوم بأي محاولة للمسها استسلمت لسلطان سحرها، وظل هذا السحر ذاته محصوراً داخل الدور الذي كانت تلعبه. كان سحر خنثى. فقد حدثتني عن هرمن وعن الطفولة، طفولتي وطفولتها، وعن تلك السنين من الطفولة عندما تعانقُ القدرة على الحب، في أول عنفوانها، ليس فقط كلا الجنسين، وإنما كل الأشياء، الحسية منها والروحية، وتَهِبُ كل شيء مع

شحنة من الحب ولا يحدث من جديد تحوّل سهل كالسحر كـالذي يقـع في سنوات لاحقة، إلا بالنسبة إلى الصفوة المختارة وإلى الشعراء، ونـادراً. وكانت طوال الوقت تحافظ على دورها كشاب، تدخن السجائر وتتكلم بسهولةٍ جريئةٍ غالباً ما تنطوي على قدرٍ من السخرية، ومع ذلـك فكـان كل شيء يتقزّح بأشعةِ الرغبةِ ثم يتحوَّل، لدى وصوله إلى حواسـي، إلى غواية آسرة.

كم حسبت أني عرفت هرمينه معرفة شاملة كاملة، ومع ذلك كـم تكشفت لي في تلك الليلة برؤيا جديدة تماماً! وبكم من الرقـة والغمـوض ألقت بشباكها التي طالما تقت إليها حـولي، وبكـم مـن الملاعبـة الجديـرة بجنيَّة سقتني السمّ الشافي!.

جلسنا وتحدثنا وشربنا شمبانيا، وتمشينا حول الغرف وتفرجنـا علـى ما يجري من حولنا. وجُلنا فيمـا يشـبه رحـلات الاستكشـاف لنكتشـف عشاقاً سرَّنا أن نتلصص على مضاجعـاتهم. وأشـارت إلى نسـاء أوصتـني بالرقص معهـن، ونفحتـني بنصـائح حـول أسـاليب الانقضـاض الواجـب استخدامها مـع كـل منهـن. واستولينا علـى حلبـة الرقـص كمتنافسـين وتوددنا بعض الوقت إلى الفتاة نفسها، ورقصنا معاً كلٌّ بـدوره وحاولنـا معاً أن نأسر قلبها. ومع ذلك فكل هذا لم يكـن غـير احتفـال، غـير لعبـة تجري بيننا نحن الإثنين جعلتنا أكثر تقارباً في شغفنا. لقد كان كـل شـيء أشبه بحكاية خرافية. كل شيء كان لـه بُعـد جديـد، معنـى أعمـق. كـل شيء كان مترعاً بالخيال وبالرمز. وكان ثمة فتـاة واحـدة تتصـف بجمـال أخّاذ ولكن يحيـط بهـا جـو مـن المأسـاة والتعاسـة. رقـص هرمـن معهـا، وجعلها تتفتح. وتواريا معاً ليشربا الشمبانيا، وقد أخبرتني لاحقاً أنها قـد انتزعت حبها ليس بوصفها رجلاً، وإنما امرأة، بعونٍ من سحر ليسـبوس. أما بالنسبة إليّ، فقد أخذ البناء برمته، الذي كان هدير الرقص يـدوي في

كل مكان منه، وحشد الأقنعة الثملة كله، يغدو بالتدريج حلماً ضارياً بالجنة. حيث الأزهار زهرة فزهرة تتودد إليّ بعطرها، وأنا أعبث بالفاكهة واحدة بعد أخرى، والأفاعي ترمقني بنظراتها من بين الظلال الخضراء والورقية بعيون ممسمرة، وأزهار اللوتوس تتفتح مينعة فوق سطح المستنقعات السوداء، والطيور المسحورة تصدح غواية من الأشجار. ومع ذلك كان كل شيء يشكل تقدماً نحو هدف واحد مُرتَقب، يستدعيه توق جديد إلى واحد أحد. ومرة كنت أرقص مع فتاة لا أعرفها، وقد انسبْتُ معها بحماسة عاشق ملتهب إلى دوامة الراقصين المدوخة وبينما نحن هائمان في هذا العالم الوهمي، علّقت فجأة وهي تضحك:

«لا يكاد المرء يعرفك. لقد كنتَ من قبل بليداً جداً ومملاً». ثم لمحت الفتاة التي نعتتني بـ "المتذمر العجوز" قبل بضع ساعات. وحسبت أنها قد نالت مني الآن، ولكن بحلول الرقصة التالية كان شوقي المتقد قد اتجه نحو فتاة أخرى. وظللت أرقص بدون توقف على مدى ساعتين أو أكثر - كل الرقصات، حتى تلك التي لم أكن قد رقصتها من قبل. وكانت هرمن تقترب مني بين حين وآخر، وتومي إليّ وتبتسم أثناء غيابها وسط الحشد.

خلال ليلة الحفلة هذه مررت بتجربة لم أمر بمثلها طوال سنوات عمري الخمسين، مع العلم أن الصغير والكبير يعرفها - إنها ثمالة الاحتفال العام، واندماج الشخصية الفردية الغامض في الجمهور الغفير، واتحاد الفرح الصوفي. وكثيراً ما كنت أسمع كلاماً حول هذا. وكنت أعلم أن كل خادمة تعرفه. ولطالما لاحظت ذاك البريق في عيون الذين حكوا لي عنه، وكنت دائماً أقابله بابتسامة هي مزيج من التعالي والحسد. وعلى امتداد حياتي كنت قد شاهدت مرات كثيرة أمثلة أولئك الذين أثملتهم

النشوة وحررتهم من ذواتهم، وتلك الابتسامة، ذاك الاستغراق شبه المجنون، لأولئك الذين دارت رؤوسهم بفعل حماسة مشتركة. رأيتها عند الجنود والبحارة السكارى، وأيضاً عند الفنانين العظام ربما وسط حماسة مهرجان موسيقي، ولا يقل ظهورها بين الجنود الشباب المتوجهين إلى الحرب. حتى في الأيام الأخيرة كنت قد أُعجبت بل وأحببت وسخرت وأثار جسدي ذاك البريق والابتسامة اللذان ظهرا عند صديقي بابلو، وهو مائل فوق ساكسفونه في ثمالة منتهى السعادة يعزف مع الفرقة الموسيقية، أو عندما كان ينظر، في نشوة ووَجْد، إلى قائد الأوركسترا، أو ضارب الطبل أو عازف البانجو. وأحياناً كان يتبدى لي أن تلك الابتسامة، وذاك التألق الطفولي لا يحدثان إلا مع أشخاص في سن صغيرة جداً أو بين أناس لا تسمح تقاليدهم بوجود أي فروق كبيرة بين أفرادها. أما اليوم، في هذه الليلة المباركة، كنت أنا نفسي، ذئب السهوب، متألقاً بهذه الابتسامة. أنا نفسي سبحت في سعادة خرافية، طفولية، عميقة. أنا نفسي استنشقت الثمالة العذبة للحلم المشترك والموسيقى والإيقاع والنبيذ والشهوة الجسدية ـ أنا، يا من كنت في أيام سابقة كثيراً ما أنصت باستمتاع، أو بتعالٍ كئيب، إلى أحد الطلبة يطريها في حديث في صالة الرقص. أنا لم أعد نفسي. لقد انحلّت شخصيتي في ثمالة الاحتفال كانحلال الملح في الماء. رقصت مع هذه المرأة أو تلك، ولكن ليس فقط المرأة التي كنت أضمها بين ذراعيّ ويحف شعرها بوجهي كانت تخصني، بل كل النساء الأخريات اللواتي كن يرقصن في المكان نفسه، والرقصة نفسها، وعلى وقع الموسيقى نفسها، وكانت وجوههن المتألقة تطفو مارة بي كأزهار وهمية، كن يخصّنني وكنت أنا أخصهن. كل منا كان يحتوي على جزء من الآخر. والرجال أيضاً.

كنت معهم أيضاً. هم، أيضاً، لم يكونوا غرباء عني. ابتسامتهم كانت ابتسامتي، وتوددهم كان توددي، والعكس بالعكس.

كانت رقصة جديدة، من نوع فوكس ـ تروت، عنوانها "توق"، قد اجتاحت العالم في ذاك الشتاء. وما إن سمعناها حتى لم نعد نمل منها. وغرقنا فيها جميعاً وثملنا بها وكان الجميع يدندنون لحنها كلما سمعوه. وكنت أرقص بلا توقف ومع كل من أصادفه في طريقي، مع فتيات صغيرات جداً، مع نساء في ريعان شبابهن أو في أواخره، ومع أولائي اللواتي فاتهن كلتا المرحلتين، وكنت أهيم نشوة معهن جميعاً ـ ضاحكاً، سعيداً، ومتألقاً. وعندما وجدني بابلو متألقاً هكذا، أنا الذي طالما اعتبرني شخصاً مسكيناً جداً يدعو إلى الرثاء، شعَّت عيناه بسعادة غامرة وهو ينظرني وتفتحت قريحته إلى درجة أنه نهض واقفاً عن كرسيه وصعد ليقف عليه وهو ينفخ بقوة وحيوية في بوقه. وأخذ ينفخ بكل ما أوتي من عزم من ذاك العلو، وفي الوقت نفسه كان جسمه كله، ومعه آلته الموسيقية، يتمايلان على وقع لحن "توق". وقلت في نفسي، في هذه الأثناء، فليحل بي ما يحل، فأنا أيضاً كنت ولو مرة في حياتي سعيداً، ومتألقاً، ومتحرراً من نفسي، وقريناً لبابلو، وطفلاً.

كنت قد فقدت الإحساس بالزمن، ولا أدري كم من الساعات أو اللحظات دامت ثمالة السعادة. بل إني لم ألاحظ أنه كلما ازداد توهج اشتعال نار الفرح الاحتفالي ضاقت حدود نطاقها. عندئذ كان معظم الناس قد غادروا. وران الصمت على الأروقة وأطفأت أنوار كثيرة. وأقفر الدرج وفي الغرف العليا أخذت الفرق الموسيقية تكف عن العزف واحدة إثر واحدة وتغادر المكان. ولم يتواصل الهرج والقصف ويزداد إلا في القاعة الرئيسية وفي الجحيم في الأسفل. وبما إني لم أتمكن من أن أرقص مع هرمينه وهي بملابس فتى، فلم نلتق إلا بشكل عابر ما بين

الرقصات. وأخيراً غابت تماماً عن ناظري ـ وليس فقط عن ناظري بل وتفكيري. ولم أعد أفكر في أي شيء. تهت في متاهة الرقص ودوامته. وكانت روائح العطور، ونبرات الأصوات والتنهدات والكلمات تثيرني، والعيون الغريبة تحييني وتملأني حيوية، والوجوه الغريبة تكتنفني، وأُحمَل إلى هنا وهناك على إيقاع الموسيقى كأنما على متن موجة.

ثم فجأة رأيت، وقد عدت جزئياً إلى وعيي برهة، بين آخر من أبقوا على جو الاحتفال في إحدى أصغر الغرف، وملؤوها حتى فاضت بهم ـ وكانت الوحيدة التي ظلت الموسيقى تهدر فيها ـ أقول رأيت فجأة فتاة مقنعة بقناع مهرج أسود وقد صبغت وجهها باللون الأبيض. كانت نضرة وفاتنة، والوحيدة المقنعة الباقية، وكان مظهرها يأسر النظر لم أكن قد شاهدته قط على امتداد سياق الأمسية بأكملها. وفي حين أن أثر الساعة المتأخرة كان بادياً على كل شخص آخر على صورة وجوه متوردة ومتأججة بالحرارة، وملابس متغضنة، وياقات مترهلة، وأخرى مكشكشة مجعدة. كانت المهرجة السوداء واقفة هناك نضرة ومرتبة الملابس ووجهها الأبيض ظاهراً من تحت القناع. ولم يكن في زيها طيّة واحدة ولا شعرة واحدة في غير مكانها. وياقتها المكشكشة وطرفا كمّاها المدببان كانت سليمة. فاندفعت نحوها، وأحطتها بذراعيّ، وسحبتها للرقص، فدغدغت ياقتها المكشكشة المعطرة ذقني، وحفّ شعرها بوجنتي. واستجابت حيوية جسدها النابضة لحركاتي كما لم يفعل أحد في تلك الليلة، مستسلمة لها برقة داخلية ومجبرة إياها على القيام باتصالات جديدة بعبث أساليب إغوائها. وملت لأقبّل فمها ونحن نرقص. كانت الابتسامة المرتسمة عليه تعلن انتصارها ومألوفة منذ وقت طويل. وفجأة لاحظت الذقن المكتنزة، والكتفين والذراعين واليدين. إنها هرمينه، ولم تعد هرمن. هرمينه بثوب آخر، نضرة، ومعطرة، ومبودرة.

وتلاقت شفاهنا بشغف. وتشبث كـامل جسـدها وحتـى ركبتيهـا برهـة بشوق واستسلام بجسدي. ثم أبعدت فمهـا وظلـت هكـذا، هاربـة مـني أثناء رقصنا. وعندما سكتت الموسيقى فجأة كنا ما نزال متشابكين حيث كنـا واقفين. وراح كـل الراقصـين الذيـن تولتهـم الدهشـة يصفقـون ويضربون الأرض بأقدامهم، ويهتفون. وحثوا أعضاء الفرقة المرهقين على إعادة عزف مقطوعة "توق". ومن ثم انتابنا شعور بأن الصباح قـد طلـع علينا، فقد رأينا النور الباهت يلوح من وراء الستائر. مما أنذرنـا باقـتراب نهاية المسرَّة ومنحنا أعراض الإرهاق الآتي. واندفعنا بيأس وتهوُّر، ونحـن نطلق نوبات من الضحـك، نرقـص مـن جديـد، ننسـاب مـع الموسـيقى، وأخذ ضوء النهار يغمر الغرفـة. وتحركـت أقدامنـا مـع إيقـاع الموسـيقى كالممسوسين، ولامسنا كل الراقصين، ومرة أخرى شعرنا بموجة السعادة العظمى تتحطم علينا. وتخلت هرمينه عـن هيئتهـا المنتصرة، وسـخريتها، وهدوئها, لقد أدركت أنه لم يعد ثمة ما تفعله لتجعلني أحبها. لقد كنـت مُلكاً لها، وأسلوبها في الرقص، ونظراتها وابتسـاماتها وقُبلهـا كـل ذلـك كان يبرهن على أنها وهبت نفسها لي. إن كل نساء هذه الليلـة المحمومـة، كـل اللواتـي رقصـت معهـن، وبثيـت فيهـن الحيوية أو بثثـن فيّ حيويتهــن، وتوددت إليهن، وتعلقن بي بشوق، وتابعتهن بعينين منتشيتين قد ذبن معاً في واحدة، هي التي أضمها بين ذراعيّ.

تواصلت مع الرقصة الزيجية بدون توقـف. ومـرة بعـد مـرة أخـذت الموسيقى تفتر. عازفو آلات النفخ تركوا آلاتهـن تـنزل. وعـازف البيـانو نهض واقفاً عن البيانو. وعازف الكمان الأول هز رأسه. وكانوا في كـل مرة يقتنعون بإلحاح آخر الراقصين الثملـين المتوسـل ويعـاودون العـزف. وكانوا يعزفون بشكل أسرع وأشد عنفاً. وأخيراً، عندما وقفنا، وما نزال متضافرين، ونلهث بعـد أداء آخـر رقصـة مفعمـة باللهفـة، أُغلـق البيـانو

بقوة، وانهارت أذرعنا من فرط الإرهاق إلى جنبينا كما انهارت أذرع عازفي آلات النفخ والآلات الوترية ودسّ عازف الفلوت، وهو يطرف بعينيه الناعستين، آلته في صندوقها. وفُتحت أبواب واندفع الهواء البارد إلى الداخل، وظهر الخدم مع الأردية وأطفأ نادل البار الأضواء. ثم اختفى المشهد كله بصورة مخيفة. والراقصون الذين كانوا قبل قليل كالنار الملتهبة أخذوا يرتعشون وهم يرتدون معاطفهم وأرديتهم ويقلبون ياقاتهم إلى أعلى. كان الشحوب يعلو هرمينه، لكنها كانت تبتسم. ورفعت ذراعها ببطء ودفعت شعرها إلى الخلف. وبينما هي تفعل سقط الضوء على إحدى ذراعيها فامتد ظل رقيق رقة تعصى على الوصف وباهت من إبطها وحتى ثديها المستتر، وتهيأ لي أن امتداد الظل القصير المرتعش هذا يختصر كل سحر وفتنة جسدها وكأنه ابتسامة.

وقفنا نتبادل النظرات، ولم يبق غيرنا في الصالة، ولم يبق غيرنا في البناء كله. وسمعت في مكان ما تحتنا باباً يُغلق، وكأساً يُكسر، وضحكاً مكبوتاً يخبو، ممزوجاً بتشغيل سيارات مسرع وغاضب. وفي مكان ما، وعلى مسافة وعلو غير محددين، سمعت ضحكاً يتردد صداه، نوبة ضحك صاف ومرح بشكل خارق. غير إنه كان مخيفاً وغريباً. كان ضحكاً من كريستال وثلج، براقاً ومتألقاً، لكنه بارد ومتصلب. أين سمعت هذه الضحكة من قبل؟ لم أتذكر.

وقفنا نتبادل النظرات. وعدت برهة إلى وعيي. شعرت بإرهاق شديد يحط عليّ. شعرت بامتعاض بملابسي المبللة والمترهلة متهدلة عليّ. رأيت يديّ حمراوين وبارزتي العروق ظاهرتين من طرفي كميّ المجعدين والذاويين. ولكن فجأة تلاشى الجو العام، اختفى بنظرة من هرمينه. بفعل هذه النظرة التي بدت وكأنها صادرة عن روحي أنا سقط الواقع كله، حتى واقع حبي الحسي لها. ورحنا نتبادل النظر، كالمسحورين، وكانت روحي الصغيرة المسكينة تنظر إليّ.

سألتْ هرمينه: «أأنت جاهز؟»، وفرَّت ابتسامتها كالظلال المرتسمة على صدرها. وفي مكان عالٍ على مسافة مجهولة تردد صدى تلك الضحكة الغريبة والمخيفة.

أومأت إيجاباً. أوه، نعم، أنا جاهز.

في تلك اللحظة ظهر بابلو في ممر الباب، وأشرق علينا بابتسامة من عينيه المرحتين اللتين كانتا بحق عيني حيوان لولا أن عيني الحيوان دائماً جادتان، في حين أن عينيه دائماً تضحكان، وهذا الضحك كان يحولهما إلى عينين إنسانيتين. وأومأ لنا مبدياً ودّه الحار المعتاد. كان يرتدي سترة التدخين الحريرية الفخمة. وكان يبدو على ياقته المتهدلة ووجهه الأبيض المتعب الذبول والشحوب فوق طلائه الأحمر، لكن عينيه السوداوين المتألقتين أزالتا هذا الانطباع. وكذا امّحى الواقع، لأنهما بدورهما لهما سحرهما الخاص.

انضممنا إليه عندما أومأ إلينا وعند ممر الباب قال لي بصوت منخفض: «أخي هاري، إنني أدعوك إلى شيء من التسلية. وهي مخصصة للمجانين فقط، والثمن الوحيد ـ هو عقلك. ألديك استعداد؟».

من جديد أومأت بالإيجاب.

مدّ الصديق العزيز ذراعاً لكلٍ منا بعناية رقيقة مفرطة، هرمينه إلى يمينه، وأنا إلى يساره وقادنا مرتقياً الدرج إلى غرفة صغيرة مضاءة من السقف بضوء ضارب إلى الزرقة وتكاد تكون خالية. فلم تكن تحوي إلا على طاولة صغيرة مستديرة وثلاثة كراسٍ مريحة جلسنا عليها.

أين كنا؟ أكنت حالماً؟ أكنت في بيتي؟ أكنت أركب سيارة؟ لا، لقد كنت جالساً وسط إضاءة زرقاء في غرفة مستديرة وجو مخلخل، في شكل من أشكال الواقع أضحى مطلق النقاء.

إذن لم كانت هرمينه شديدة الشحوب؟ لمَ يكثر بابلو من الكلام؟ أيعقل أن أكون أنا، ربما، من جعله يتحدث، يتكلم، بصوته؟ أيضاً، ألا يجوز أن روحي أنا كانت تتأملني من عينيه السوداوين وكأني طائر تائه وخائف، كما كانت تفعل من عيني هرمينه الرماديتين؟.

كان بابلو يرمقنا بطلاقته المعهودة مع مودة تتسم بصبغة رسمية، وأكثر من الكلام وأطال. وهو الذي لم أكن قد سمعته قط ينطق بجملتين متواليتين، ولا يثير اهتمامه نقاش أو طرح علمي، ولم أؤمن قط بأنه ينطوي على فكرة واحدة، إذا به الآن يتحدث بصوته الدافئ بسلاسة وبدون أن يرتكب غلطة واحدة.

«لقد دعوتكما، يا صديقيّ، إلى عرض مسلٍّ طالما تاق هاري إلى حضوره وحلم به. إن الوقت متأخر قليلاً ونحن جميعاً ولا شك تعبون قليلاً. لذا، أولاً، سنأخذ قسطاً من الراحة وننتعش قليلاً».

تناول من فجوة في الجدار ثلاثة كؤوس وزجاجة صغيرة غريبة الشكل، وأيضاً صندوقاً صغيراً نفيساً مطعّماً بخشب ملون بألوان مغايرة. وملأ الكؤوس الثلاثة من الزجاجة وأخذ ثلاثة سجائر صفراء اللون نحيلة وطويلة من الصندوق وعلبة كبريت من جيب سترته الحريرية، وأعطانا شعلة. ومن ثم أخذنا جميعاً ندخن ببطء السجائر التي كان دخانها كثيفاً كدخان البخور، واسترخينا في جلستنا على الكراسي ورحنا نرشف بتمهل المشروب ذا النكهة العطرة، والذي كان مذاقه منعشاً ومبهجاً إلى درجة تعصى على التقدير ـ وكأن المرء مملوء بالغاز ولم تعد له أي جاذبية. وهكذا جلسنا بسلام نزفر نفحات صغيرة ونرشف رشفات قليلة من كؤوسنا، ومع كل لحظة تمر نشعر أننا غدونا أخف وزناً وأكثر صفاءً.

تناهى صوت بابلو قادماً من بعيد.

«يسعدني، يا عزيزي هاري، أن أحظى بامتياز كوني مضيفك على مستوى متواضع في هذه المناسبة. لقد كنت دائماً سئماً إلى أقصى حد من حياتك. وأظنك كنت تبذل جهداً هائلاً لتهرب، أليس كذلك؟ إنك تنطوي على توق لنبذ هذا العالم وواقعه وإدراك واقع أكثر التصاقاً بك، عالم يتجاوز الزمن. الآن أنا أدعوك لتفعل هذا. وأنت طبعاً تعرف أين يكمن هذا العالم الآخر. إن عالم روحك أنت هو ما تبحث عنه. وذاك الواقع الآخر الذي تصبو إليه لا يوجد إلا في داخلك. أنا لا أستطيع أن أمنحك ما ليس موجوداً أصلاً في داخلك. ليس في مقدوري أن أعرض أمامك إلا سلسلة الصور الكامنة في روحك. وكل ما في وسعي أن أمنحك هو الفرصة، الحافز، المفتاح. أنا أساعدك على أن تجعل عالمك الخاص مرئياً. لا أكثر».

مرة أخرى مدّ يده إلى جيب سترته الفخمة وأخرج منها مرآة مستديرة.

«أنظر، هكذا كنت ترى نفسك حتى الآن».

وضع المرآة الصغيرة أمام عينيّ (هنا خطر على بالي بيت شعري للأطفال: «أيتها المرآة، أيتها المرآة في اليد»). فرأيت، وإن كان بشكل غير واضح ومبهم، انعكاس كيان قلق، يعذب نفسه، يرزح ويضطرب من الداخل - إنه أنا، هاري هالل. ومرة أخرى رأيت داخله ذئب السهوب، ذئباً حيياً، جميلاً، منبهراً بعينين مذعورتين تنمان تارة عن الغضب وتارة عن حزن. وكان هذا المظهر للذئب يجري خلال الآخر في حركة مستمرة، كرافد يصب مياهه المضطربة وغير الصافية في نهر. وكان كل منهما يحاول، في كفاح مرير، وتوق حاد، أن يلتهم الآخر لكي لا يهيمن مظهره. كم كانت حزينة حزناً يفوق الوصف النظرة التي رماها هذا الشكل البدائي المائع للذئب من عينيه الحييتين الجميلتين.

قال بابلو معلقاً: «هكذا ترى نفسك»، ثم دسّ المرآة في جيبه. وأسعدني أن أعود لأغمض عيني وأتناول رشفة من الإكسير.

قال بابلو: «والآن، ها قد أخذنا قسطاً من الراحة، وتناولنا ما أنعشنا وتحدثنا قليلاً. فإذا كان التعب قد زال عنكما فسأواكبكما إلى صندوق الفرجة، وأريكما مسرحي الصغير. هلا أتيتما؟».

نهضنا واقفين. وقادنا بابلو وهو يبتسم. فتح باباً، وأزاح ستارة فوجدنا أنفسنا في رواق مسرح على شكل حدوة حصان، وفي منتصفه تماماً. وكان الممر المنحني يؤدي على كلا الجانبين، عبر عدد كبير، بل عدد لا يصدق، من الأبواب الضيقة إلى المقاصير.

قال بابلو شارحاً: «هذا هو مسرحنا، وهو مسرح يوفر المتعة. آمل في أن تجدا فيه ما يضحككما». وضحك بصوت عال وهو يتكلم، ضحكة قصيرة، لكنها تغلغلت داخلي كطلقة رصاص. كانت الضحكة المميزة نفسها التي سمعتها من تحت.

«إن مسرحي الصغير هذا له أبواب عديدة تؤدي إلى قدر ما تشاءان من مقاصير، عشرة أو مئة أو ألف، وخلف كل باب ينتظركما ما تبحثان عنه بالضبط. إنها حجيرة صغيرة لعرض الصور، يا صديقي العزيز، ولكن لن يفيدك في شيء إذا دخلتها كما أنت. سوف تُفتّش وتعصب عيناك عند كل منعطف من قبل ما يسرّك أن تسميها شخصيتك. ولا شك في أنك قد خمّنت منذ وقت طويل أن إخضاع الزمن والهروب من الواقع، أو كيفما شئت أن تصف توقك، يعنيان ببساطة رغبتك في أن تتخلص مما تسميه شخصيتك. أي من السجن الموجود داخله. فإذا دخلت المسرح كما أنت، فسوف ترى كل شيء بعيني هاري وبمنظار ذئب السهوب القديم. لذا، المطلوب منك أن تطرح هذا المنظار جانباً وأن تتلطف وتترك شخصيتك الفائقة الاحترام هنا في

غرفة الملابس حيث ستجدها ثانية متى شئت. ويمكن أن تكون الرقصة الممتعة التي انتهيت لتوك من رقصها، والأطروحة حول ذئب السهوب، والقليل من المشروب المنبه الذي تناولته لتوك، قد أعدّوك بشكل كاف لذلك. وبعد أن تترك شخصيتك القيّمة وراءك، يا هاري، سيكون الجانب الأيسر من المسرح تحت تصرفك والأيمن تحت تصرف هرمينه. وحالما تصبحان في الداخل يمكنكما أن تتقابلان كما ترغبان. وسوف تتلطف هرمينه وتذهب برهة خلف الستارة. أود أن أقدّم هاري أولاً».

اختفت هرمينه إلى اليمين مارة بمرآة عملاقة تغطي الجدار الخلفي من الأرض وحتى السقف المقوس.

«والآن تقدم يا هاري، وكن مرحاً قدر ما في وسعك. إن هدف هذا العرض المسلي كله أن نجعله كذلك وأن يعلمك أن تضحك ـ أرجو أن تسهل لي مهمتي. هل أطمئن إلى أنك تشعر على أحسن ما يرام؟ ألست خائفاً؟ عظيم، ممتاز. والآن سوف تلج، بدون خوف وباستمتاع غير متكلّف، عالمنا الخيالي. سوف تقدّم نفسك إليه بواسطة انتحار تافه، بما أن هذه هي العادة».

أخرج مرآة الجيب مرة أخرى وقرّبها من وجهي. ومرة أخرى واجهت الانعكاس غير الواضح والباهت، وشكل الذئب يطوقه، ويجري خلاله. عرفته معرفة تامة، وكرهته من كل قلبي لكي لا يسبب لي تدميره أي حزن.

«الآن، يا صديقي العزيز، سوف تقضي على ذاك الانعكاس الزائد. هذا كل ما يلزم. ويكفي لذلك أن تحييه، إذا سمح مزاجك، بضحكة من القلب. أنت هنا في مدرسة الفكاهة. وعليك أن تتعلم كيف تضحك. والفكاهة الحقيقية تبدأ عندما يكف الإنسان عن التصرف بجدية».

ثبّتُ نظري على المرآة الصغيرة، حيث كان الرجل هاري والذئب تتنابهما اضطرابات عنيفة. وهزني بدوري قليل من الاضطراب العميق من داخلي، كان ضعيفاً ولكنه مؤلم كالذكرى، أو كالحنين إلى الوطن، أو كالندم. ثم أفسح الإحساس القليل بالضيق المجال لشعور جديد كالذي يشعر به الإنسان عندما "يقتلع سن" باستخدام الكوكايين، إحساس بالارتياح وإطلاق زفير عميق، وأيضاً تعجُّب من أنه لم يتسبَّب بأقل ألم. وهذا الشعور كان مصحوباً بانتعاش منشِّط وبرغبة لا تقاوم في الضحك حتى إني كنت مضطراً إلى أن أنفّذها.

تشنجت الصورة المحزنة البادية في المرآة للمرة الأخيرة، ومن ثم تلاشت. والمرآة نفسها راحت تتحول من رمادية إلى سوداء فاحمة معتمة، وكأنها تحترق. فرماها بابلو وهو يضحك بعيداً وأخذت تتدحرج على طول الرواق الذي لا نهاية له واختفت.

هتف بابلو: «أحسنت الضحك يا هاري. وسوف تتعلم لاحقاً كيف تضحك كالخالدين. لقد قضيت أخيراً على ذئب السهوب. لاينفع الموسى في هذا المجال. إحرص على أن يبقى ميتاً. سوف تتمكن من أن تترك مهزلة الواقع وراءك مباشرة. وفي لقائنا التالي سوف نشرب، يا صديقي العزيز، نخب الأخوة. إنني لم أحبك قط كما أحببتك اليوم. وإذا كنت ما تزال تعتقد أنك تستفيد فيمكننا أن نتفلسف معاً ونتجادل ونتحدث عن الموسيقى وموتسارت وغلوك وأفلاطون وغوته حتى تكتفي. وسوف تفهم الآن لِمَ كان هذا مستحيلاً من قبل. وعلى أي حال أتمنى لك اليوم خلاصاً تاماً من ذئب السهوب. إذ من الطبيعي أن لا يكون انتحارك هو الأخير. فنحن في مسرح سحري، عالم من الصور، وليس الوقائع. إحرص على أن تنتقي صوراً جميلة ومفرحة وبيِّن أنك بحق لم تعد بحق عاشقاً لشخصيتك المشكوك في أمرها إلى أقصى حد. ولكن

إذا كنت ما تزال تتلهف إليها، فكل ما عليك أن تفعله هو أن تلقي نظرة أخرى إلى المرآة التي سأريك الآن. ولكنك تعرف ماذا يقول المثل القديم: "مرآة في اليد ولا إثنتان على الجدار". ها! ها!». (ومرة أخرى ضج بتلك الضحكة الجميلة، والمخيفة!): «والآن لم يبق غير القيام بشعيرة واحدة وهي مرحة تماماً. وعليك الآن أن تنحي جانباً نظارة شخصيتك. ثم اقترب إلى هنا وانظر في مرآة لائقة، فسوف تبعث فيك المرح».

أدارني، وهو يقوم عابثاً ببعض المداعبات المضحكة، بحيث أواجه المرآة العملاقة التي تغطي الجدار. وهناك رأيت نفسي.

رأيت نفسي برهة خاطفة بشكلها المعتاد. غير أني بدوت ودوداً بصورة خارقة، ومشرقاً وضاحكاً. ولكن قبل أن يتاح لي أن أتعرف على نفسي تهشم الانعكاس شذراً. وقفز منها شكل ثان وثالث، وعاشر، وعشرون إلى أن امتلأت المرآة العملاقة بأكملها بصور لهاري أو بقطع منه، و لم أر كلاً منها إلا خلال برهة تعرُّف. وبعض هذه الحشود من الهاريات كان في مثل عمري، وبعضها الآخر أكبر سناً، والبعض عجوزاً جداً. وهناك آخرون شبان. كان هناك شبان، وفتيان، وتلاميذ مدارس، وأولاد شياطين، وأطفال، أعمارهم خمس عشرة سنة، وعشرون يلعبون لعبة القفزية. وثمة في عمر الثلاثين والخمسين من هم رصينون ومرحون، محترمون ويثيرون الضحك، حسنو الملبس ومهملو الهندام، بل هناك من هم عراة، ومرسلو الشعور، والصلع، وكلهم يمثلونني أنا وكانوا يظهرون كلمح البرق، يعرِّفون بأنفسهم ويختفون. وكان ينبثق بعضهم من البعض الآخر وفي كل الاتجاهات، يساراً ويميناً وفي عمق المرآة وخارجها. وأحدهم، كان شاباً أنيقاً، قفز وهو يضحك ليستقر بين ذراعي بابلو، وعانقه ومضيا معاً مبتعدين. وآخر، وقد سرني بنوع خاص، كان فتى وسيماً وفاتناً في السادسة عشرة أو السابعة عشرة، قفز بسرعة البرق إلى

الرواق وأخذ يقرأ الملاحظات المدونة على الأبواب. فلحقت به ووجدته واقفاً أمام باب كتب عليه:

كل الفتيات تحت تصرفك

ضع قطعة نقدية في الشق

اندفع الفتى اللطيف متقدماً، وإذا به يقفز ويدخل بنفسه بدءاً برأسه في الشق، ويختفي خلف الباب.

بابلو أيضاً كان قد اختفى، وكذا فعلت المرآة بكل أشكالها التي لا حصر لها. وأدركت أني الآن قد بتُّ وحدي مع المسرح، ورحت يحدوني الفضول أنتقل من باب إلى باب وأقرأ على كل منها دعوتها المغرية.

وقد جذبني الإعلان التالي:

صيد ممتع

صيد سيارات ضخم

ففتحت الباب الضيق ودخلت.

على الفور وجدتني منجرفاً إلى عالم يهدر بالضجيج والإثارة. حيث سيارات، وبعضها مصفح، تندفع في الشوارع تطارد المشاة. كانت تدوسهم فإما أن تتركهم مشوهين على الأرض أو تسحقهم على جدران البيوت وتقتلهم. وفهمت للتو أن هذا إنما يمثل الحرب التي طال الإعداد لها، وطال انتظارها وطال الخوف منها، التي تنشب بين البشر والآلات، وقد اندلعت أخيراً. وكنت ترى في كل ناحية الجثث ملقاة ومقطعة الأوصال، وفي كل مكان أيضاً سيارات محطمة ومشوهة ونصف محروقة. وكانت الطائرات تحوم فوق الفوضى الرهيبة والنيران تطلق عليها من أسقف بيوت عديدة ونوافذها بالبنادق وبالمدافع الرشاشة. وعلى كل جدار عُلقت إعلانات عنيفة ومحرضة إلى أقصى حد، أحرفها العملاقة

تتلظى بنيران المشاعل تدعو الأمة إلى معاضدة البشر ضد الآلات، للقضاء على المتنفذين الأثرياء، البدينين والأنيقين والمعطرين، الذين يستخدمون الآلات لشفط الشحم من أجساد الآخرين، منهم ومن سياراتهم الضخمة الشيطانية الهادرة. حان الوقت لتضرموا النيران في المصانع! احتلوا حيزاً صغيراً على الأرض المعاقة! إخلوها من سكانها لكي ينمو عليها العشب من جديد، وتعود الغابات والمروج، والخلنج والغدير، والمستنقع إلى هذا العالم المؤلف من الغبار والإسمنت. ومن ناحية أخرى هناك إعلانات منفّذة بألوان فائقة الجمال وصيغت بعبارات رائعة، تحذّر كل من له وتد في البلد أن يتمتع بأي قدر من الحكمة (بعبارات أكثر اعتدالاً وأقل صبيانية كانت شاهداً على ما يتصف به الذين صاغوها من حذاقة وذكاء فائقين) من ارتفاع مدّ الفوضوية. وكانت تصور بأسلوب مؤثر حقاً نِعَم النظام والعمل والملكية والثقافة والعدالة، وتطري المكننة بوصفها آخر مبتكرات العقل الإنساني وأشدها سمواً. فبمساعدتها سيصبح البشر متعادلين مع الآلهة. تفحصت هذه الاعلانات، المكتوبة باللونين الأحمر والأخضر، وتأملت فيما جاء فيها وتعجبت. أثّرت فيّ الفصاحة الملهبة للمشاعر بقوة المنطق المُلزم. كانت محقة، واقتنعت بعمق بكل ما جاء في كل منها بقدر متساو، وكنت طوال الوقت مضطرباً اضطراباً هائلاً من وابل إطلاق النار الذي يجري من حولي. حسن، إن الأمر الأساسي كان جلياً لي. ثمة حرب مندلعة، حرب مريعة، حقيقية، وملائمة إلى أبعد حد مع المزاج العام، حيث لا أحد يأبه للقيصر أو للجمهورية، للحدود أو للرايات أو للألوان والأمور الأخرى التي تعادلها في صفتها الزخرفية والمسرحية، وكلها في عمقها تافهة، لكنها حرب وجد فيها كل من لا يجد له متنفساً ولم يعد يرى الحياة جديرة حقاً بالعيش، تعبيراً مؤكداً على استيائه وكافح ليمهد الطريق لتدمير حضارتنا

الحديدية هذه تدميراً شاملاً. وشاهدت في كل العيون شرارات الدمار والموت الصريحة، ونمت في عيني أيضاً هذه الورود الحمراء الضارية متفتحة موفورة النماء والعلو، وتلألأت بسطوع.

أنا أيضاً شاركت في الحرب بكل سرور.

إلا أن أفضل ما حدث قاطبة كان أن صديق دراستي غوستاف ظهر بالقرب مني. وكنت قد فقدت أثره منذ سنين عديدة، وكان أعنف أصدقاء طفولتي، وأقواهم، وأشدهم اندفاعاً وحباً للمغامرة. وضحكت في قرارتي عندما رأيته يومئ إليّ بعينيه الزرقاوين البراقتين. أومأ إليّ وعلى الفور تبعته وأنا سعيد.

هتفت بحبور: «يا إلهي، غوستاف، تصور أن أراك هنا. ماذا حل بك؟».

«كفاك طرحاً للأسئلة وللثرثرة! أنا بروفيسور في اللاهوت، إذا كان هذا يهمك. لكن، المجد للرب، لا مجال الآن للاهوت، يا بني إنها الحرب. هيا بنا!».

أطلق الرصاص على سائق سيارة صغيرة كانت تقترب منا وهي تشخر، وبعد أن قفز إلى داخلها بخفة قرد، جعلها تتوقف لكي أدخلها بدوري. ثم قدنا السيارة بسرعة جنونية بين سيل الرصاص والسيارات المحطمة إلى خارج البلدة وخارج الضواحي.

سألت صديقي: «هل تساند أصحاب المصانع؟».

«أوه، يا إلهي، إنها مسألة ذوق، سنناقش هذا لاحقاً ـ ولكن بما أنك قد فتحت الموضوع، فإني أفضل أن نساند المعسكر الآخر، على الرغم من أن الأمر سيان طبعاً في الأساس. أنا لاهوتي وكان سَلَفي، لوثر، يتخذ جانب الأمراء، والمتنفذين الأثرياء ضد الفلاحين. وهكذا فنحن نعمل على إيجاد قليل من التوازن. يا لهذه السيارة العفنة، أتمنى أن تصمد معنا مسافة ميل آخر أو إثنين».

انطلق بنا رجل الدين ذاك بسرعة الريح حتى وصلنا إلى منطقة ريفية تشملها الخضرة والسكينة تبعد عدة أميال. وقطعنا سهلاً فسيحاً ومن ثم أخذنا نرتقي الجبال ببطء. وهنا توقفنا على درب ممهدة لامعة تمتد بمنعطفات خطرة بين الجدار الصخري المنحدر والجدار الواقي المنخفض. وفي الأسفل السحيق لمعت مياه بحيرة زرقاء.

قلت: «منظر جميل».

«بل جميل جداً. سوف نسميه درب المحور[1]. إن عدداً كبيراً من المحاور والدواليب من أنواع مختلفة ستتحطم هنا، يا هاري، يا بني. فانتبه!».

كانت هناك شجرة صنوبر نامية على جانب الطريق، ورأينا بين أغصانها الباسقة شيئاً أشبه بالكوخ الصغير صنع من ألواح خشبية ليكون بمثابة موضع ممتاز للمراقبة. ابتسم غوستاف وومض في عينيه الزرقاوين بريق المعرفة. فأسرعنا بالترجل من السيارة، ورحنا نتسلق جذع لشجرة، ثم ولجنا نقطة المراقبة ونحن نلهث، وكان مكاناً ممتعاً. وعثرنا فيه على بنادق ومسدسات وصناديق من الذخيرة. وقبل أن يتاح لنا أن نرتاح سمعنا صوت هدير صاخب ملحّ خشن لسيارة سياحية كبيرة قادم من المنعطف التالي من الطريق. أتى هادراً بأقصى سرعة مرتقياً الطريق المهدة. وكانت البنادق مهيأة في أيدينا. وكانت الإثارة شديدة.

قال لي غوستاف بلهجة آمرة وبسرعة حالما مرت السيارة من تحتنا: «سدّد على السائق». فسدّدت على السائق ذي القبعة الزرقاء وأطلقت النار. فسقط الرجل جثة هامدة. ومالت السيارة على جنبها وارتطمت بوجه الجرف مباشرة، ثم ارتدت، وهاجمت الجدار المنخفض بعنف بكل ثقلها الضخم وكأنها نحلة طنانة عملاقة، وتدهورت عبره، ثم تحطمت مع دويّ ناء وقصير أسفل الأعماق السحيقة.

---

[1] المقصود هنا محور دولاب ما. ـ المترجم.

ضحك غوستاف وقال: «نلت منه. المرة القادمة دوري».

حالما قال هذا جاءت أخرى. كان فيها ثلاثة أو أربعة ركاب محشورين في المقعد الخلفي. وفي خلفية السيارة برز من رأسِ امرأةٍ خمارٌ بلون أزرق براق. فامتلأتُ بشعور حقيقي بالندم. أي وجه جميل يزيّن يا ترى؟ يا إلهي، على الرغم من أننا نتصرف كقطاع الطرق إلا أنه يمكننا على الأقل أن نحاكي الشهير منهم ونبقى على النساء الجميلات. إلا أن غوستاف كان قد أطلق النار لتوه فارتعد السائق وانهار وارتطمت السيارة بالجرف الشديد الانحدار ثم ارتدت وانقلبت رأساً على عقب. انتظرنا، ولكن لا حركة. كان الركاب محشورين كأنما في فخ. وكان المحرك ما يزال يدور والدواليب تدور وحدها في الهواء، ولكن فجأة حدث انفجار مروع واندلعت النيران.

قال غوستاف: «إنها من نوع فورد. يجب أن ننزل ونفتح الطريق».

هبطنا ورحنا نراقب الركام المحترق. وسرعان ما أتت عليها النيران. وفي تلك الأثناء صنعنا عتلات من أغصان خضراء ورفعناها إلى جانب الطريق وقلبناها عبر الجدار وإلى الهاوية، حيث ظلت فترة طويلة تتحطم بين الشجيرات. وكانت جثتان من الجثث قد سقطتا خارج السيارة ونحن نقلبها وانطرحتا على جانب الطريق وقد احترقت ملابسهما جزئياً. وكان أحدهما يرتدي معطفاً جيداً جداً. فأخذت أفتش جيوبه لأعرف هويته. فوقعت في يدي حقيبة جلدية تحتوي بعض البطاقات. فأخذت إحداها وقرأت: "تات توام آسي".

قال غوستاف: «اسم ظريف. ولكن لا يهم في الحقيقة ما هي أسماء الضحايا، إنهم مساكين مثلنا تماماً. ولا أهمية لأسمائهم. إن هذا العالم

هالك وكذا نحن. وأقل الحلول إيلاماً هو أن نبقيه تحت الماء مدة عشر دقائق. والآن إلى العمل».

رمينا بالجثتين وراء السيارة. وللتو سمعنا هدير أخرى. ومن مكان وقوفنا رميناها بوابل من الرصاص. فانحرفت كالسكرى وسارت مسافة: ثم انقلبت. انطرحت تلهث. وكان مسافر لا يزال جالساً في داخلها، لكن فتاة شابة صغيرة خرجت سالمة، وإن كانت شاحبة اللون وترتعش بعنف، فحييناها بأدب وعرضنا عليها مساعدتنا. وكانت تنتفض بقوة حتى عجزت عن الكلام وراحت تحدق إلينا برهة وهي مذهولة تماماً.

قال غوستاف: «حسن، فلنعتن أولاً بالعجوز». والتفت إلى راكب السيارة الذي كان لا يزال متشبثاً بمقعده خلف السائق. كان سيداً محترماً ذا شعر قصير شائب. وكانت عيناه الرماديتان الصافيتان اللتان تنمان عن ذكاء مفتوحتين، ولكن بدا أنه تعرض لجروح بليغة، على الأقل كان الدم يسيل من فمه، وقد أمال عنقه بانحراف وتصلّب.

«اسمح لي أن أقدم نفسي. اسمي غوستاف. وقد تجرأنا بإطلاق النار على سائقك. فهل لنا أن نتشرف بمعرفة من نخاطبه؟».

ألقى الرجل العجوز إلينا نظرة هادئة وحزينة من عينيه الرماديتين الصغيرتين.

قال ببطء: «أنا النائب العام لورينغ. إنكما لم تقتلا فقط سائقي المسكين، بل أعتقد أنكما قتلتماني أيضاً. لماذا أطلقتما النار علينا؟».

«بسبب تجاوز السرعة القصوى».

«نحن لم نكن نسير بأكثر من السرعة العادية».

«إن ما كان عادياً بالأمس لم يعد كذلك اليوم، يا سيدي النائب العام. نحن نرى أنه مهما كانت السرعة التي تسير بها السيارات فهي سرعة فائقة. ونحن ندمر كل السيارات وكل الآلات الأخرى».

«حتى بنادقكم؟».

«سوف يأتي دورها، إذا توفر لدينا الوقت اللازم. فغداً ربما أو بعد غد سينتهي أمرنا جميعاً. وأنت تعلم، طبعاً، أن هذا الجزء من العالم مزدحم بشكلٍ مخيف بالسكان. وهكذا، نحن الآن نعمل على تخفيف هذا الازدحام قليلاً».

«هل أفهم أنكما تطلقان النار على الجميع، بدون تمييز؟».

«حتماً. لا شك في أنه في حالات كثيرة يكون الأمر مؤسفاً. فأنا، مثلاً، آسف لما حدث لهذه الشابة الفاتنة. ابنتك، أعتقد».

«لا. إنها كاتبة اختزال تعمل عندي».

«هذا أفضل. والآن هلا تفضلت وخرجت، أم تترك لنا أمر إخراجك، بما إننا سندمر السيارة؟».

«أفضل أن أدمَّر معها».

«كما تشاء. ولكن اسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً أخيراً. إنك نائب عام، وأنا لا أفهم مطلقاً كيف يمكن لإنسان أن يكون نائباً عاماً. إنك تكسب عيشك بإحضار أناس آخرين، هم مساكين في الغالب، ومحاكمتهم وإصدار حكم الموت عليهم. أليس كذلك؟».

«هو ذاك. إنني أؤدي واجبي. إنها وظيفتي. تماماً كما إن وظيفة الجلاد أن ينفّذ حكم الإعدام في أولئك الذين أصدر حكم الإعدام عليهم. أنت أيضاً تتولى وظيفة مشابهة، فأنت أيضاً تقتل الناس».

«صحيح تماماً. غير أننا لا نقتل بدافع الواجب، بل للمتعة، أو ما هو أكثر من ذلك بالأحرى، للتعبير عن استيائنا ويأسنا من العالم. ولهذا ترانا نجد تسلية خاصة في قتل الناس. فهل عملك يوفر لك أي تسلية؟».

«أنت تضجرني. هلا تلطفت وقمت بعملك. بما إنك لا تعرف أي شيء عن مفهوم الواجب».

لزم الصمت وقام بحركة من شفتيه وكأنه يريد أن يبصق. إلا أن مقداراً من الدم خرج وعلق على ذقنه.

قال غوستاف بأدب: «انتظر لحظة! لا شك في أني لا أعرف أي شيء عن مفهوم الواجب ـ أقصد الآن. ولكن سابقاً كان لي اهتمام وظيفي بالغ به. فقد كنت بروفيسوراً في اللاهوت. وإلى جانب ذلك كنت جندياً وخضت الحرب. وما بدا في نظري واجباً وما كانت السلطات ورؤسائي الضباط يأمرونني من وقت لآخر بفعله لم يكن عملاً خيِّراً بأي حال. لقد كنت أفضِّل أن أقوم بعكسه. ولكن على فرض أنه لم يعد لي أي إدراك لمفهوم الواجب، إلا أني ما زلت أدرك مفهوم الذنب ـ ولعلهما أمر واحد. إن إحساسي بالذنب لا يتعدى كون أماً حملت بي. إنني محكوم علي بالعيش. إنني مضطر إلى أن أنتمي إلى أمة، وأن أكون جندياً، وأن أقتل، وأن أدفع ضرائب على الأعتدة الحربية. والآن، في هذه اللحظة، أعادني شعوري بذنبِ كوني حياً مرة أخرى إلى ضرورة قتل الناس كما فعل بي في زمن الحرب. وهذه المرة أنا لا أشعر بأي اشمئزاز. لقد تكيَّفتُ مع الشعور بالذنب. ولا اعتراض لدي على أن يُدمَّر هذا العالم المحتقن الأحمق عن آخره. ويسعدني أن أمدَّ يد العون في ذلك ويسعدني أن أفنى معه».

بذل النائب العام جهداً كي يرسم ابتسامة صغيرة على شفتيه اللتين كان الدم قد تخثر عليهما. ولم ينجح كثيراً في ذلك، على الرغم من أن النية الطيبة كانت واضحة.

قال: «عظيم، إذن فنحن زملاء. حسن، وعليه، أرجوك قم بواجبك».

في تلك الأثناء كانت الفتاة الحسناء قد جلست على جانب الطريق وأغمي عليها.

في هذه اللحظة سمعنا من جديد هدير سيارة قادمة على الطريق بأقصى سرعة. فأزحنا الفتاة أكثر جانباً، ووقفنا ملتصقين بالجرف، وتركنا السيارة تقترب حتى حطام السيارة الأخرى. ثم شُدَّت المكابح بعنف فوثبت السيارة في الهواء، ثم استقرت واقفة بدون أن تصاب بأذى. فقبضنا على بنادقنا وسرعان ما كنا نهدد الوافدين الجدد.

أمرهم غوستاف:«أخرجوا! وارفعوا أيديكم».

خرج ثلاثة رجال من السيارة ورفعوا أيديهم راضخين.

سألهم غوستاف: «هل بينكم طبيب؟».

هزوا رؤوسهم نفياً.

«إذن كونوا طيبين وأخرجوا هذا السيد. إنه مصاب بجرح بليغ. ضعوه في سيارتكم وخذوه إلى أقرب بلدة. تقدموا ونفذوا».

سرعان ما أصبح السيد العجوز ممدداً في السيارة الأخرى. فأعطى غوستاف أوامره وانطلقوا.

في تلك الأثناء كانت كاتبة الاختزال قد عادت إلى رشدها وراحت تراقب ما قد جرى. وأسعدني أننا حظينا بجائزة بهذا الجمال.

قال غوستاف: «مدام، لقد فقدت مستخدمك. وآمل في أن لا تكوني مرتبطة بالسيد العجوز بروابط أخرى. أنت الآن تعملين لصالحي. فكوني رفيقة صالحة. كفى من هذا. والآن إن الوقت يضيق. وسرعان ما سيصبح الوضع هنا غير مريح. هل تستطيعين التسلق، مدام؟ نعم؟ إذن هيا اصعدي وسنساعدك على التسلق».

تسلقنا جميعاً إلى كوخنا في الشجرة، بأسرع ما استطعنا. ولم تشعر السيدة بارتياح وهي فوق، لكننا سقيناها بعض البراندي، وسرعان ما تحسنت حالها كثيراً. وباتت قادرة على الإعجاب بالمشهد الرائع المطل على البحيرة والجبال، وعلى أن تقول لنا إن اسمها هو دورا.

بعد ذلك مباشرة، مرت سيارة أخرى من تحتنا. وتابعت طريقها بعناية مارة بالسيارة المقلوبة بدون أن تتوقف ومن ثم استجمعت سرعتها وانطلقت.

ضحك غوستاف وأطلق النار على السائق: «جبان!». فراحت السيارة تسير بخط متعرج واندفعت بعنف مخترقة الجدار، ثم تدلّت فوق الهاوية.

قلت: «دورا، هل تحسنين استخدام الأسلحة النارية؟».

لم تكن تحسن استخدامها، لكننا علمناها كيف تشحنها. في أول الأمر كانت خرقاء وجرحت إصبعها وبكت وطلبت شريطاً لاصقاً. لكن غوستاف قال لها إننا في حالة حرب وإن عليها أن تبين مدى شجاعتها. ثم تحسن الوضع.

سألتْ: «ولكن ماذا سيحل بنا؟».

قال غوستاف: «لا أدري، إن صديقي هاري مولع بالفتيات الجميلات، وسوف يعتني بك».

«لكن الشرطة والجيش سوف يأتون ويقتلونا».

«لم يعد هناك وجود لأي شرطة أو ما شابه. إن الخيار لنا، يا دورا. فإما أن نمكث هنا بهدوء ونطلق النار على كل سيارة تحاول أن تمر بنا، أو نستقل سيارة وننطلق بها وندع الآخرين يطلقون النار علينا. ولا يهم مع أي جانب نقف. أما أنا فمع البقاء هنا».

ثم تناهى هدير قوي لسيارة أخرى تحتنا. وسرعان ما صفينا أمرها وأصبحت مقلوبة رأساً على عقب.

قلت: «غريب، إن إطلاق النار يمكن أن يكون ممتعاً! وأنا الذي كنت أناصر اللاعنف!».

ابتسم غوستاف: «نعم، هناك بحق أعداد هائلة من الناس في العالم. في العهود السابقة لم يكن هذا ملحوظاً. أما الآن وقد أصبح كل إنسان يطلب هواءً ليتنفسه، وسيارة أيضاً ليقودها، أصبحنا نلاحظ. طبعاً، إن ما نفعله ليس عقلانياً. إنه صبياني، تماماً كما إن الحرب صبيانية، ولكن بمعيار هائل. وعندما يحين الوقت المناسب سيتعلم البشر أن يضبطوا أعدادهم بوسيلة عقلانية. وحتى ذلك الحين، ها نحن نواجه وضعاً لا يحتمل بطريقة لاعقلانية. غير أن المبدأ صحيح - إننا نُنقِص العدد».

قلت: «نعم، إن ما نقوم به قد يكون جنوناً، ولعله مع ذلك جيد وضروري. ويصبح أمراً سيئاً عندما يرهق الإنسان عقله ويحاول أن يُخضع المسائل غير القابلة للمعالجة العقلانية للنظام العقلاني. عندئذ تنشأ مُثل عليا كتلك التي يتبناها الأميركيون أو البلشفيون. وكلاهما عقلاني بدرجة خارقة، وكلاهما يؤدي إلى الاضطهاد الرهيب، وإلى إفقار الحياة، لأنهما يبسِّطانها بطريقة فجَّة. إن شبيهاً للإنسان، الذي كان سابقاً مثلاً أعلى، بصدد أن يصبح مادة مصنّعة. وربما على المجانين أمثالنا أن يعيدوا إليه نبالته».

أجاب غوستاف وهو يضحك: «إنك تتكلم وكأنك كتاب، يا بني. وإنه ليمتعني ويشرفني أن أشرب من نبع حكمتك. بل لعل فيما تقول شيئاً ذا قيمة. أما الآن فهلا تلطَّفت وأعدت شحن قطعة سلاحك. إني أجدك حالماً بإفراط. وقد يظهر بعض الغزلان في أي لحظة. ولا يمكننا أن نقتلهم بالفلسفة، يجب أن يكون هناك رصاص في بنادقنا».

اقتربت سيارة وأصبناها في الحال. وسُدَّ الطريق. ونجا أحدهم من الموت، وكان رجلاً سميناً وأحمر الوجه، وقف يومئ بعنف فوق الحطام. ثم أخذ يحدق إلى كل الاتجاهات، وعندما اكتشف مخبأنا، اقترب منا وهو يعوي ويطلق النار علينا من مسدسه.

صرخ غوستاف باتجاهه: «اخل الطريق، وإلا قتلتك». لكن الرجل سدد نحوه وعاد إلى إطلاق النار. فأرديناه قتيلاً.

بعد ذلك مرت سيارتان أخريان، وتصيدناهما. ثم ران الصمت على الطريق وأقفر. كان واضحاً أنه قد شاع أنه قد بات يشكل خطراً. وتوفر لدينا وقت للاستمتاع بجمال المنظر الطبيعي. وعلى الجانب البعيد من البحيرة شاهدنا بلدة صغيرة تستكين في الوادي. ثم تصاعد الدخان منها وسرعان ما رأينا النار تنتقل من سقف منزل إلى آخر. وسمعنا صوت إطلاق نار، وبكت دورا قليلاً فأخذت أمسّد على وجنتيها المخضلتين بالدموع.

سألتْ: «أعلينا جميعاً إذن أن نموت؟ ». لم تتلق جواباً. وفي تلك الأثناء مر من تحتنا رجل سائر على قدميه. ورأى السيارات المحطمة فأخذ يجوس حولها. ومال فوق إحداها وسحب منها مظلة زاهية الألوان، وحقيبة يد نسائية وزجاجة من النبيذ. ثم جلس على الجدار برضى، وشرب جرعة من الزجاجة، وأكل شيئاً ملفوفاً بورق مفضض أخرجه من حقيبة اليد. وبعد أن أفرغ الزجاجة مضى في طريقه، وهو سعيد، والمظلة المزوقة محشورة تحت إبطه، فقلت لغوستاف: «أترى في نفسك قادراً على أن تطلق النار على هذا الرجل الطيب وتترك ثقباً في رأسه؟ يا إلهي، أنا لا أقدر».

دمدم صديقي: «لا أحد طلب منك هذا». إلا أنه هو أيضاً لم يرتح كثيراً للفكرة. إننا ما إن رأينا رجلاً غير مؤذ في سلوكه ومسالماً وأشبه بطفل ولا يزال يعيش حالة من البراءة حتى أصبح أشد نشاطاتنا ضرورة واستحقاقاً للمديح حمقاء ومثيرة للاشمئزاز ـ باه ـ يا لكل هذه الدماء! لقد كنا خجلين من نفسينا. ولكن في الحرب لا بد أن يوجد قائد ما يشعر مثلنا.

قالت دورا مناشدة: «دعونا لا نمكث هنا أكثر من ذلـك. فلننزل. لا بد أن نعثر على شيء من الطعام في السيارات. ألستما جائعينْ، أيها البلشفيان؟».

في البلدة المحترقة في أسفل الـوادي بـدأت النواقيس تجلجـل برعب ضار. وصممنا على الهبوط. وبينما أن أساعد دورا علـى اجتيـاز المـتراس المرتجل، قبَّلت ركبتها. فضجَّت بالضحك، ثم انهـارت الألـواح الخشـبية فوقعنا معاً على بقعة أرض خالية.



مرة أخرى وجدتني واقفاً في الرواق المستدير، وإثارة مغامرة الصيـد تستولي عليّ. وكان قد كتب في كل مكـان علـى كـل الأبـواب الغفـيرة العبارات الجاذبة التالية:

موتابور

التحول إلى أي حيوان أو نبات وحسب الرغبة

كاماسوترام

إرشادات في فنون الحب الهندي ـ دورة للمبتدئين،

إثنان وأربعون وسيلة وتمرين مختلفة.

الانتحار اللذيذ

إضحك حتى تتمزق أشلاءً

أتريد أن تتحول بأكملك إلى روح؟

عليك بحكمة الشرق.

انهيار الغرب
أسعار معتدلة ـ لا تُنافس

الوافي في الفن
التحول من الزمن إلى الفراغ
بواسطة الموسيقى.

الدموع الضاحكة
غرفة الفكاهة

تيسير العزلة
استبدال كافة أشكال حب الاختلاط.

كانت سلسلة الاعلانات لا حصر لها. وأحدها قال:

المرشد في بناء الشخصية
النجاح مضمون.

وقد بدا لي هذا الأخير يستحق الاطلاع على ما ورائه فدخلت هذا الباب.

وجدتني في غرفة شبه معتمة وهادئة ورجل مع ما يشبه رقعة شطرنج كبيرة موضوعة أمامه جالس على الطريقة الشرقية على الأرض. للوهلة الأولى حسبت أنه الصديق بابلو. على أي حال كان يرتدي سترة حريرية فخمة مشابهة وله العينان السوداوان المشرقتان نفساهما.

«أأنت بابلو؟».

أجاب بلهجة ودية: «أنا لست أحداً. لا أسماء لنا هنا، ونحن لسنا أشخاصاً. أنا لاعب شطرنج. أترغب بتلقي إرشادات في بناء الشخصية؟».

«نعم، من فضلك».

«إذن تلطّف وضع حفنة من قطعك تحت تصرفي».

«قِطعي؟».

«من القطع التي ترى فيها ما تسميه شخصيتك المحطمة. أنا أستطيع أن ألعب بدون قطع».

وضع مرآة أمامي ورأيت من جديد وحدة شخصيتي المحطمة إلى ذوات عديدة بدا أن عددها قد ازداد. إلا أن القطع كانت قد أضحت صغيرة جداً، حجمها يقترب من حجم البيادق. أخذ اللاعب حفنة منها بين أصابعه الهادئة والواثقة ووضعها على الأرض، بالقرب من رقعة الشطرنج. ولما فعل ذلك بدأ يتكلم بنبرة رتيبة كمن يتلو أو يقرأ شيئاً واعتاد أن يفعل ذلك غالباً.

«أنت تعرف الفكرة الخاطئة أو المؤسفة التي تقول إن الإنسان يشكل وحدة باقية. وتعرف أيضاً أن الإنسان يتألف من حشد من الأرواح، من عدد غفير من الذوات. وانفصام الشخصية إلى هذه القطع الغفيرة يؤدي إلى الجنون. وقد ابتكر العلم لهذه العملية اسم الشيزوفرينيا (انفصام الشخصية). والعلم في هذا محق حتى الآن طالما أنه لا يمكن التعامل مع أي تعددية إلا إذا توفر تسلسل، أو نظام وتصنيف معينين. وهو مخطئ طالما إنه يعتبر أنه لا يوجد إلا نظام واحد ومُلزِم ودائم ممكن للتعامل مع تعددية الذوات الثانوية. إن هذا الخطأ الذي يرتكبه العلم له عواقب كثيرة سيئة، وميزة وحيدة هي تبسيط عمل القساوسة والمربين المعيَّنين من قبل الدولة وإعفائهم من مشقة التفكير المبدع. ونتيجة لهذا

الخطأ يُعتبر العديد من الأشخاص طبيعيين، بل وأعضاءً ذوي قيمة عالية في المجتمع، وهم في الحقيقة مجانين ميؤوس منهم. ومن ناحية أخرى هناك عديدون يُعتبرون مجانين وهم عباقرة. وعليه فنحن نكمل نقص علم نفس العلم بالمفهوم الذي نسميه فن بناء الروح. إننا نبيِّن لكل منْ تفتتت روحه قِطعاً أن في إمكانه أن يعيد ترتيب هذه القطع التي تخص روحاً سابقة بأي ترتيب يشاء، فيصل بهذا إلى عدد لا يحصى من النقلات في لعبة الحياة. وكما يؤلف الكاتب المسرحي دراما من حفنة من الشخصيات، كذلك نبني نحن من قطع الذات المفتتة مجموعات جديدة تماماً، وبتفاعل وتشويق جديدين تماماً، وبأوضاع جديدة تماماً لا تنضب أبداً. أنظر».

بلمسة واثقة وصامتة من أصابعه الماهرة أمسك بقطعي، بكل العجائز والشبان والأطفال والنساء، المرحين منهم والحزانى، الأقوياء منهم والضعفاء، الرشيقين والبلداء، ورتبهم بسرعة على رقعته استعداداً للَّعب. وللتو تشكلوا مفرزات وفصائل، وأعدوا خططاً ومعارك، وعقدوا صداقات وعداءات، مكونين بذلك عالماً صغيراً وحدهم وبدون مساعدة. وترك هذا العالم الذي يضج بالحياة ولكن المنظَّم أيضاً بعض الوقت كي يمر بتحولاته أمام عيني المفتونتين لهواً وكفاحاً، يقيم المعاهدات ويخوض المعارك، يتودد، يتزوج ويتناسل. لقد كان بحق خشبة مسرح تغص بما عليها، ودراما متحركة لا تهدأ.

ثم مرَّر يده بسرعة فوق الرقعة وجرف برفق كل القطع وكوَّمها. ومن ثم أنشأ، متأملاً وببراعة فنان، لعبة جديدة من القطع نفسها بتقسيمات، وعلاقات، وتشابكات مختلفة كل الاختلاف. وكان للعبة الثانية صلة وثيقة بالأولى، فقد كان العالم نفسه بُني من المواد نفسها، لكن

السمة المميزة اختلفت، والزمن تغير، والدافع أُطلق بشكل مختلف والأوضاع قدِّمت بطريقة مختلفة.

بهذه الطريقة راح المهندس الماهر ينشئ اللعبة تلو اللعبة من الأشكال التي كان كل منها يؤلف جزءاً مني، وكان كل منها يختلف كل الاختلاف عن الأخريات، وكل منها ينتمي بشكل ملحوظ إلى العالم نفسه ويعترف بأصلٍ مشترك. ومع ذلك فكل منها كان جديداً تماماً.

قال بأسلوب أستاذ مدرسة: «هذا هو فن الحياة. إنك قد تطور لعبة حياتك، وتبث فيها الحيوية. قد تعقّدها وتغنيها كما تشاء. فهي رهن يديك. وكما أن الجنون، بالمعنى الأرقى للكلمة، هو بداية كل حكمة، كذلك الشيزوفرينيا هي بداية كل فن وكل خيال جامح. حتى المثقفين توصلوا جزئياً إلى هذه المعلومة، كما يمكن أن نفهم، مثلاً، من "الأمير فوندر هورن"، ذاك الكتاب الساحر، الذي يخلّد كد رجل مثقف وجهوده، بمساعدة عبقرية عدد من المجانين والفنانين عُزلوا بسبب ما هم عليه. هاك، خذ قطعك الصغيرة معك. سوف تمنحك اللعبة المتعة غالباً. والقطعة التي تتعاظم اليوم لتصبح بحجم بعبع بغيض، سوف تحطمها غداً لتغدو مجرد شخص تافه. وسندريلا التعيسة ستصبح في اللعبة التالية الأميرة. أتمنى لك أقصى متعة، يا سيدي العزيز».

انحنيت انحناءة كبيرة للاعب الشطرنج الموهوب، ووضعت القطع الصغيرة في جيبي ثم انسحبت عائداً من الباب الضيق.

كان في نيتي أن أجلس من فوري على أرض الرواق وأظل ألعب اللعبة ساعات طوال، بل إلى الأبد، ولكن ما أن خرجت إلى الضوء الساطع لممر المسرح الدائري حتى وجدتني مدفوعاً بتيار لا يقاوم لمواصلة المسير. ثم ومض أمامي ملصق مبهر يقول:

أسلوب رائع لترويض ذئب السهوب

تلاطمت انفعالات مختلفة داخلي لمرأى هـذا الإعـلان. وأخـذ قلـبي يتعرض لتقلصات مؤلمة سببها كافة صنوف الخـوف والقمـع مـن حيـاتي السابقة والواقع الذي خلفته ورائي. فتحت الباب بيد مرتعشـة فوجدتـني على خشبة مسرح بائسة. وعلى الخشبة رأيت مروض وحوش ـ هو بـائع سلع رخيصة يتخذ هيئة نفاجة ـ على الرغم من شاربه الكبـير وعضـلات ساعديه الضخمة وزي السيرك السخيف الذي يرتديه كان له شبه خبيث ومقيت بلا جدال بي. وكان الرجل يقود ـ بصـورة تدعـو إلى الأسـى ـ ذئباً ضخماً وجميلاً ولكنه هزيل جداً برسن وكأنه كلب، كانت تطل من عينيه نظـرة مختلسـة ومذعـورة، وكـان مشـهد هـذا المـروض القاسـي للوحوش، المثير للاشمئزاز بقدر ما هو آسر، والفظيع بقدر ما يوفر تسـلية سرية، وهو يُخضع الحيوان الضـاري النبيـل وأيضـاً المطيع بصـورة مذلـة لسلسلة من الخدع والحركات المذهلة.

على أية حال، لقد طوّع الرجل، شبيهي المشـوه بصـورة شـيطانية، ذئبه بشكل رائع. وأصبـح الذئـب ينتبـه بإذعـان لكـل أمـر، ويستجيب ككلب لكل نداء ولكل فرقعة سوط. وكان يركع على ركبه، ويتظـاهر بالموت وأيضاً يقلّد سيده، فيحمل رغيف خبز، أو بيضة، أو قطعـة لحـم، أو سلة بفمه بإذعان مرحٍ، بل لقـد كـان عليه أن يلتقـط السـوط الـذي تركه المروِّض يسقط منه وحمله إثر ذلك بأسنانه وهو يهز ذيله بخنـوع لا يطاق. ثم وُضع أمامه أرنب ثم حَمَـل أبيـض. فكشـر عـن أنيابـه، بحق، وأخذ لعابه يسيل من فمـه وهـو يرتعـش رغبـة، لكنـه لم يلمـس أيـاً مـن الحيوانـين، وفـور سماعـه كلمـة آمـرة قفـز عليهمـا قفـزة رشـيقة، وهمـا جالسان علـى الأرض منكمشـين يرتعشـان خوفـاً. بـل لقـد جلـس بـين الأرنب والحمل وعانقهما بمخلبيه الأماميين ليشكلوا معـاً مجموعـة عائليـة مؤثرة، وأخذ في الوقت نفسه يأكل قضيباً من الشكولاة من يد الرجـل.

لقد كانت موجعة مشاهدة المدى العجيب الذي وصل إليه تعلُّم الذئب أن يناقض غريزته، ووقفته هناك وقد انتصب شعر رأسي.

إلا أنه كان هناك بعض التعويض للمراقب المرتعب وللذئب نفسه معاً، وذلك في الجزء الثاني من البرنامج. فبعد هذا العرض الراقي لترويض الحيوانات، وبعد أن ينحني الرجل ذو ابتسامة النصر المخناءة انتصاره في جمع الذئب مع الحمل، تُعكس الأدوار. إذ فجأة يضع شبيهي صاحب العرض سوطه بكل وقار عند قوائم الذئب ويضطرب وينكمش ويصبح بائس الحال كما كان الذئب من قبل. أما الذئب فأخذ يلعق فمه مكشراً، وقد اختفى ارتباكه ورياءه، واتقدت عيناه، وتوتر جسمه وأظهر الابتهاج الذي شعر به لدى استرجاعه غريزته الوحشية.

ثم تولى الذئب إصدار الأوامر وأطاع الرجل. وكان على الرجل عند كل أمر أن ينخ على ركبتيه، ويدلّي لسانه ويمزق ملابسه بأسنانه الحادة. وكان يمشي على قدمين أو على أربع كما يأمره الذئب، ويقلد البشر، ويتمدد كأنه ميت، ويدع الذئب يركب على ظهره ويلاحقه بالسوط. وكان يرضخ بفرح خليق بكلب لكل إذلال وتحريف لطبيعته. ودخلت فتاة جميلة إلى خشبة المسرح، واقتربت من المروِّض، فداعبت ذقنه وحكّت وجنتها بوجنته، لكنه ظل رابضاً على قوائمه الأربعة، وظل حيواناً. هز رأسه، وأخذ يبرز أسنانه للمخلوقة الفاتنة - إلى أن أخذ يفعل ذلك مهدداً على طريقة الذئب، ففرت هاربة. ووضعت الشوكولاة أمامه، لكنه أخذ يشمها بامتعاض ثم أبعدها عنه بخطمه. وأخيراً أُحضر الحمل الأبيض والأرنب الأرقط السمين من جديد وقام الرجل الطيِّع بآخر حركاته ولعب دور الذئب بشكل مسلٍ جداً. وقبض على المخلوقين الزاعقين بأصابعه وبأسنانه، ومزقهما إرباً، وراح يمضغ اللحم الحي مكشراً ويجرع منتشياً دمها الدافئ وهو مغمض العينين في استمتاع حالم.

اتجهت صوب الباب يملؤني الرعب واندفعت خارجاً. لقد كان جلياً أن هذا المسرح السحري ليس فردوساً. فتحت سطحه الجذاب يكمن جحيم كامل. آه، يا إلهي، حتى هنا لا توجد وسيلة للتحرر؟.

رحت أركض في هذا الاتجاه وذاك يتملكني الخوف، وأنا أحمل معي مذاق الدم والشوكولاة في فمي، وكل منهما مقزز للنفس أكثر من الآخر. وكان كل ما رغبت فيه أن أبتعد قدر ما أستطيع عن موجة التقزز هذه التي غمرتني. ورحت أتصارع مع نفسي سعياً وراء مزيد من الصور المقبولة أكثر، والودية أكثر. وكان نشيد "آه يا أصدقائي، لا تغنوا هذه الألحان[1]!" يتردد في ذهني، وتذكرت وأنا مرعوب تلك الصور الفوتوغرافية الفظيعة عن الجبهة ويراها المرء أحياناً خلال الحرب ـ تلك الأكوام من الجثث المتشابكة معاً، التي تحولت وجوهها إلى غيلان مكشرة وهي تضع أقنعة الغاز. ما كان أشد حمقي وسخافتي، وأنا ذو العقل الإنساني المناهض للحرب، إذ ينتابني الرعب جراء النظر إلى تلك الصور. واليوم أعرف أنه ليس هناك أي مروّض للوحوش أو قائد حربي، أو مجنون يستطيع أن يستحضر فكرة أو صورة في ذهنه أعجز أنا عن أن أتكيف مع مثلها لا تقل عنها إثارة للرعب، ووحشية وخبثاً، وفظاظة وحمقاً.

تذكرت بارتياح غامر الملاحظة التي رأيتها أول ولوجي المسرح، تلك التي زعق ذاك الفتى اللطيف وهو يقرأها:

كل الفتيات تحت تصرفك

---

[1] هو نشيد الفرح الذي ألّفه الشاعر الألماني شيللر، واستخدمه الموسيقار الألماني بيتهوفن في سمفونيته التاسعة. ـ المترجم.

وبدا لي بشكل عام أنه لا يوجد بحق ما يضاهي هذه الدعوة في جاذبيتها وقد أبهجني أيما بهجة أن أكتشف أن في مقدوري أن أهرب من عالم الذئب الملعون ذاك، ومن ثم دخلت.

قابلني عبير فصل الربيع. لقد كان يكتنفني جوهر جو الفتوة والشباب المألوف بعمق والأسطوري أيضاً، وتدفقت في عروقي دماء تلك الأيام. وكل ما كنت قد فعلته وفكرت فيه وكنته منذ ذلك الحين غادرني وعدت شاباً من جديد. وكنت قبل ساعة، بل حتى قبل بضع دقائق، أفتخر بمعرفتي الحب والرغبة والتوق، إلا أنه كان حب وتوق رجل كهل. والآن ها قد عدت شاباً وتيار النار المتوهج ذاك الذي كنت أشعر به يتغلغل داخلي، هذا النبض الحار، هذا الشغف المتدفق كتلك الرياح التي تهب في شهر آذار وتذيب الثلوج، كان شاباً وجديداً. يا لذاك اللهب الذي كنت قد نسيته كيف طفر إلى الوجود ثانية، وما أشد رهبة ترجيع أصوات الماضي! كان دمي يغلي وتفتّح وأزهر وهتفت روحي بأعلى صوتها وغنت. كنت فتى في الخامسة عشرة ورأسي محشواً باللغتين اللاتينية واليونانية وبالشعر. كنت متقداً بالطموح وكان خيالي مثقلاً بأحلام الفنان. ولكن ما كان أشد عمقاً من كل ذلك وأقوى وأقسى، ويتلظى ويمور داخلي فلهبُ الحب، والجوع إلى الجنس، وحمى الرغبة ونذيرها.

كنت واقفاً على أنف التلال المطلة على البلدة الصغيرة التي أعيش فيها. وكانت الريح تعبق بعبير الربيع والبنفسج وتتغلغل في شعري المرسل. وفي الأسفل داخل البلدة رأيت لمعان مياه النهر ونوافذ بيتنا، وكل ما رأيت وسمعت وشممت غمرني، بنضارةٍ وكأنه يخرج إلى الوجود لتوه، وبتألقِ عمقِ اللون، تُأرجحهُ ريح الربيع ليمر بتحولات سحرية، تماماً كما كنت قد نظرت إلى العالم بعيني الشباب ــ الشباب الأول والشعر الأول. وبيدي

سارحةٍ انتزعت ورقة برعم نصف متفتح من شجيرة حديثة الاخضرار. تأملتها وشممتها (ومع الرائحة عاد كل ما يتعلق بتلك الأيام متوهجاً) ثم وضعتها بين شفتيّ، شفتين لم تكن أي فتاة قد قبّلتهما بعد، وأخذت أمضغها عابثاً. ومن مذاقها الحامض والحريف العطري عرفت للتو وبدقة ما ذاك الذي كنت أعايشه من جديد. لقد عاد إليّ كل شيء، كنت أعيش من جديد ساعة من سنوات فتوتي الأخيرة، بعد ظهر يوم أحد في أوائل الربيع، اليوم الذي قابلت فيه روزا كرايزلر وأنا أتمشى وحدي وحييتها بحياء شديد وعشقتها حتى الجنون.

جاءت، في ذاك النهار، وحدها ترتقي حالمة التل باتجاهي. لم تكن قد رأتني وملأني مرآها وهي تقترب بالخوف والترقب. رأيت شعرها، مربوطاً على شكل ضفيرتين ثخينتين، مع جديلتين على كل جانب، والريح تداعب وجنتيها. رأيت لأول مرة في حياتي كم كانت جميلة، وكم كان جميلاً وشبيهاً بالحلم عبث الريح بشعرها الناعم، وكم كان جميلاً ومثيراً انسدال ثوبها الأزرق الهفهاف على أعضائها البضة، وتماماً كما غمرتني النكهة الحريفة للبرعم الممضوغ بكامل بهجة الربيع، وألمه المخيفين، كذلك ملأني مرأى الفتاة بكامل نذير الحب القاتل، بنذير امرأة. تلك اللحظة كانت تنطوي على صدمةِ احتمالاتٍ ووعودٍ هائلةٍ وتحذيرها، وبهجة مبهمة، وارتباكات، وألم، ومعاناة، تعصى على الوصف، على أوغلِ تحررٍ وأعمقِ شعورٍ بالذنب. آه، ما كان أشد حرافة مذاق الربيع المر على لساني! وكيف انسابت الريح عابثة تتغلغل في الشعر المنسرح حول وجنتيها الورديتين! ثم أضحت قريبة. رفعت بصرها وعرفتني. تضرجت قليلاً برهة ونظرت إلى الناحية الأخرى. ولكن عندما خلعتُ قلنسوة المدرسة، سرعان ما تمالكت نفسها ثم رفعت رأسها، وردّت على تحيتي بابتسامة ناضجة تماماً. ومضت في

طريقها، وقد سيطرت على الموقف سيطرة تامة، فأرسلت خلفها هالة من ألف رغبة، وأمنية، وهيام.

هذا ما حدث ذات يوم أحد قبل خمسة وثلاثين عاماً وكل ما كان قد حدث استعدته في تلك اللحظة. التل والبلدة، ريح آذار والمذاق الزميل، وروزا وشعرها البني وجيشان الرغبة وخنق الألم العذب. كل شيء كما كان عندئذ، وبدا لي إنني لم أعشق أحداً في حياتي مثلما عشقت روزا في ذاك النهار. ولكن هذه المرة أتيح لي أن أحبيها في مناسبة أخرى غير تلك. رأيت تضرجها خجلاً عندما تعرّفتْ عليّ، والجهد الذي بذلته لتخفيه، وأدركت على الفور أنها تميل إليّ وأن هذا اللقاء يعني لها بقدر ما يعني لي. وفي هذه المرة بدل أن أكتفي بالوقوف بشكل مهذب وقلنسوتي في يدي إلى أن تتجاوزني وتبتعد، قمت، على الرغم من الألم الذي يقارب الهاجس، بما أمرني دمي أن أقوم به. هتفت: «روزا! الحمد لله إنك جئت، أنت فتاة جميلة، جميلة. وأنا أحبك حباً جماً». لعل قولي لم يكن ألمع ما قيل في هذا المجال في تلك اللحظة، إلا أنه لم يكن ثمة حاجة إلى التألق عندئذ، وكان ذلك يكفي ويزيد. و لم تتخذ روزا هيئة البالغين، و لم تتابع طريقها. بل توقفت ونظرت إليّ، وقالت وقد تضرجت وجنتيها أكثر من ذي قبل: «مرحباً هاري ـ أحقاً أنا أعجبك؟». وأضاءت عيناها البنيتان وجهها القوي التقاطيع، وبيّنتا لي أن حياتي الماضية وعلاقاتي العاطفية كلها كانت زائفة ومرتبكة ومفعمة بالتعاسة الحمقاء منذ تلك اللحظة من بعد ظهر يوم أحد عندما تركت روزا تتجاوزني وتمضي. أما الآن فقد تم تصحيح الخطأ الفاضح، وسار كل شيء بشكل مختلف وعلى أحسن ما يرام.

تشابكت أيدينا، وسرنا الهوينا يداً بيد تغمرنا السعادة والارتباك. لم نكن ندري ماذا نفعل أو نقول، لذا رحنا نسرع خطانا باضطراد من

فرط ارتباكنا ومن ثم انطلقنا نركض، وظللنا نركض إلى أن انقطعت أنفاسنا واضطررنا إلى التوقف تماماً. لكن يدينا بقيتا متماسكتين. لقد كنا ما نزال طفلين ولم ندر بالضبط ماذا نفعل معاً. في يوم الأحد ذاك لم نتبادل حتى القُبَل، لكننا كنا سعيدين سعادة تفوق الوصف. توقفنا لنلتقط أنفاسنا. ثم جلسنا على العشب ومسّدت على يدها بينما كانت تمرر اليد الأخرى بحياء على شعرها. ومن ثم عدنا فنهضنا واقفين وحاولنا أن نعرف من منا الأطول قامة. في واقع الأمر كنت أنا الأطول قامة بمقدار عرض إصبع، لكني لم أبيّن ذلك. وأكّدتُ لها إننا متعادلان في الطول وإن الله قد خلق كلاً منا للآخر وإننا فيما بعد سنتزوج. ثم قالت روزا إنها شمت عبير زهر البنفسج فركعنا على عشب الربيع القصير ورحنا نبحث عنه حتى عثرنا على بعض السيقان القصيرة فأعطيتها ما وجدته وأعطتني ما وجدته هي. ولما بدأ الجو يبرد والشمس تميل نحو المغيب من فوق الجروف، قالت روزا إن عليها أن تعود إلى البيت. وعلى الأثر انتاب الحزن كلينا، فلم أجرؤ على مرافقتها. غير أننا كنا نتقاسم سراً وكان أغلى ما نملك. وبقيت عند الجروف وانبطحت على حافة المنحدر الشاهق أستشرف البلدة وأراقب قامتها الصغيرة الحلوة لتظهر بعيداً في الأسفل. فرأيتها تتجاوز النافورة وتعبر الجسر. ثم عرفت إنها قد وصلت إلى بيتها وإنها تنتقل من غرفة إلى أخرى، وأنا أستلقي هناك بعيداً عنها، ولكن كان هناك رابط يصل ما بيننا. تيار واحد يسري في كلينا وسرٌّ يتنقل بيني وبينها.

تكررت لقاءاتنا في أماكن متفرقة طوال فصل الربيع، تارة على الجروف، وأخرى على سياج الحديقة، وعندما بدأ زهر الليلك يتفتح تبادلنا أول قُبلة حيية. وكان نادراً ما يتبادل الأطفال مثلنا أي هبات وكانت قبلتنا تفتقر إلى الحرارة والإشباع. ونادراً ما غامرت بلمس

ضفيرتي شعرها المحيطتين بأذنيها. لكن كل الحب والفرح الذي كان فينا كان ملكنا. كانت عاطفة خجلى والعهد الذي تعاهدنا عليه كان لا يزال سابقاً لأوانه، لكن تلك الرعاية الخائفة لكل منا للآخر عرّفتنا إلى سعادة جديدة. وارتقينا درجة واحدة على سلّم الحب. وهكذا، بدءاً من روزا والبنفسج، عشت من جديد كل علاقات الحب التي مررت بها في حياتي ـ ولكن في ظروف أفضل. فقدتُ روزا، وظهرتْ "إرْمغاد" وكانت الشمس أشد حرارة والنجوم أقل ثباتاً، لكن حبي لـ "إرْمغاد" لم يكن يفوق حبي لروزا. كان لا بد أن أرتقي السلم درجة درجة. كان أمامي الكثير لأعايشه والكثير لأتعلمه، وكان لا بد أن أفقد إرمغاد وآنا أيضاً. وكل فتاة كنت قد أحببتها في شبابي، أحببتها من جديد، لكني الآن أصبحت قادراً على أن أُهِبَ الحب في كل منهن. كان هناك شيء استطعت أن أمنحه لكل منهن، شيء بات في إمكان كل منهن أن تمنحه لي. والرغبات، والأحلام، والاحتمالات التي لم تكن ذات يوم تجد لها حياة إلا في مخيلتي أضحت الآن تعيش على أرض الواقع. مررن من أمامي كأزهار جميلة، "إدا" و"لورا" وكل من أحببت مدة صيف، أو شهر، أو يوم.

ها أنا ذا الآن، كما أدركت، قد أضحيت فتى على قدر من الوسامة والاتقاد رأيته يندفع بلهفة شديدة نحو باب الحب. كنت أعيش فقط جزءاً صغيراً من ذاتي ـ جزء صغير لم يُعبَّر عنه في حياتي الواقعية ووجودي ولا بمقدار عُشر أو واحد على ألف من الجزء، وكنت أعيشه حتى الثمالة. أراقبه ينمو بدون أي إزعاج من أي جزء آخر مني. لم يشوّشه المفكّر، ولا عذّبه ذئب السهوب، ولا قزّمه الشاعر، الرؤيوي، ولا المعلم الأخلاقي. لا ـ لم أكن عندئذ غير عاشق و لم أتنفّس أي سعادة أخرى ولا عانيت إلا ألم الحب. كانت "إرمغاد" قد علمتني الرقص

وعلمتني "إدا" كيف أقبِّل، وكانت "إمّا"، أجملهن جميعاً، هي أول من قدَّمت لي ثدييها، في أمسية خريفية تحت شجرة درداء تتهادى، لأقبّلهما وكأس الرغبة المترع لأجرعه.

لقد عايشت الكثير في مسرح بابلو الصغير ولا يمكن التعبير بالكلام حتى عن جزء من ألف منه. كل الفتيات اللواتي أحببتهن كن لي. كل منهن منحتني ما لا تستطيع إلا هي أن تمنحه ومنحت أنا كلاً منهن ما لا تعرف إلا هي كيف تأخذه. وكان من نصيبي الكثير من الحب، الكثير من السعادة والكثير من الانغماس في الأهواء، والكثير من الحيرة، أيضاً، والمعاناة. كل الحب الذي افتقدته خلال حياتي أزهر كما السحر في حديقتي خلال ساعات الحلم تلك. كان فيها أزهار طاهرة رقيقة، وأخرى صارخة الألوان مزعجة الوهج، وأزهار قاتمة تذبل ببطء. كان فيها الشهوة المستعرة، والفكر الحالم الرقيق، والسوداوية المتقدة، والاحتضار المؤلم، والولادة المشعة. وجدت نساء لا يمكن نيلهن إلا عنوة وأخريات من الممتع التودد إليهن ونيلهن بالتدريج. وكل ركن معتم من حياتي ناداني فيه، لو برهة من الزمن، صوت الجنس، ونظرة خاطفة مثيرة من امرأة أو وميض بشرة فتاة بيضاء أغواني، برز من جديد وكل ما كان قد افتُقد عُوِّض. كلهن كن ملكي، وكلٌ على طريقتها الخاصة. والمرأة ذات العينين البنيتين الغامقتين الرائعتين تحت الشعر البني الشاحب كانت هناك. وقفت إلى جوارها مدة ربع ساعة في رواق قطار سريع وبعد ذلك كثيراً ما ظهرت لي في أحلامي. لم تفه بأي كلمة، لكن ما علمتنيه في فن الحب كان فوق التصور، ومخيفاً، ومهلكاً. والصينية الدمثة، الهادئة، من مرفأ مارسيليا، بابتسامتها الناعمة، وشعرها الأملس الحالك السواد والعينين الرقراقتين ـ هي أيضاً كانت تعرف أموراً لا ترِد حتى في الأحلام. كان لكل واحدة سرها وشذى تربتها. كل واحدة

قبّلت وضحكت بأسلوبها الخاص بها، وبطريقتها المميزة كانت مشينة وبطريقتها الخاصة وقحة. كن يتوافدن ويرحلن. كان التيار يحملهن إليّ ويجرفني إليهن ويعيدني. كنت طفلاً في تيار الجنس ألهو وسط كل سحره، وخطره، ومفاجآته. وقد أدهشني أن أكتشف مدى غنى حياتي - حياة ذئب السهوب، التي تبدو ظاهرياً شديدة الفقر وخالية من الحب - في ظل فرص الحب ومغرياته. كنت قد افتقدتها. وهربت منها. وتعثرت بها. وأسرعت في نسيانها. ولكن ها هي جميعاً مخزّنة بأعدادها الغفيرة، ولم تُفقد واحدة منها. والآن وقد شاهدتها استسلمت لها وأنا أعزل وغصت داخل شفق عالمها السفلي الوردي. حتى تلك الغواية التي كان بابلو قد دعاني إليها عادت إلي من جديد، وهناك أخرى من مرحلة مبكرة، لم استوعب أياً منها في حينه، هي ألعاب غريبة يؤديها ثلاثة أشخاص أو أربعة، أسرتني وأنا أضحك بمرحها. أمور كثيرة حدثت وألعاب عديدة لُعبت تعجز الكلمات عن وصفها.

عندما ارتفعتُ من جديد إلى سطح تيار الغواية، والشر والتنوير اللانهائي، كان يرين علي الهدوء والصمت. كنت مجهزاً، متوغلاً عميقاً في المعرفة، وحكيماً، وخبيراً - كنت مبتعداً وجاهزاً لهرمينه. وقد برزت كآخر شكل في حشدي الميثولوجي المزدحم، آخر رسم لقصة الحب الخيالية هذه، إذ لم ارغب في أن أقابلها في عتمة المرآة السحرية هذه. إنني أنتمي إليها ليس فقط بوصفي هذه القطعة الواحدة في لعبة الشطرنج - بل أنتمي إليها بكليتي. أوه، كم أود الآن أن أنشر القطع في لعبتي التي تتمركز كلها فيها وتفضي إلى الانجاز.

كان التيار قد جرفني إلى الشاطئ. ومن جديد وجدتني واقفاً في ممر المسرح الذي يلفه الصمت. والآن ماذا؟ تحسست الأشكال الصغيرة القابعة في جيبي - لكن هذا الحافز كان قد خبا. وكان يحيط بي عالم

الأبواب، والملاحظات، والمرايا السحرية الذي لا ينضب. وقرأت بفتور أول كلمات لمحتها عيناي، فارتعشت:

كيف تقتل لأجل الحب

هذا ما كان مكتوباً.

ارتسمت بسرعة البرق صورة على جدار ذاكرتي باهتزازة عنيفة وبقيت مرسومة برهة. كانت صورة هرمينه جالسة على مائدة في مطعم، وفجأة تركت النبيذ والطعام، وغرقت في لجة من الكلام، وبدت على وجهها علائم جدية مفزعة وهي تقول إن نصب عينيها هدف واحد من وراء جعلي عشيقاً لها، وإنها سوف تموت على يدي. فاجتاحت قلبي موجة ثقيلة من الألم والسواد. وإذا بكل شيء فجأة يواجهني مرة أخرى. وفجأة عصر قلبي من جديد إحساس بآخر نداء من القدر. وتحسست في جيبي عبثاً بحثاً عن الأشكال الصغيرة حتى أتمكن من ممارسة بعض السحر وأعيد ترتيب تخطيط الرقعة. ولكن الأشكال اختفت. وبدلاً عنها أخرجت سكيناً. ورحت وأنا في حالة رعب قاتل أجري على طول الرواق، متجاوزاً كل الأبواب. ثم توقفت أمام مرآة عملاقة. ونظرت فيها. فإذا بي أرى فيها ذئباً جميلاً يبلغ قامتي واقفاً هناك. كان ساكناً، يرمقني بحياء بعينيه القلقتين. وبينما هو ينظر إلي شذراً، إذا بعينيه تتقدان بالغضب ورسم تكشيرة صغيرة بحيث تباعدت شفتاه وكشفتا عن لسانه الأحمر.

ترى أين بابلو؟ أين هرمينه؟ أين ذاك الرجل الحاذق الذي راح يتحدث بشكل مسلٍ عن بناء الشخصية؟.

من جديد نظرت في المرآة. لقد مسّني الجنون. إذ لا وجود لأي ذئب في المرآة، يدلّي لسانه بين فكيه. لقد كان أنا، هاريَ. كان وجهي

شاحباً شحوباً مرعباً. إلا أنه كان ما يزال يمثل كائناً بشرياً، يمكن التحدث إليه.

قلت: «هاري، ماذا تفعل هناك؟».

قال الظاهر في المرآة: «لا شيء، فقط أنتظر. أنتظر الموت».

«وأين هو الموت؟».

قال الآخر: «قادم». وسمعت من المساحات الخاوية داخل المسرح أنغاماً موسيقية، موسيقى جميلة ومروعة، مأخوذة من أوبرا "دون خوان" والتي تعلن عن اقتراب الضيف الحجري. جلجلت في أرجاء دار المسرح المخيفة، مع قرقعة حديدية ورهيبة، قادمة من العالم الآخر. عالم الخالدين.

قلت في نفسي: «موتسارت» ومع هذه الكلمة استحضرت أجمل صورة تضمنتها حياتي الداخلية وأشدها استنهاضاً للروح.

على الأثر، اصطخبت خلفي نوبة ضحك، ضحك صاف وبارد كالثلج قادم من عالم ماورائي يجهله البشر، عالم من الآلام، من فكاهة مطهرة وقدسية وتلفتُّ فيما حولي، وقد جمدني نعيم هذا الضحك، وإذا بي أمام موتسارت. لقد تجاوزني وهو يضحك ومضى، وأثناء سيره المتئد فتح باب أحد المقاصير وولجه. فتبعت متلهفاً إله عهد شبابي، الذي كان على امتداد حياتي موضع حب وتبجيل. وظلت الموسيقى تجلجل. كان موتسارت يميل عبر مقدمة المقصورة. ولم يكن ظاهراً من المسرح أي شيء. وكان الظلام يغمر المساحة الشاسعة.

قال موتسارت: «أتعلم، ستكون على أحسن ما يرام بدون آلة الساكسفون ـ وإن كنت بلا ريب لا أتمنى أن أجرح مشاعر تلك الآلة الموسيقية الشهيرة».

سألته: «أين نحن؟».

«نحن في آخر فصل من أوبرا "دون خـوان". ليبوريللـو راكـع علـى ركبتيه. مشهد ممتاز، والموسيقى أيضاً، وبصـورة مـا، رائعـة. لا شـك في إنها غنية جداً، وإنسانية جداً، لكنك تستطيع أن تسمع العالم الآخر فيهـا ـ والضحك، هه؟».

قلت بأبهية أستاذ مدرسة: «إنها آخر أعظم موسيقى أُلِّفت قاطبـة. طبعاً بعد ذلك جاء شوبرت. وهوغو فولـف أيضـاً، ويجـب أن لا أنسـى أيضاً المسكين، المحبوب شوبان. أتعبس، يا مايسترو؟ آه، نعم، بيتهوفن ــ هو أيضاً رائع. ولكن كل هذه الموسيقى ــ علـى رغـم جمالها ـ تتصـف بشيء من العاطفية المفرطة، بشيء من الانحلال. إن عمـلاً بكمـال وقـوة أوبرا "دون خوان" لم يظهر بين البشر منذ ذلك الحين».

ضحك موتسارت، في نبرة سخرية مخيفـة: «لا ترهـق نفسـك هكـذا، أنت نفسك موسيقي، كمـا فهمـت. حسـن، لقـد تخليـت عـن هـذا العمـل واستقلت لأرتاح. وأنـا أطـل علـى المهنـة من وقـت لآخـر فقـط مـن بـاب التسلية».

رفع يديه وكأنه يقود فرقة موسيقية، وكأن قمـراً مـا، أو كوكبـة باهتة من النجوم، قد أشرقت. أرسـلت نظـري عـبر حافـة المقصـورة إلى أعماق المدى غير المحدودة. كان الضباب والغمام يغمران المكان، والجبـال وشواطئ البحر تومض، وامتد تحتنا سهل مقفر على مساحة العالم. وفي هـذا السهل رأينا سيداً عجوزاً يبدو عليه الوقار والاحترام، لـه لحيـة طويلـة، يسـير بكآبة على رأس طابور هائل من مـا يقـارب العشـرة آلاف رجـل متشـحين بالسواد، وهيئته تنم عن السوداوية واليأس، فقال موتسارت:

«أنظـر، هـا هـو برامـز. إنـه يكـافح لنيـل الخـلاص، لكـن ذلـك سيستغرق منه حياته كلها».

أدركت أن آلاف الرجال المتشحين بالسواد ما هم إلا عازفو تلك الأنغام والأجزاء من قِطَعِهِ الموسيقية التي كانت، وفقاً للأحكام القدسية، زائدة.

قال موتسارت وهو يومئ: «توزيعها الأوركسترالي مغالى في كثافته، وهناك هدر مسرف جداً في المادة الموسيقية».

على الأثر شاهدنا ريتشارد فاغنر يقود مسيرة حشد يعادل ذلك في كثافته، وشعرنا بضغط تلك الآلاف المتشبثة والملتصقة به. وراقبناه بدوره وهو يجر نفسه في سيره بخطى بطيئة تنم عن حزن.

علّقتُ بحزن: «في أيام فتوتي كان هذان الموسيقيان يمثلان أقصى ما يمكن تصوره من تناقض».

ضحك موتسارت:

«نعم، هكذا هو الوضع دائماً. إن النظر إلى مثل هذه التناقضات من مسافة قريبة، دائماً يبين تشابهها المضطرد، فالتوزيع الأوركسترالي المكثف على أي حال لم يكن يدل على نقطة ضعف سواءً في موسيقى فاغنر أم برامز. بل كانت غلطة زمنهما».

هتفت محتجاً: «ماذا؟ أكان عليهما أن يدفعا ثمن ذلك باهظاً جداً؟».

«هذا طبيعي. القانون يجب أن يتخذ مجراه. إذ لم يكن من الممكن أن يُعرف فيما إذا قد تبقّى لهما أي سمة شخصية تحسب لهما إلا بعد أن يسددا دَيْن زمنهما».

«لكن ذلك لم يكن ذنب أي منهما!».

«طبعاً ليس ذنبهما. ولا ذنب لهما في أن آدم أكل التفاحة ولكن مع ذلك كان لا بد لهما أن يدفعا الثمن».

«لكن هذا مريع».

«بدون شك. الحياة دائماً مريعة. ونحن لا ذنب لنا في هذا ومسؤولون في الوقت نفسه عنه. فحالما يولد المرء يغدو مذنباً من فوره. وإذا لم تكن تعرف هذا، فلا بد أنك قد تلقيت ثقافة دينية غير عادية».

عندئذ شعرت إني بائس بؤساً كاملاً. وجدتني أشبه بحاج مُستنزَف من فرط التعب، يجر نفسه عبر صحراء العالم الآخر، مثقلاً بحمل العديد من الكتب التي ألّفتها ولا لزوم لها، وبكل المقالات والمواد الصحفية المسليّة، يتبعني جيش من المنضّدين ومعهم الحروف المطبعية التي عليهم تنضيدها، وجيش من القراء عليهم ابتلاع كل ذلك. يا إلهي - وفوق كل هذا وقبله كان هناك آدم والتفاحة، وكامل الخطيئة الأصلية. إذن، فلا بد من تسديد كل ذلك الدَيْن. في مَطْهَرٍ أبدي. وعندئذ فقط يمكن أن أسأل إن كان قد بقي، بعد كل ذلك، أي شيء شخصي، أي شيء خاص بي، أو إن لم يكن كل ما أنجزته وكل نتائجه ليس إلا زبد بحري فارغ. وموجة صغيرة تافهة في فيض ما انتهى وانقضى.

ضحك موتسارت بصوت عال عندما رأى وجهي المكتئب. وراح يتشَقْلب في الهواء لإشاعة الضحك ويُوقّع بعقبيه توقيعات مرتعشة. وفي الوقت نفسه صاح قائلاً لي: «هيه، أيها الشاب، أتشعر بالندم يا رجل، وبانقباض في صدرك؟ أراك تفكر في قرائك، ناهشي الجثث، وفي كل أصحابك منضّدي الحروف الطباعية، المحرضين البائسين، وفي شاحذي الخناجر. يا لك من صارم عنيف، إنك تجعلني أضحك حتى يهتز جسمي ويتمزق بنطالي. آه أيها الساذج، الممل، الحزين. سأشعل لك شمعة، إذا كان هذا يريحك. ثرثر وبربر، ضع نظارة والبس أصفاداً، إغْلَق يا مسكين وهُزَّ ذيلك، فلن تحصل على ما تريد بالتردد. أتمنى أن يأخذك الشيطان ويقطعك شرائح ويجدلك إلى أن يكفيك ذلك من أجل كتاباتك وآرائك العفنة المنتحلة بشكل سيء».

إلا أني لم أحتمل هذا. و لم يُبقِ الغضب مكاناً للكآبة. فأمسكت بموتسارت من ضفيرته وإذا به ينطلق طائراً. وأخذت الضفيرة تستطيل كذيل المذنب وأنا أنطلق في طرفها. يا له من شيطان ــ الجو بارد في هذا العالم! إن أولئك الخالدين يحتملون الجو العالي النقاء والمصقع. ولكن مع ذلك كان ممتعاً ـ هذا الهواء المثلج. لقد عرفت هذا، حتى من خلال البرهة الوجيزة التي سبقت فقداني وعيي. وتملكتني بهجة حادة براقة ومثلجة ورغبة في أن أضحك بصوت ثاقب وعنيف وخارق كما كان موتسارت قد فعل. غير أن أنفاسي ووعيي خذلاني.



حين عدت إلى وعيي كنت منذهلاً ومصاباً برضوض. كان نور الرواق الأبيض يسطع منعكساً على الأرضية الصقيلة. لم أكن بين الخالدين، ليس بعد. كنت، كعهدي دائماً، على هذا الجانب من لغز المعاناة، من الرجال ـ الذئاب، والتعقيدات المعذّبة. إنني لم أعثر على بقعة سعيدة، لا مكان راحة دائم. لا بد لكل هذا أن ينتهي.

في المرآة العملاقة وقف هاري قبالتي. لم يبد عليه أنه في أحسن حالاته. ظهر تماماً كما كان قد فعل ليلة زار البروفيسور وأمضى ليله كله جالساً في حانة "النسر الأسود" والناس يرقصون. لكن ذلك كان في زمن غابر، قبل سنين، قبل قرون مضت. لقد كان قد تقدم في السن، وتعلم كيف يرقص، وقام بزيارة المسرح السحري، وسمع موتسارت يضحك. لم يعد الرقص والنساء والأمواس تثير فيه الرعب. حتى أصحاب المواهب العادية، إذا مُنِحوا بضع مئات من السنين، يبلغون النضج. أطلتُ التأمل في هاري في المرآة. مازلتُ أعرفه حق المعرفة، ومازال يحمل شبهاً بسيطاً

بالفتى ذي الخمسة عشر ربيعاً الذي كـان قـد قـابل ذات يـوم أحـد مـن شهر آذار روزا فوق الجروف وخلع قلنسوة المدرسة لها. ومع ذلك ومنذ ذلك الحين تقدم في السن بضـع قـرون. سـعى وراء الفلسـفة والموسـيقى وأُتخم من الحرب وشرب نبيذ إلزاسر في حانة "الخوذة الفولاذية" وتناقش حول كريشنا مع أناس ذوي ثقافة حقيقيـة. وقـد عشـق إريكـا وماريـا، وكان صديقاً لهرمينه، وتصيَّد السيارات، وضاجع الصينية الناعمة، وقابل موتسارت وغوته، وأحدث ثقوباً عديدة في نسيج الزمن وشقوقاً في قناع الواقع، على الرغم من أنه مازال سجينه. وعلـى فـرض أنـه فقـد صاحبـه لاعب الشطرنج الجميل، إلا أنه كـان مـايزال يحتفـظ بالموسـى الحـادة في جيبه. استمرْ إذن، يا هاري العجوز، أيها الوغد المتهالك العجوز.

باه، إلى الجحيم ـ ما أمرّ مذاق الحياة! بصقتُ على هاري في المـرآة، رفسته ونثرته شظايا. سرت بخطى بطيئة على طول الرواق التي تترجَّع فيه الأصداء، أُنعم النظر بعناية في الأبـواب بمـا تقدِّمـه مـن العـدد الغفـير مـن الوعود البراقة. لم يعد أي منها الآن يقدم إعلاناً. ورحت أتجاوز الأبـواب المئة كلها للمسرح المسحور. ألم يكـن ذاك هـو اليـوم الـذي ذهبـتُ فيـه لحضور حفلة الأزياء التنكرية؟ لقد انصرمت منذ ذلك الحين وحتـى الآن مئات السنين. وقريباً ستتوقف السنون كلهـا دفعـة واحـدة، ولكـن ظـلَّ هناك أمر واحد يجب علمه. كانت هرمينه تنتظرني. كان سيكون زواجاً غريباً، ودفعتـني إلى الأمـام موجـة مـن الحـزن العميـق، دفعتـني بوحشـة، مسترقّاً، إنساناً ـ ذئباً. باه، إلى الجحيم!.

توقفتُ عند آخر باب. لقد حملتني موجة الحزن حتـى هنـاك. آه يـا روزا! آه أيها الشباب الزائل! آه يا غوته! آه يا موتسارت!.

فتحته. وما رأيت كان لوحة بسيطة وجميلة. فعلى البساط الممـدود على الأرض كان يستلقي جسدان عاريان، هرمينه الجميلة وبابلو الجميـل

جنباً إلى جنب في حالة نوم عميق جراء الارهاق الشديد بعد ممارس
الحب. جسدان جميلان، جمالاً فائقاً، لوحتان ممتعتان، جسدان رائعا
وتحت ثدي هرمينه الأيسر كانت علامة مستديرة حديثة العهد، رض
غامقة اللون - إنها عضة الحب من أسنان بابلو الجميلة، اللامعة. وهنـ
حيث كانت العلامة، غرزتُ سكيني حتى الغمد. فانبجس الدم فو
بشرتها البيضاء والرقيقة. وكان يمكن أن أقبِّل الدم وألعقه كله لو أن ك
شيء قد حدث بشكل مختلف قليلاً. إلا أني في الواقع، لم أفعل. اكتفي
بمراقبة تدفق الدم، وراقبت عينيها وهما تفتحان برهة وجيزة تأ
وبتساؤل عميق. ترى، ما الذي يدفعها إلى التساؤل؟ ثم تبدَّى لي
عليّ أن أغمض عيني. لكنهما أُغمضتا ثانية من تلقاء ذاتهما. وهكذ
كل شيء. وتقلّبتُ قليلاً على أحد جنبيها، وبدءاً من تحت إبطها وح
ثديها رأيت ظلاً رقيقاً يعبث، وكأنه كان يرغب في أن يذكّرني بشي
لكني لم أتذكر. ثم استلقيت بسكون.

تأملتها مطولاً وأخيراً تنبَّهت مع ارتعاشة واستدرتُ لأبتعد.
رأيت بابلو يتمطى. رأيته يفتح عينيه ويتمطى بأطرافه ثم مال فوق ر
الفتاة وابتسم. قلت في نفسي، هذا الرجل لن يتعامل مع أي شيء بجد
إن أي شيء يدفعه إلى الابتسام. في هذه الأثناء طوى بابلو بحذر إحـ
زوايا البساط ودثّر بها هرمينه حتى صدرها بحيث أن الرضّة استتر
ومن ثم خرج بصمت من المقصورة. إلى أين كان ذاهباً؟ هل الجـ
يتركونني وحدي؟ بقيت في مكاني، وحدي مع جسدها نصف المغ
الذي أحببته - وحسدته. كان الشعر الصبياني يتدلى حتى يغطي الجـ
الأبيض. وأشرقت شفتاها الحمراوان على شحوب الموتى لوجهها المـ
وكانتا متباعدتين قليلاً ونشر شعرها عطره المرهف ومن خلاله ومض
الأذن الصغيرة الشبيهة بالصدفة.

لقد تحققت أمنيتها. فقبل أن تصبح لي بأي حال، كنت قد قتلتُ حبيبتي. لقد فعلتُ ما لا يصدق، وها أنا ذا أركع وأحدق ولم أفهم على الإطلاق ماذا يعني هذا العمل، ما إذا كان خيراً وصواباً أم العكس. ولم أعرف ماذا يمكن أن يكون تعليق لاعب الشطرنج الحاذق أو بابلو على هذا، ولم أكن قادراً على التفكير. توهجت أكثر حمرة الشفتين المرسومتين على الشحوب المتفاقم للوجه. هكذا كانت حياتي كلها. إن سعادتي الصغيرة وحبي كانا أشبه بهذا الفم البارد الصارخ، حمرةٌ قليلة على قناع الموت.

ومن الوجه الميت، من الكتفين الأبيضين الميتين والذراعين الأبيضين الميتين، زفرت رعشة وتسللت ببطء، برودة صحراوية وإقفار، صقيع ازداد ببطء، تخدرت فيه يداي وشفتاي. فهل أطفأتُ الشمس؟ هل أفرغت القلب من كل أثر للحياة؟ أم أن برودة الموت والفراغ كانت تقتحم وتتغلغل؟.

حدّقتُ وقد انتابتني هزةٌ إلى الحاجب المتحجّر والشعر المتصلّب ووميض الأذن الشاحب البارد. كانت البرودة المتدفقة منها هي برودة الموت. ومع ذلك كانت جميلة، تضج، وتتذبذب، كانت موسيقى!.

أما كنتُ شعرت بهذه الهزة مرة من قبل ووجدت أنها أيضاً فرح؟ أما كنت قد سمعت مرة من قبل هذه الموسيقى؟ نعم، مع موتسارت والخالدين.

خطرت أبياتٌ شعرية كنت قد صادفتها في موقعٍ ما ببالي:

نحن المرتفعون فوقكم باقون أبداً
في نجم الأثير ثلجاً شفافاً
لا نعرف نهاراً ولا ليلاً ولا تقطيع الزمن،

لا نبلى ولا نشيخ ولا جنس لنا،
وجودنا الأبدي بارد وثابت
ضحكنا الأبدي بارد وساطع كالنجم.

ثم فُتح باب المقصورة ودخل موتسارت. لم أتعرَّف إليه للوهلة الأولى، لأنه كان بدون ضفيرة، ويرتدي بنطالاً قصيراً وحذاءً بإبزيم، وبذلة حديثة. اتخذ له مجلساً لصيقاً إلى جواري، وكنت على شفا أن أرجعه إلى الخلف بسبب الدماء التي سالت على الأرض من صدر هرمينه. جلس هناك وبدأ ينهمك بآلةٍ ما وبأدواتٍ معينة كانت إلى جانبه. تناولها بكل جدية وأخذ يثبّت هذه ويشدُّ برغي تلك، وأنا أتفرج متعجباً من أصابعه البارعة والرشيقة، وتمنيت لو أنني أراها وهي تعزف على البيانو، ولو مرة واحدة. ورحت أتابعه وأنا أفكر، أو بالأحرى وأنا في حلم شارد، تائهاً في إعجابي بيديه الجميلتين والماهرتين، وأيضاً ابتهجت بإحساسي بوجوده مع شيء من الخوف. ولم أبالِ بما كان يفعله وبالشيء الذي كان يشد براغيه ويعالجه بمهارة.

إلا أني سرعان ما اكتشفت أنه قد أصلح جهاز راديو وأعاده إلى العمل، ثم أقحم مكبر الصوت وقال: «هنا إذاعة ميونيخ. نقدم إليكم كونشرتو غروسّو من مقام صول الكبير لهاندل».

كانت دهشتي ورعبي يفوقان الوصف عندما أخذ القمع المعدني الشيطاني، وللتو، يلفظ، بدون مزيد من الجلبة، مزيجه من قذارته الشُعَبية وصوت مضغ المطاط، ذاك الضجيج الذي يصرُّ أصحاب الغرامافونات وأجهزة الراديو على تسميته بالموسيقى. وخلف أصوات القذارة والنعيب كان هناك، ولا ريب، الخطوط العامة لتلك الموسيقى العلوية، مثل أستاذ عجوز رازح تحت طبقة من القذارة. لقد كان في إمكاني أن أتعرّف على البناء الفخيم والاتساع الرحب والعميق وانحناء الأوتار الكامل والفسيح.

هتفت مرعوباً: «يا إلهي، ماذا تفعل يا موتسارت؟ أحقاً تنوي أن تبليني وتبلي نفسك بهذه اللخبطة، بهذا الانتصار المعاصر، آخر سلاح ظافر في حرب إبادة الفن؟ ألا بد من هذا، يا موتسارت؟.

كم ضحك الرجل الخارق! يا له من ضحك بارد ومخيف. كان بلا ضجيج ومع ذلك فكل شيء فيه كان يتفتت شذراً. وانتبه إلى انزعاجي الشديد بارتياح عميق، وهو منحن يلعن البراغي ويصغي إلى البوق المعدني. وظل يضحك، وترك الموسيقى المشوهة، المقتولة والقاتلة تنز بلا انقطاع، وأجاب وهو مايزال يضحك:

«أرجوك، بلا إثارة للشفقة يا صديقي! على أي حال، هل لاحظت الريتاردادندو[1]؟ إنه إلهام، هه؟ نعم، والآن أيها البرم، دع الريتاردادندو يؤثر فيك. ألا تسمع الآلات الجهيرة؟ أنها تخطو بخطى واسعة كالآلهة. ودع هذا الإلهام للعجوز هاندل يتغلغل في قلبك المترع بالقلق ويمنحك السكينة. فقط أنصت، أيها المخلوق المسكين، أنصت حتى بلا شفقة أو محاكاة ساخرة، بينما بعيداً جداً خلف حجاب هذه الآلة البلهاء والسخيفة أبداً يمر شكل هذه الموسيقى العلوية. انتبه وسوف تتعلم شيئاً. لاحظ ما يعمل هذا البوق المتكلم المجنون ، الذي من الواضح أنه أشد الأشياء حماقة، وعقماً، ورداءة في العالم، على أدائه. إنه يتناول قطعةً موسيقيةً ما عُزفت حيثما تشاء، لا على التعيين وبلا تمييز، علاوة على أنها مشوهة بشكل يدعو للأسى، ثم يُقذَف بها إلى الفضاء لتحط حيث لا عمل لها. ومع ذلك فبعد كل هذا لا يمكنه أن يدمر الروح الأصلية للموسيقى، وكل ما يستطيع أن يفعله، مهما تطفّل وشوّه، هو أن يضع آليّته العقيمة عند قدميها. أنصت، إذن، أيها المسكين. أنصت

[1] ريتاردادندو: في الموسيقى الغربية هو تباطؤ الإيقاع الموسيقي بالتدريج.

جيداً. أنت بحاجة إليها. وها أنت الآن تسمع ليس فقط مقطوعة لهاندل الذي على الرغم من تشويه الراديو له، إلا أنه مع ذلك، وهو في أشد حالات التقنّع فظاعة، مازال قدسياً. لكنك تسمع أيضاً وتلاحظ، يا سيدي الفاضل، رمز الحياة كلها، الأكثر إثارة للإعجاب. وعندما تنصت إلى الراديو فإنك تكون شاهداً على الحرب الأبدية بين الفكرة والمظهر، بين الزمن والأبدية، بين الإنساني والقدسي. تماماً، يا سيدي العزيز، كما يبث الراديو وعلى مدى عشر دقائق متواصلة أجمل موسيقى ولا على التعيين إلى اشد الأماكن غرابة، إلى غرف جلوس مستكنة وعليّات وبين مستمعين يثرثرون، ويجرعون الشراب، يتثاءبون ناعسين، وتماماً كما إنها تجرّد هذه الموسيقى من جمالها الحسي، وتفسدها وتخدشها، وتلوثها، وتعجز مع ذلك أن تدمر تماماً روحها. كذلك فإن الحياة، المسماة بالواقع، تتناول طابع الخيال ــ المرح، السامي للعالم وتجعل منه هرجاً ومرجاً. تجعل من نبرته ـ قذارته المنفرة أروع موسيقى أوركسترالية. إنها في كل مكان تبرز آليته، ونشاطه، ومتطلباته الكئيبة، وتفاهته بين المثالي والواقعي، بين الأوركسترا والأذن. الحياة كلها هكذا، يا ولدي، وعلينا أن ندعها كما هي، فإذا لم نكن حميراً، نضحك منها. إن مما لا يليق بأناس مثلك أن يكونوا نقاداً للراديو أو حتى للحياة. الأجدر بك أن تتعلم أولاً كيف تنصت! تعلّم ما يجب أن تتناوله بجدية ومن ثم إضحك من الباقي. أم أنك قد قمت بنفسك بما هو أفضل، وأنبل وأنسب وبذوق أرقى؟ أوه، لا، يا سيد هاري، أنت لم تفعل. لقد جعلت من حياتك تاريخاً فظيعاً للمرض، ومن مواهبك شيئاً مؤسفاً. وكما أرى ها أنت لم تجد ما تفعله بسيدة شابة، غاية في الجمال والسحر، غير أن تغرز السكين في جسدها وتدمرها. أتعتقد أن هذا تصرف سليم؟».

صرخت يائساً: «سليم؟ لا، يا إلهي، إن كل شيء مغرق في الزيف والحماقة الجحيمية والخطأ! أنا وحش، يا موتسارت، وحش أحمق، وغاضب، مريض وعفن. هنا أنت على حق ألف مرة. أما هذه الفتاة ـ فكانت تلك رغبتها. وكل ما فعلت أني حققت لها أمنيتها».

أطلق موتسارت ضحكته الخرساء. لكنه أبدى لطفاً ضافياً وأغلق الراديو.

بدا تبريري لذاتي بصورة غير متوقعة أحمق تماماً بالنسبة إليّ أنا الذي صدقته من أعماقي. وظهر لي فجأة أنه عندما حدثتني هرمينه ذات مرة عن الزمن والأبدية، كنت مستعداً للتو لاعتبار أفكارها انعكاساً لأفكاري. لكني اعتبرت أن من البديهي أن فكرة انتحاري هي إيحاء منها ورغبة ولا علاقة لي بها البتة. ولكن لماذا في تلك المناسبة لم أكتف بقبول تلك الفكرة الرهيبة والشاذة، بل لقد خمنتها مسبقاً؟ ربما لأنها فكرتي أنا. ولماذا لم أقتل هرمينه في اللحظة نفسها التي رأيتها مستلقية عارية بين ذراعيّ شخص آخر؟ وجلجلت ضحكة موتسارت الخرساء المفعمة بالمعرفة، وبالسخرية.

قال: «هاري، أنت مهرج كبير. أحقاً لم تكن هذه الفتاة الجميلة تريد منك إلا أن تطعنها بخنجر؟ قل هذا الكلام لشخص آخر! على كل حال، على الأقل طعنتها طعنة نجلاء. إن المسكينة جثة هامدة كفأر. والآن لعل اللحظة المناسبة قد حانت لإدراك عواقب شهامتك التي أبديتها نحو هذه السيدة. أم هل تفكر في أن تتملص من العواقب؟».

هتفتُ: «لا، ألا تفهم على الإطلاق؟ أأنا أتملص من العواقب؟ إن أمنيتي الوحيدة هي أن أدفع ثمنها، وأدفع، وأدفع، حتى أضع رأسي تحت الفأس وأعاقب بالإعدام».

رماني موتسارت بنظرة ملؤها السخرية المفرطة.

«أنت دائماً مثير للشفقة. ولكن انتظر وستتعلم الفكاهة، يا هـاري. إن الفكاهة الحقة هي دائماً فكاهــة المشـنقة. وأنـت مُكـره الآن علـى أن تتعلمها وأنت معلق على المشنقة. أأنت مستعد؟ عظيـم. إذن هيـا بنـا إلى النائب العام وليأخذ القانون مجراه معك إلى أن يقطع رأسك بهـدوء عنـد انبلاج الفجر في فناء السجن. هل أنت مستعد؟».

على الفور ومضت عبارة أما عينيّ:

إعدام هاري

فأومأت بالإيجاب. وقفت وسط فناء أجرد محاط بجدران من جهاتـه الأربع مزودة بنوافذ ذات قضبان، ورحت أرتعش في وجـه نسـيم الفجـر الغائم. كان هناك عدد من السادة يرتدون معاطفهم وبزاتهـم الصباحيـة، وثمة مشنقة قد نصبت حديثاً. وقد انقبض قلبي من فرط البؤس والرعـب، لكني كنت مستعداً ومذعناً. وبناءً على أمر صدر إليّ تقدمت، وبناءً على أمر آخـر ركعـت. خلـع النـائب العـام قلنسـوته، وتنحنـح فتنحنـح كـل الرجال الحاضرين. وفتح وثيقة رسمية ونشرها أمامه وقرأ بصوت عال:

«أيها السادة، يقف أمامكم هناك هاري هاللر، المتهم والمدان بسوء الاستخدام المتعمد لمسرحنا السحري. ولم يكتف هاللر بإهانة جلال الفن بإرباكه معرض صورنـا الجميـل بمـا يسـمى بـالواقع وطعـن حتـى المـوت انعكاس صورة فتاة بانعكاس سكين، بل كشف بالإضافـة إلى ذلـك عـن نيته باستخدام مسرحنا كآلية للانتحار وكشف عن أنه مجرَّدٌ من روح الفكاهة. وعليه نحكم علـى هـاللر بالحيـاة الأبديـة ونعلـق مـدة اثنـتي عشرة ساعة سماحنا له بدخول مسرحنا. وأيضاً يعاقب بالضحك منـه بدون توقف وهو يغادر قاعة المحكمة. أيها السادة، كلكم معاً، واحد ـ إثنان ـ ثلاثة!».

لدى لفظـه "ثلاثـة" انفجـر جميـع الحـاضرين في نوبـة ضحـك آنيـة واحدة، ضحك جماعي، ضحك مخيف، قادم من العـالم الآخـر لا تكـاد تتحمله الآذان البشرية.

حين عدت إلى نفسي ثانية، كان موتسـارت جالسـاً بجـواري كمـا السابق. فصفعني على كتفي، وقال:«ها قد سمعت الحكم الصادر بحقـك. وهكذا، كما ترى سيترتب عليك أن تتعلم كيف تنصـت إلى المزيـد مـن موسيقى الحياة التي يبثها الراديو. سوف تتوصل تدريجياً إلى أن تسـتوعب ما هو مطلوب منك. عليك أن تتعلم أن تضحـك. سيُطلب منـك هـذا. ويجب أن تدرك الجانب الفكه مـن الحيـاة، فكاهـة مشـنقة. لكنـك طبعـاً مستعد لكل شيء في العالم ما عدا ما سـيُطلب منـك. أنـت مسـتعد لأن تطعن الفتيات حتى الموت. ومستعد للموت بكل رصانة. وسـوف تكـون مستعداً، بلا ريب، لتعذيب نفسـك ومعاقبتهـا علـى مـدى قـرون تاليـة. أليس صحيحا؟».

هتفـت وأنـا في غمــرة بؤســي: «آه، نعــم، إنــي مســتعد بكــل جوارحي».

«بدون شك فعندما يتعلـق الأمـر بـأي شـيء أحمـق ومثـير للشـفقة وخال من روح الفكاهة والظرف، فأنت الرجل المناسب. أيها المأساوي. أما أنا، فلستُ كذلك. إنني لا آبـه أبـداً لكـل قصصـك الرومانسية عـن الكفارة. لقد رغبتَ في أن تُعدم وأن يُقطـع رأسـك أيهـا المسعور! إنـك بسبب هذه الفكرة المثالية الحمقاء سـوف تطلـب الحيـاة. اللعنـة، لكنـك ستعيش! كنت تستأهل أن تُدان بأقسى العقوبات».

«أوه، ما هي؟».

«كان في إمكاننا، مثلاً، أن نعيد هــذه الفتـاة إلى الحيـاة مـن جديـد وأن نزوجك منها».

«لا، ما كنت لأكون مستعداً لذلك. كان سيجلب لي التعاسة».

«وكأنما لا يكفيك ما لديك من تعاسة في كل ما أعددته للتو! ولكن، دعنا من حديث الشجن والموت. حان الوقت لتعود إلى رشدك. عليك أن تعيش وأن تتعلم أن تضحك. عليك أن تنصت إلى موسيقى راديو الحياة وأن تجلّ الروح الكامنة خلفها وأن تضحك من الصوت الغريب فيها. هذا كل شيء. لن يطلب منك أكثر من ذلك».

سألت برفق وأنا أصر أسناني: «وإذا لم أُذعِن؟ وإذا أنكرتُ عليك الحق، يا موتسارت، في أن تتدخل في شأن ذئب السهوب، وأن تتطفل على قدره؟».

قال موتسارت بهدوء: «عندئذ سوف أدعوك إلى أن تدخّن سيجارة أخرى من سجائرك الرائعة»، وبينما هو يتكلم ويخرج سيجارة من جيب صدرته، ويقدمها إليّ، إذا به فجأة لم يعد موتسارت، إنه صديقي بابلو يرنو إليّ بود ضافٍ من عينيه الغريبتين الداكنتين وكان يشبه الرجل الذي علمني لعب الشطرنج بالأشكال الصغيرة كأنه توأمه.

هتفت بإجفال تشنجي: «بابلو! بابلو! أين نحن؟».

قال وهو يبتسم: «نحن في مسرحي السحري، وإذا رغبت في أي وقت في أن تتعلم رقصة التانغو أو في أن تكون جنرالاً أو أن تتجاذب الحديث مع الإسكندر الأكبر، فإن ذلك رهن إشارتك. ولكن يجب أن أقول، يا هاري، إنك قد خيَّبت ظني قليلاً. لقد نسيت نفسك بشكل رديء، واقتحمت عالم فكاهة مسرحي الصغير وحاولت أن تشيع الفوضى فيه، وأنت تطعن بالخناجر وترشش صورة عالمنا الجميلة بطين الواقع. لم يكن ذلك جميلاً منك. آمل، على الأقل، أن تكون قد فعلت ذلك بدافع الغيرة عندما شاهدتني مع هرمينه مستلقيَيْن هناك. لسوء

الحظ، إنك لم تعرف ماذا تفعل بهذا الشكل. حسبتك تعلمت اللعبة أفضل من ذلك. حسن، سوف تحسن التصرف في المرة القادمة».

تناول هرمينه التي انكمشت على الفور بين أصابعه إلى أبعاد دمية ــ نموذج ووضعها في جيب الصدرة نفسها التي أخرج منها السيجارة.

انتشر دخانها الحلو الرائحة، والكثيف في عبق ممتع. وكنت منهكاً من التعب ومتهيئاً للنوم مدة عام كامل.

لقد فهمت كل شيء. فهمت بابلو. فهمت موتسارت، وسمعت في مكان ما خلفي ضحكته الرهيبة. أدركت أن القطع المئة ألف في لعبة الحياة موجودة في جيبي. وقد حرَّكَ قبسٌ من معناها عقلي، وصمَّمتُ على أن أباشر اللعبة من بدايتها. سوف أختبر عذاباتها مرة أخرى، وأرتعش من جديد لعبثها. سوف أعبر ليس مرة واحدة، بل مراراً جحيم وجودي الداخلي.

ذات يوم سوف يتحسن أدائي في اللعبة. ذات يوم سوف أتعلم كيف أضحك. إن بابلو ينتظرني، وموتسارت كذلك.

من إصدارات الدار

1 ـ معنى الحياة والسعادة والأخلاق	ترجمة: يوسف الجهماني
2 ـ موليير (مسرح)	ترجمة: يوسف الجهماني
3 ـ على دروب الثقافة الديمقراطية	بوعلي ياسين
4 ـ عطر اللوز (شعر)	يوسف صياصنة
5 ـ أزهار الغضب (شعر)	منصور الزعبي
6 ـ الشعر النبطي في حوران	علي المصري
7 ـ قراصنة وأباطرة	نوعام تشومسكي
8 ـ المعري والشيرازي	علي خلوف
9 ـ رسالة عارف المتلوف	زكريا شريقي
10 ـ حوران عبر التاريخ	د. خليل مقداد
11 ـ كاليجولا	ترجمة: يوسف الجهماني
12 ـ نرسيس وغولدموند	هرمان هسه
13 ـ روسهالده	هرمان هسه
14 ـ حرية الآخر	جاد الكريم الجباعي
15 ـ القرآن بين التفسير والتأويل	أنور خلوف
16 ـ المعري والشيرازي	علي خلوف
17 ـ ما وراء الحجاب	فاطمة المرنيسي
18 ـ حوارات في قضايا المرأة والحرية والتراث	نبيل فياض

سيصدر عن الدار

1 ـ حزب الرفاه ـ أرباكان

الإسلام السياسي الجديد (الرهان على السلطة) يوسف الجهماني

2 ـ خلفاء بلا خلافة أ. أ. إغاتنكو

3 ـ الصراع السياسي في تركيا ف. ي. دانيلوف

4 ـ أيام الثلج الأحمر ـ رواية د. فواز الأزكي